خـــوان مارســيه




روايــــة



ترجمة : أحـمد حسـان



# سحر شنغهاي

الكتـــاب : سحر شـنغهاي

المـؤلـف : خـوان مارسيه

المتـرجـم : أحمد حســان

لوحتا الغلاف

مـاتيـس

خطـوط

حامـد العويضـي

تصميم الغلاف والإشراف الفنى

علـي حامـد

الطبعة الأولى :

يـونيو ١٩٩٧

رقم الإيداع :

٩٧/٧٧٨٩

ISBN: 977-19-3654-9

خـــوان مارســـيه

# سحر شنغهاي

ترجمة : أحمد حسان

هذه ترجمة كاملة لرواية :

*El embrujo de Shanghai*

بقلم المؤلف :

*Juan Marse*

نشـــــر دار :

*Plaza & Janes*

الطبعة الثالثة الصادرة عام ١٩٩٤

إلى ذكرى روزا دي كالافيل
وبرتا دي لاربوتش.
إلى كارمن دي سانتافي.
إلى خواكينا دي إرجيخويلا.



الحنين الحقيقي، الأشدّ عمقًا،

لا يتعلّق بالماضي، بل بالمستقبل.

كثيراً ما ينتابني الحنين إلى المستقبل؛

أعني.. الحنين إلى أيام العيد تلك،

حين كان كلُّ شيء يشخُص إلى الأمام..

وكان المستقبل لا يزال في موضعه.

« قمر الجنوب »

لويس جارثيا مونتيرو



# الفصل الأول

## ١

أحلام الصبا تتعفّن في فم البالغين، قال الكابتن بلاي وهو يسير أمامي بخطوته الواسعة الجسورة والمظهرِ الهشّ لرجلٍ خفيّ: رأسٌ معصوبة، ومعطف، وقفّازات، ونظّارة سوداء والتواءُ أساريرٍ مُباغت ومُتكبِّر كان يبهرني. كان متوجهًا إلى كشك التبغ لشراء ثقاب وفجأة توقف على الرصيف وتشمم الهواء بقلقٍ من خلال الشاش الذي يلفّ أنفه وفمه بجوٍ شبَحي.

- واضح أن كل هذا العفن التعس - استمر في تشمُّم وهمه الأثير مستعينًا بهزات عصبية من رأسه، وتوقفت أنا أيضًا لأشُم - موجود في الشارع. لكن الأمر لا يقتصر على ذلك... لا أود إغضاب أحد، لكن يبدو أن هناك بيضًا يتحلّلُ. ألا تشمّهُ؟

كان للكابتن موهبة الإيحاء إليّ بصوته المعدني وانتابني إحساسٌ بخواءٍ مفاجئ في معدتي وشعورٌ بالدوار.

هكذا تبدأ حكايتي، وكان بودّي أن يكون فيها مكان لأبي، أن يكون قريبًا مني لينصحني، حتى لا أحسّ أنني عديم الحيلة على هذا النحو إزاء شطحات الكابتن بلاي وإزاء أحلامي ذاتها، لكن في هذه الفترة اعتُبر أبي

مفقودًا بشكل نهائي، ولن يعود إلى المنزل بعدها أبدًا. عاودت التفكير فيه، رأيت جسده مُمَددًا في الخندق ونُدف الجليد تسقط فوقه ببطء وتغطّيه، ثم فكرت في الكلمات الملغزة للعجوز المخبول وأنا أمضي ملتصقًا بأذياله نحو كشك ميدان روبيرا، وبينما نمرّ أمام مدخل المبنى رقم ٨، بين الحانة والصيدلية، توقف الكابتن تمامًا للمرة الثانية والتقط أنفُه، الذي عادة ما يكون مُكممًا ومُموّهًا تحت الضمادة، العطنَ من جديد.

- ألا تعرف هذه الرائحة الفظيعة، يا فتي؟ - قال - ألم يعد أنفك الساذج الصغير الذي أفسده بخورُ كنيسة لاس أنيماس والعَرَقُ الحامض لعباءات الكهنة قادرًا على التقاط الرائحة...؟ - توقّف مادًا رقبته، وهو يشهق مثل حصان عصبي - بيض فاسد، براز قطط؟ لا شيء من هذا... هنا، في هذه البوابة. الآن أعرف ماهو! إنه غاز! يا للبؤس الذي حطّ علينا...!

داخل الردهة كانت تعشش بالتأكيد رائحة بؤس شبه دائمة، فقد كانت ملاذًا ليليًا للمتسولين، لكن الكابتن عرف كيف يُميز في الحال بين عطنٍ وآخر كما أنه أكد أن رائحة الغاز لم تكن تنبعث من هناك، بل من الرصيف المحطّم الذي نطؤه، من الشقوق التي ينمو فيها عشبٌ مُبعثرٌ وكريه.

تولّى هو نفسه تحذير الجيران. علّق على الأمر في الكشك، وفي الصيدلية، وفي محطة الترام، ورغم أن اندفاعات جنون شيخوخته كانت معروفة تمامًا، فإن كلّ من كان يمر منذ ذلك اليوم برصيف الجانب المرتفع من الميدان ويشم الهواء، كان يتبين الرائحة على الفور. انزعجت النساء وأبلغت إحدى الجارات شركة الغاز.

ـ لا شك أن هناك ماسورة مكسورة تسرب هذا الخراء ـ ردّد الكابتن بلا كلل في حانة الميدان ـ هذا خطر جدًا، أيها السادة، والأجدر بنا جميعًا أن نتجنب بسلام المرور من هناك وأن يقبع كل واحد في منزله، إذا أمكن... وحاذروا تمامًا من إشعال سجائر بجوار الكشك، أقول هذا لكم، أيها الغلمان.

ـ والأهمّ ـ حذّر صديقه السنيور سوكري الزبائن الدائمين من الشاربين، الذين أنصتوا يتنازعهم القلق والتهكم ـ، أن تحاذروا من النظرات الملتهبة والأفكار المشتعلة والنذالة التي مازال البعض يخفونها. احذروا! فبائعة أبي فروة العجوز أمام السينما، بموقدها ولسانها الأفعواني، هي أيضًا خطر. شرارة أو كلمة قذرة، ثم، بوم!، ويمضي الجميع إلى الجحيم.

ـ فلتحاذرا أنتما، أيها الملعونان، فأنتما تحرقان الصحف خلف الكشك ـ رد عامل ترام ساخر يشرب عصير العنب ـ ويومًا ما سنتطاير كلنا في الهواء، مع محطة الترام والنافورة و...

ـ ولم جئنا إلى هذا العالم ان لم يكن لنتطاير جميعًا أشلاءً في الهواء، قل لي يا عامل الترام المتزمتِ العجوز بلباسك الكاكي!؟ ـ صاح الكابتن ملوّحًا بذراعيه الطويلتين كذراعي مروحة طاحونة وهو يحكّ قدميه في سجادة النشارة وبذر الزيتون. كانت ضمادةُ رأسه قد تراخت وبرزت بجانب أذنه نُدفٌ من القطن المنسول المصفرّ ـ تطايرْ إلى ألف شلوٍ، يا رجل الرب، وسوف تشعر بأنك أفضل بكثير!

ـ ربماً أفعل يا سيدي، نعم ـ قال عامل الترام، وأردف ناظرًا إلي ـ هيا، خذه يا فتى،

انقضت خمسة عشر يومًا وظلّت الرائحة في الميدان، ورغم شكاوي الجيران المتكررة إلى شركة الغاز القطالونية وإلى البلدية، لم يأت أحدٌ للإصلاح. ومن باب الحانة كان يمكن ملاحظة أن كل شيء ظلّ على حاله يومًا بعد يوم؛ كان المارّة المنزعجون ينزلون من الرصيف مُتجنبين المرور أمام البوابة، بينما كان سُكان المبنى، المكوّن من ثلاثة طوابق بشرفات ملتفة مليئة بنباتات الجيرانيوم، يخرجون ويدخلون مُتسللين مثل فئران مذعورة. واعتدنا، الأخوان تشاكون وأنا، أن نمرّ بشكل سافر من هذا الجزء من الرصيف يُشعل رؤوسنا الشعور بالخطر، بوشك وقوع كارثة.

كنتُ في ذلك الحين في وضع فريد، جديد بالنسبة لي، يجعلني أغرق على فتراتٍ في السأم وأحلام اليقظة: كنت قد تركت المدرسة وليس لديّ عملٌ بعد. أو بالأحرى، كان لديّ عمل مؤجّل. إذ بسبب براعة أبديتها في الرسم منذ الطفولة، بذلت أمي جهودًا، بفضل نصيحة ووساطة صائغ صديق لها، هو السنيور أوليارت، كي يُلحقوني كصبي للتدرّب وقضاء المشاوير في ورشة صائغ غير بعيدة عن المنزل؛ وفي الورشة قالوا لأمي إنهم لا يحتاجون إلى صبي آخر للتدرّب لفترة عشرة أشهر أخرى على الأقل، حتى تنقضي إجازات الصيف القادم، لكنها رغم ذلك قرّرت أن مهمة الصائغ هي ما يناسبني بالضبط وتعهدّت بإرسالي إلى الورشة في الموعد المتفق عليه. كان شغفي المفترض بالرسم وحبّي للقراءة حاسمين في اتخاذ ذلك القرار: فأمي، مُسترشدةً في المقام الأول بحسّها العملي - فلم تكن تستطيع دفع مصاريف دراستي وكان المنزل بحاجة إلى أجرٍ آخر - لكن مسترشدةً بحدسها أكثر، أرادت بهذه الطريقة توجيهي إلى مستقبل

توقعت أن يكون موسومًا بنوع من الحساسية الفنية، ولو بأكثر معانيها غموضًا وابتذالاً. إلاّ أنني، في ذلك الحين، لم أكن قادرًا على إيجاد رابطةٍ بين صنعة الصياغة الفنية وبين همومي، والشيء الوحيد الذي كان يروقني، فضلاً عن القراءة والرسم، هوالتسكّع في الحي وفي حديقة جويل.

اعتدتُ الإلتقاء في حانة الميدان على ناصية شارع بروبيدنثيا مع صبيّيْنِ من سنّي، هما الأخوان تشاكون، اللذان كنت أحسدهما سرًا على وقاحتهما وحرية حركتها. كانت مواردُ رزقهما متقلبة ومرتبكة، مثلما كانت جولاتهما في أنحاء الحي؛ إذ أنهما لمّا كانا قد تحرّرا من المدرسة قبلي بكثير، فقد اشتغلا في أعمالٍ مؤقتة كموزعَيْن وصبيَّيْن لكلّ المهام في البارات والحانات، ويُشاهدان الآن وهما يذرعان الشوارع طوال النهار. ولم أعرف أبدًا أين يسكنان بالضبط، أظنُّ في كوخ بشارع فرنثيسكو أليجري، في أعلى الكارميلو. كانا أيام الأحد يبيعان قصصًا مصوَّرة مستعملة وروايات ممزقة من تلك التي تباع في الأكشاك بسعر منخفض.

انقضى شهر نوفمبر وغطت أوراق الموز الصفراء الميدان الصغير الرمادي المنكفئ على نفسه، حلّ البرد مبكرًا وبدا أن الشتاء سيكون قاسيًا. كان الناس يعبرون مسرعين ومنحنين، لكن السنيور سوكري ظل دائمًا كمن يسير أثناء النوم، يتحدث وحده ويتصرف كأنه يشكّ في وجوده ذاته أو كأنه يخشى أن يتحوّل فجاةً إلى شبح. تعوّد القول أنه، في الأيام السيئة الطقس والتي تنشط فيها الرياح، يتوجب عليه أن يلقى بنفسه في الشارع بَحثًا عن ذاته الشاردة. وبالفعل، كنا نراه مقتفيًا آثار نفسه عبر شوارع حي جراثيا ويداه خلف ظهره ورأسه مُطرقة، مفتشًا في الحانات

والصيدليات ودكاكين المأكولات المحفوظة، في المكتبات المنزوية والمتربة للكتب المستعملة وفي معارض اللوحات المتواضعة، سائلاً الناس حتى يهتدي إلى اسمه وبياناته. وقد حكى لنا أنا والأخوين تشاكون أنه يتجشم جهدًا جهيدًا ليعود إلى ما كان عليه، وأن العون الذي يلقاه ضئيل، حتى أنه يودّ أحيانًا أن يترك الأمر برمته ويقنع بأن يكون لا أحد ويتشمس في هدوء جالسًا على أحد المقاعد الخشبية لميدان روبيرا. لكن الأغلب أن نراه وهو يفتش عن نفسه قلقًا ومسعورًا في أقلّ الأماكن توقعًا، يقولون أنه توقف ذات يوم أمام معسكر الحرس المدني في ترييسيرا وسأل الحارس عن اسمه وعنوانه ـ اسمه وعنوانه هو، وليس الحارس ـ، وان هذا الأخير صاح مناديًا جاويش نوبة الحراسة وثارت جلبة صاخبة.

ـ لنر، يا صغار، هل تتفضلون بأن تقولوا لي كيف أُدْعى وأين أسكُنْ؟ ـ كان السنيور سوكري قد توقف عند باب الحانة وصَرَفَ انتباهنا للحظةٍ عن مدخل المنزل رقم ٨ ـ لو سمحتم.

ـ حضرتك تُدعى السيد خوسيب ماريا دي سوكري وتسكنُ في شارع سان سلبادور ـ أجبتُ بطريقةٍ آلية.

وافق متفكرًا، وبدا واضح الرضى عن هذه المعلومات. لكنه قبل أن يُقِرّ تمامًا بهويته، عاوَد التشكك:

ـ وماذا تظنون، هل من الممكن، هل من المحتمل أن أكون قد وُلِدتُ في قطالونيا وأنني فنانٌ مُصوِّرٌ، أكسبُ القليل أو بالأحرى لا شيء، أنني صديقٌ قديم لدالي، وليس في جيبي شلن...؟ همس ناظرًا إلينا وفي عينيه وميضٌ ساخر.

- نعم، يا سيدي. هذا ما يقال.

- في النهاية، ما حيلتنا - تنهد، وبيده الحانية ربّت على رأسي ورأس فينيتو تشاكون - أنتم صبية بالغو اللطف والاحترام إزاء هذا المستكشف الأحمق... شكرًا.

ولكي يُطمئنه تمامًا وليس للسخرية منه، كما قد يظن الكثيرون، قدّم له فينيتو المزيد من المعلومات.

- ومن عادة حضرتك أن تأتي كل يوم للتحدث برهة مع عمال الترام في المحطة، ثم تشتري الصحيفة من الكشك وتحرقها بعود ثقاب وأنت جالس على مقعد، أحيانًا بصحبة الكابتن. وبعدها تأتي إلى البار.

- حسنًا. فهمتُ. والآن، أتستطيعون أن تقولوا لي لماذا جئتُ، لو تكرمتم؟

- جئت سيادتك - تدخّل خوان تشاكون بصبر - لتتناول كأسٍ قهوةٍ بالعرق، مثل كل العصارى، ولترى إذا ما كان فوركات ذاك سيقرِّرُ أخيرًا الخروج إلى الشارع.

- لا بد أن الأمر كذلك - أقرّ السنيور سوكري مستسلمًا، وتوجه إلى منصةِ البارِ مغمغمًا - : نعم، لا بد أنه كذلك، ما حيلتنا.

على الجانب الآخر من الميدان، في الواجهة المائلة للاحمرار لسينما روبيرا، ظل جيسي جيمس[1] طوال الأسبوع يسقط من كرسي حجرة الطعام في منزله، والرصاص يثقب ظهره غدرًا، وفي اللافتة الأخرى ذات الألوان الخشنة، كانت السيدة عذراء الأقمار السبعة تُطلّ من فوق أغصان

(١) Jesse James

الأشجار العارية شاهرةً خنجرًا ونظرةً خبيثة تتفحص مرور عربات الترام وهي تدور عند منعطف تورّينتي دي لاس فلورس. لكن لم يكن ما يشدّ انتباه بعض الجيران المتجمعين عند باب بار كومولادا هذا المساء هو السينما، ولا حتى تسرب الغاز الذي كان مثار كثيرٍ من التعليقات عند مدخل رقم ٨، وحتى الاحتمال المثير لوقوع انفجار لم يكن هو ما يمنعنا من تحويل أنظارنا عن هناك، بل الفضول لرؤية رجلٍ يخرج من ذلك المدخل. في البداية، كان اهتمامنا برؤية الرجل المجهول انعكاسًا لفضول الكبار، فلم نره أبدًا من قبل ولم نعرف شيئًا عنه؛ ثم أدركنا أنه يُدعى ناندو فوركات، وأنه لاجئٌ عادَ من فرنسا بعد زهاء عشر سنوات وأنه صديق كيم، والد سوسانا. مضت عليه بضعة أيام في منزله، مع أمه العجوز المريضة جدًا وأخته العانس، ودارت التعليقات بأن الشرطة لا بد أنها تعرفه ومن المؤكد أنهم استجوبوه في مركز الشرطة، لكنهم، لسبب لم يستطع أحدٌ تفسيره، أطلقوا سراحه.

أما نحن فما كان بمقدورنا في ذلك الحين حتى أن نحدس أن هذه الشخصيةَ بعيدة الاحتمال، مثلما الأمر مع كيم: أنها مُخترعة، خيالية، وبلا عيوب، شخصية لا تكتسب حياة إلاّ في فم الكبار حين يناقشون، بالتلميحات في صوت خفيض، جرائمه ومآثره، وفق معيار كلّ واحد. اعتقدنا،حقًا، أنه لن يبلغ أبدًا مرتبة أن يصبح أسطورة مثلما كان كيم، الذي كان فوركات قد ناضل أو ما زال يناضل في جماعته. كان له أنصارٌ وخصومٌ بدرجةٍ متساوية، فظن البعض أنه رجلٌ راقٍ ومتعلم ناضلَ من أجل مُثُلِه العليا، فوضويٌ شريفٌ نشأ في برشلونة، ابنًا لصيادي سمك، دفع مصاريف حصوله على شهادة مُعلّم بالعمل كجرسون، بينما قال آخرون أنه

ليس سوى مجرم، لص بنوك ربما خان رفاقه القدامى والآن، وقد عاد، سيرغب أكثرُ من واحدٍ في تصفية الحسابات معه. وأنه لهذا السبب بالضبط يجدُ مشقةً بالغةً في الخروج من منزله. وحين شرعنا نتخيله، الأخوان تشاكون وأنا، فضّلْنا رجلَ الفعل، ذلك الذي يخاطرُ بجلده والمسدّسُ في يده ودائمًا في صحبة كيم، ظهرًا لظهر، يحمي كلٌّ منهما الآخر...

خلال أربعة أيام، لم يخرج ناندو فوركات إلى الشارع بل ولم يُطلّ من الشرفة. وأمام باب البيت ظلّت رائحةُ الغاز تطفو ليل نهار وأخذ يتملّكُ المرءَ الآن شعورٌ مزدوج بالإثارة عند المرور من هناك، فكأن الغاز ورجلَ العصابات قد أقاما تحالفًا خطرًا. وفي أصيل اليوم الخامس، اشترى الكابتن بلاي صحيفة (التضامن القومي) وأشعلَ فيها النارَ خلف الكشك، على مقرُبةٍ شديدة من البوابة. انتاب الذعرُ امرأتين كانتا تمرّان من هناك فانطلقتا تجريان صائحتين، لكن لم يحدث أي إنفجار.

في اليوم التالي، حوالي الساعة الرابعة من عصر يوم ينذرُ بالمطر، ظهرت دون توقّع فرقةُ صيانةٍ من شركة الغاز، رجلان وريس عمال، وبالمعاول والجواريف حفروا الرصيف وشقوا خندقًا أمام رقم ٨. أثار عملهم التوقعات في الميدان. كشفوا جزءًا من شبكة مواسير متهالكة مثل أمعاء صدئة، وأقاموا حاجزًا، ووضعوا ألواحًا بمثابة قنطرة من المدخل حتى حافة الرصيف لتسهيل مرور السكان. وهذا كل ما فعلوه. في الحقيقة بدا ذلك عملاً تافهًا؛ فقد كشفوا ستة أو سبعة أمتار من الرصيف، لكن الحفرة التي حفروها لم تتعدّ مترين طولاً وكانت قليلة العمق. ولم يحفروا بعدها. اقترب أحد العمال من البار ممسكًا بزجاجة مياه غازية فارغة،

وطلب ملأها بالنبيذ الأحمر، ودفع، وعاد إلى زميليه وجلس ثلاثتهم فوق أحجار الرصف المكومة على الرصيف وأمضوا بقية الأصيل يتجرعون الخمر ويتأملون نصف نائمين الحركة في محطة الترام وحول الكشك. ومن حين لآخر، كان الريس يبصق على التربة المسودة المكومة بجانب الرصيف ويلقي نظرة باردة على الحفرة. وحين حل الظلام أقاموا خيمة قماشية صغيرة وحفظوا فيها أدواتهم. ثم مضوا.

في اليوم السادس لوصول فوركات، أصبح خمول فرقة الصيانة أشد جلاءً. فلم يلمس أيهم معولاً ولا جاروفًا على الإطلاق. أخذوا يترددون على البار واحدًا فواحد، للتبول أو لملء الزجاجة بالنبيذ، دون أن يتحدثوا مع أحد. وفي مناسبة أخرى، اقترب أصغرهم سنًا، وهو شخص داكن السمرة قوي البنية بقلنسوة ساقطة حتى حاجبيه، من مدخل السينما لينظر إلى الصور المعلقة في اللوحة؛ تأملها عابسًا، كأنه لا يفهم. وكان يشاهد أحيانًا ملتصقًا بالجوانب المعدنية للكشك، ويداه في جيوبه، متسليًا بفك رموز أغلفة القصص المصورة المعلقة بالمشابك.

دارت التعليقات في البار حول انتظار وصول فني من الشركة، لكن فينيتو تشاكون وأنا اعتقدنا شيئًا آخر مختلفًا تمامًا. انقضى السبت والأحد وعاد العمال مبكّرين صباح الاثنين، ثم مضى يومان آخران وظلت الأمور كما هي، الحفرة مفتوحة والرجال الثلاثة يحرسونها مشبوكي الأيدي، لا ندري ماذا ينتظرون، عندها قال شخص في البار اللعنة، هذا غريب جدًا ولا بد أن في الأمر سرًا، فردّ عليه زبون آخر أنه لا داعي للاستغراب: فهؤلاء العمال ليسوا من شركة الغاز القطالونية، بل من البلدية، وعلق ضاحكًا، ألم

تروا أبدًا تكاسل عمال الأشغال العامة؟ سيكون غريبًا أن نراهم يعملون. أما بالنسبة لنا، فكان ذلك لغزًا ليس له سوى تفسير واحد: أنهم ليسوا عمالاً في شركة الغاز ولا في البلدية، ولم يأتوا لإصلاح أي تسرب ولا كانوا ينتظرون وصول أي فني ولا شيء من هذا القبيل. إنهم يعرفون أن هذا اللاجئ قد عاد، ويعرفون أنه بالمنزل وأنه لا بد سيخرج يومًا ما من هذه البوابة. كل مسألة الحفرة هذه مسرحية، ذريعة للبقاء هناك للمراقبة دون إثارة الشكوك. هذه الحفرة، في الحقيقة، قد تكون مقبرة فوركات.

## ٢

صباح الخميس ظل المطر يتساقط فترة طويلة حتى أصبح كوم التربة الناتج عن الحفرة إسفنجيًا، وازداد دكنة ثم تصلب في النهاية. وعند الظهر كنّا نجوس حول الكشك لننظر عن قرب إلى الرجال الثلاثة الجالسين على حافة الرصيف؛ كانوا يتناوبون زجاجة النبيذ الأحمر ولا يتحدثون إلاّ قليلاً. كانت الجدة سوريبس، العائدة من السوق والتي تسكن في رقم ٨، تستعد لدخول البوابة مروراً بالألواح المكسوة بالطين حين انزلقت وأوشكت على الوقوع. قفزت ثمرة يوسفي من الحقيبة الممتلئة واستقرت في قاع الحفرة. اغتاظت العجوز.

- إلى متى سيستمر هذا القلق؟! أنا أكلمكم، يا تنابلة؟ ألن تسدوا هذا الثقب اللعين أبدًا؟!

- حين يأمروننا بذلك، يا جدة - غمغم الريس - المؤكد أننا سنواصل الحفر.

- وماذا تنتظرون إذن؟! كسالى، أكثر من كسالى! - واصلت العجوز السير فوق الألواح الزلقة ودلفت من البوابة - يا للقرف! كيف جعلوا كل شيء هكذا!

- هيه، يا سيدتي، كان هذا الخراء هنا حين وصلنا! - احتج أصغرهم سنًا - الجدة العجوز المزعجة!

ساعة الغداء أخرجوا علب الطعام المنبعجة والمطاوى والفوط. كان علي أن أصحب الكابتن بلاي إلى منزله، لكنه لم يشأ أن يتبعني ذلك اليوم. قال إن زوجته ستأتي لتأخذه، فيما بعد، فتركته في الحانة مع السنيور سوكري. مضيت مع الأخوين تشاكون وعند مرورنا بجوار العمال، نادانا أطولهم، ذو الرأس الحليق.

- هيه، يا فتيان - كانت تظهر في علبة طعامه كتلة متلاصقة من الأرز المسلوق - اعملوا معروفًا، ليمض أحدكم إلى البار لإحضار شعرة ملح. لا أدري ماذا تظن امرأتي اليوم، لكن لا يوجد من يستطيع أن يأكل هذا... امض، يا غلام، أنت.

انطلق خوان يجري صوب البار. وانتظرناه أنا وأخوه دون أن نتحرك من مكاننا، ناظرين إلى الأجير الآخر والريس وهما يأكلان: الأول، حمصًا مطبوخًا بسمك البكلاه؛ والثاني، عدسًا بشحم الخنزير. كانا يمضغان بسرعة وبسأم متشابه، ونظر إلينا الريس مرة واحدة، لكن كأنه لم يرنا؛ كانت عيناه مائيتين وجفونه مريضة، وبيد متخشبة، دون أن ينظر إلى ما يفعل، تحسس زجاجة النبيذ التي قدمها له زميله. ومن الحفرة بلغت أنوفنا رائحة خفيفة لبراز قطط. عاد خوان جريًا بحفنة ملح في قطعة ورق

فشكره الأجير الحليق الرأس. عندئذ تجاسر فينيتو، كأنه كان ينتظر هذه اللحظة، فسأله لماذا لا ينتهون من حفر الحفرة ولماذا لا يبحثون عن تسرب الغاز.

- من قال لك أن هناك تسرب غاز؟ - زام الرجل وهو ينثر الملح على الأرز.

- كل الناس يعرفون هذا - قال فينيتو.

- حقًا؟ واضح أنكم منتبهون جدًا في هذا الميدان. كل ما وجدناه هو جمجمة.

- جمجمة؟

- هذا ما قلته - تبادل الرجل ذو الرأس الحليق النظر مع زملائه وأردف - : جمجمة وبعض العظام. ولهذا توقفنا عن الحفر، مؤقتًا. يجب أن يأتي أحد ليرى ذلك، أستاذ جامعي... تحت هذا الميدان هناك جبانة مليئة بالموتى، يا فتى. مئات، آلاف الموتى. عظام عتيقة ذات قيمة كبيرة، عظام ذات أهمية كبرى، فهمت؟ ليقل زملائي إذا كنت أكذب.

- لا يكذب، لا - قال أصغرهم.

- وأين الجمجمة؟ - سأل فينيتو - أنستطيع أن نراها؟

- بالطبع لا. إنهم يدرسونها.

لم تنطل علينا، بالطبع. ربما كانت دعابة، وانتظرنا القهقهة بين لحظة وأخرى، لكنهم واصلوا الأكل كأن شيئًا لم يكن، وهم يحكون بملاعقهم قاع علب الطعام ويعبون الخمر.

- ولهذا السبب - استطرد الأجير ذو الرأس الحليق - تعتقدون أنكم تشمون الغاز. لا يوجد أي تسرب غاز. هذا العطن هو ما يفوح من عظام

الموتى حين يجتمع منهم الكثير. كذلك يبعثون في الهواء ضوءًا أخضر كأنه ضوء فوسفور، لقد رأيته أحيانًا في الجبانات، في الليل... الرائحة تشبه الغاز كثيرًا، هي غاز في الحقيقة، غاز الموتى. أقسم بأمي على هذا.

لم نقل شيئًا. أكدت تلك الكذبة شكوكنا؛ لقد كانوا هناك لسبب آخر، لم يكن الإصلاح سوى خدعة. نظرت بقلق إلى الحفرة وإلى المدخل وعندها لاحظت عيني الريس المائيتين مغروستان فيّ.

- ماذا يقلقك، يا فتى؟ - غمغم بصوت مبحوح.

- أنا؟ لا شيء.

نظر إليّ في صمت بعينيه الحزينتين المتعبتين برهة طويلة، وقال أخيرًا : -

- هل أنت خائف.

- أنا؟ مم.

لزم الصمت من جديد، وكأنه يزهد في جعل نفسه مفهومًا، ليس لي فقط، بل لنفسه هو أيضًا. أدركت ذلك في عينيه وفي صوته :

- هيا، اذهب إلى منزلك. لا بد أن أمك في انتظارك لتأكل. وأنتما كذلك. إغربوا من هنا.

لم تؤلمني كلماته، بل عيناه المغرورقتان. كف عن النظر إلينا وظل مستغرقاً وهز رأسه هزًا خفيفًا بمزيج من العجز والإشفاق على النفس، وغمغم بصوت لا يكاد يُسمع كلمتي خراء عاهر دون أن أتمكن من معرفة إلى من يوجههما ولا الإهانة السابقة أو المستقبلية التي يستحضرها أو يتوقعها. صعد قط أسود الكوم المجاور للحفرة ليتشمم طيات التربة

الداكنة، وأحدثت عجلات ترام ينعطف أمام السينما صريرًا على القضبان وفي رأسي. وما زلت أذكر عيني ذلك الرجل والشعور اللعين بالإهمال والارتباك الذي غزاني، مثلما يحدث حين يحييني بود شديد أحد المعارف الذي أكون قد نسيت اسمه وحبه لي.

لم نذهب إلى المنزل واتفقنا على أن أولئك الأشخاص، رغم أنهم يبدون مسالمين عن قـرب، يخفـون نواياهم، على أية حال، مهما كانت هذه النوايا. واتفقنا على الالتقاء في الميدان بعد الأكل لنواصل التجسس على حركاتهم.

عند العصر اشتدت الريح، هبت في لفحات رطبة، كومت أوراق الشجر الصفراء إلى جانب الكشك ودفنتها في الحفرة، وأخذت أفكر في الرجال المنحنين الصامتين الذين يفركون أيديهم إلى جواري خلف زجاج الحانة، في كل حانات الحي والمدينة في هذه الساعة، رجال داكنون ومستوحشون يشربون واقفين ناظرين إلى الشارع أو أمام منصة البار أو مستندين على براميل الخمر وكأن الحياة قد حاصرتهم هناك، فوق بساط قذر من النشارة والبصاق. وبعد قليل جاء فينيتو وخوان وكنا ننظر إلى حمامة تخفق جناحيها ساكنة فوق نافورة الميدان، كأنها معلقة من خيط غير مرئي، حين ظهر بغتة ناندو فوركات أمام مدخل منزله، على حافةالحفرة، ملقيًا فوق كتفيه معطفًا رماديًا، ولابسًا نظارة داكنة وبين شفتيه سيجارة غير مشتعلة. لمع على صدره رباط عنق لافت للنظر، له وميض برتقالي وبنفسجي، وكان رجلاً فارعًا، ثقيل الكتفين وبارز الذقن. ظل لثوان ينظر إلى الكشك وإلى محطة الترام، وبعود ثقاب أشعل السيجارة، وهو لا يزال ساكنًا، وفي هذه

اللحظة لم أفكر في أن اللهب يمكن أن يفجر الميدان برمته، بل فكرت في الرجال الثلاثة الذين كانوا جالسين على أحد مقاعد الميدان يتبادلون، من جديد، زجاجة النبيذ. رآه ريس العمال في الحال، لكنه لم يبد أدنى حركة ولا نبه زميليه.

قبل أن يستعد للخروج بالخطو فوق الألواح، نظر فوركات إلى قاع الحفرة المفتوح أمامه، ورأى بالتأكيد خليط المواسير والكابلات الكهربائية الملتوية التي قرضتها الرطوبة، ورأى الأوراق الذابلة وثمرة اليوسفي المتعفنة، ثم أحاط بنظرة بطيئة دائرية بالميدان الكالح الهادئ المفتوح أمامه، دون أن يتوقف ولو لثانية واحدة ليدقق في الرجال الثلاثة الجالسين على المقعد؛ كانت عيناه اللتان تحميهما النظارة السوداء لا تحدقان إلا في نقطة في الفراغ، لا ندري ما هي، ربما في هزيمة حياته، في شيء يتعلق بقلبه الكئيب أكثر مما يتعلق بما يمكن أن يراه الآن حول الكشك ومحطة الترام تحت سماء رصاصية، ضوء الأصيل المفزوع ذاك والناس الذين يمرون كأشباح هاربة، والأطفال بكوفياتهم السميكة وركبهم المحمرة من البرد يتقافزون من دكان الزلابية[1] إلى النافورة، وحمامتان أو ثلاث تنقر في البركة.

بقدر ما استغرقنا في مراقبته في سكونه المتخشب بعض الشيء، وبقدر ما دققنا في يديه الطويلتين الداكنتين وفمه المتوتر، لم نستطع التقاط بادرة واحدة تقيم تحالفًا بين الموت والمشهد، ولا أي إيماءة تنم ولو بصورة

---

(١) Churrería : مكان بيع Churros : وهي نفس عجينة الزلابية أو لقمة القاضي ومقلية بنفس الطريقة لكنها على هيئة أصابع أسطوانية، وتؤكل في الصباح فور قليها كإفطار خفيف مع القهوة - م.

عابرة عن وعيه المحاصر والمُدان. لقد بدا، حقًا، حذرًا ومتوترًا بعض الشيء، لكن ربما كان ذلك راجعًا إلى كتفيه البارزين الفهديين. وحين أصبح أخيرًا مستعدًا لعبور عتبة شيء لا ندريه، جذب نفسين من سيجارته لكنه، على غير توقع، طوحها في الحفرة، ودار على عقبيه ورأيناه، يختفي في عمق الردهة.

بعدها بيومين، ألقى العمال جواريف الطين في الحفرة وغطوها بنفس أحجار الرصف المتآكلة، وحملوا الأدوات والقضبان في شاحنة صغيرة ومضوا إلى غير رجعة. عندها انتبهنا إلى شيء فاتنا: فخلال كل الوقت الذي ظل فيه الرصيف محفورًا، كاشفًا المواسير الصدئة والكابلات المتقشرة، لم نحس فيما حوله بأي رائحة سامة بوجه خاص، اللهم إلاّ العطن الخفيف لبراز القطط الذي تتنفسه التربة المكشوفة. لكن فور ردم الحفرة وأحشائها المتعفنة، عادت رائحة الغاز تسمم الهواء أمام بوابة رقم ٨، وليس هناك فقط؛ فقد بدا أن الجو العفن ينتشر كل يوم أكثر فأكثر، وجاءت لحظة، ربما لأن العفونة قد التصقت بملابسك وجلدك، أصبح باستطاعتك عندها التقاط الرائحة اللعينة في شوارع بعيدة عن الميدان، بل وأبعد من ذلك، في أحياء نائية.

## ٣

سيمضي فوركات بدوره من المنزل ومن الحي كله، بعد البقاء بضعة أيام بجوار أمه المريضة، ولن نراه مرة أخرى إلا في الربيع التالي وفي ظروف أشد غرابة. كان رحيله محاطًا بالكتمان وغير متوقع مثلما كان وصوله. ودارت التعليقات أن لا شيء يبقيه هنا سوى دفن أمه العجوز عندما تحين الساعة.

بعدها بوقت قصير قال أحدهم أنه رآه يغسل الصحون خلف منصة حانة بحي برشلونيتا، تملكها أخته الأخرى المتزوجة، لكن هذا بدا غير محتمل، لأن خطاباته بدأت تصل من فرنسا مرة أخرى، كما كشف ساعي البريد في البار، مما يفترض أنه عاد من جديد إلى تولوز.

وحوالي ذلك الوقت، عند بداية العام، كفّ الأخوان تشاكون عن التردد على الميدان وكانا يريان أحيانًا منطرحين على الرصيف المقابل لمدرسة المعلم المقدس عند ناصيةِ شارع الإسكوريال، يعرضان بضاعتهما من القصص المصورة والروايات المستعملة. وبعد ثلاثة شهور، رأيتهما، ذات سبت، يقفان أمام عتبة دكان لبيع الخضراوات المطبوخة في شارع بروبيدنثيا. كانت تحتل الرصيف براميل مليئة بزيتون فواح وكان الأخوان تشاكون ينظران إليها ويتشممانها وأيديهما في جيوبهما. كانا أشد قذارة وبؤسًا من قبل وأشد نحافة، كانا قد صارا كلهما عيونًا وجربًا وبدا أنهما متحفزان أمام الفريسة. وفي الدكان، كانت نصف دستة من النساء تقفن في طابور للحصول على حمص وعدس مطبوخين. اقتربت من الأخوين تشاكون من الخلف راغبًا في مفاجأتهما، لكنني ما أن وضعت يدي على كتف فينيتو حتى استدار نحوي ببطء شديد وقد استحالت عيناه بياضًا، وفجأة، اجتاحته ارتجافات شديدة، وأطلق صيحة وتهاوى على الرصيف، حيث أخذ يرفُص ويخرج من فمه رغوة خضراء. هرع أخوه خوان يسند رأسه وهو يبكي ويطلب العون. توقف بعض المارة، وخرجت النساء من الدكان وأحاطت حلقة من الجيران بالأخوين، لكن أحدًا لم يدر ماذا يفعل. من حنجرة فينيتو كانت تخرج حشرجات مخيفة لم أكن قد سمعتها إلاّ في

السينما، ولم يتوقف فمه عن إفراز تلك الرغوة الخضراء المقرفة وأشفقت عليه النساء وتحسرن على الهجران الذي يعاني منه بعض الأطفال، وعلى جوع وبؤس أولئك المهاجرين[1] الفقراء الذين يعيشون في أكواخ... ظللت برهة مشلولاً بفعل المفاجأة والخوف، ثم اجتاحني حزن هائل لرؤية صديقي يتلوى كأنما تملكه الشيطان، فألقيت بنفسي إلى الأرض لأسنده وأناديه حتى يخرج من تلك البئر السوداء: «سيرافين! فينيتو، ماذا بك!»، وكنت أحتضن ساقيه اللتين أصابهما الجنون حينما، دون أن يكف عن العواء وإفراز اللعاب، غمز لي بعينه، الوغد اللعين...

تمالكت وانتظرت لأرى إلى أي نهاية ينتهي ذلك الضجيج المرعب من الصرخات والحركات المسرحية، رغم أنني صرت أتخيلها. فبمساعدة خوان، الذي كان يضغط على رأسه بكلتا يديه كأنما يمنعها من الانفجار، أخذ فينيتو يهدأ وجرجر نفسه على مؤخرته فوق الرصيف وتمكن بجهد كبير وواضح من الاستناد بظهره على الجدار. علقت إحدى الجارات، بينما تنظف له اللعاب بمنديل، قائلة إن هذه النوبات العصبية ترجع إلى الضعف، إلى المعدة الخاوية. فقال خوان: «لم نأكل منذ خمسة أيام، يا سيدتي». خرجت جدة تسكن في الجانب المقابل بعلبة لبن مركز أعطتها للبدويين الجائعين. وحين تمالك فينيتو بإعياء، خرجت بائعة الخضروات المطبوخة من الدكان حاملة قرطاسًا مليئًا بالحمص الذي يتصاعد منه البخار، كان به كيلوجرامان على الأقل، أعطته لخوان وقالت، هيا، اذهبا إلى المنزل لتأكلا. طلب خوان مساعدتي وسندنا فينيتو فيما بيننا ومضينا من هناك بين التعليقات المتحسرة للجيران.

---

(١) Charnegos : تطلق فى برشلونة على المهاجرين من أقاليم إسبانيا الأخرى - م.

فور أن استدرنا حول المنعطف، صلب فينيتو قوامه مبتسمًا وخبطني على رأسي، وقال: «أنت عبيط». في هذه اللحظة كرهته وحسدته سرًا؛ فخلال الأشهر الثلاثة التي لم نلتق فيها، كان هو قد تعلم حيلاً لقتل الجوع ببيع قصص مصورة مستعملة بصنع رغاوي خضراء بفمه، ولم أكن بالمقابل قد تعلمت شيئًا سوى لعب البلياردو. وجالسين على أحد مقاعد ميدان دل نورتي، التهم الأخوان تشاكون الحمص الساخن، الذي رفضته أنا، ويحد موسى مبراة صنعا ثقبين في علبة اللبن. وبينما يمتصان اللبن من العلبة، شرحا لي الخدعة: فقبل أن يترك فينيتو نفسه ليسقط على الأرض، كان يمضغ قرصًا من الألوان المائية الخضراء ويضع في فمه حفنة من ماء الصودا. أما الباقي فتتكفل به الصفاقة التي تدفعه إلى هذا الأمر ومواهبه البازغة كمحتال. شعرت بأنني أحمق ومخدوع، وحانق لأنني تركت مشاعري تتأثر بمثل هذه الحيلة التي اختلقها مهاجران أميان ومقملان، وحين رأيتهما يضحكان مني وفمهما مليء بالحمص واللبن المركز، مضيت دون حتى أن أقول الوداع.

كنت أجهل حينئذ أن تمويهات وخدعًا أخرى، أقل مسالمة وغير غذائية على الاطلاق، تنتظرني عند قدوم الربيع غير بعيد عن هناك، في شارع لاس كاميلياس بصحبة الكابتن بلاي.

## ٤

كانت أمي تعمل في مطابخ مستشفى سانت باو ولم تكن تأكل بالمنزل. كانت تخرج قبل أن أنهض من نومي تاركة لي الطعام معدًا، أرز مسلوق على الدوام تقريبًا أو فاصوليا بسمك البكلاه، وأحيانًا بقايا مما كانت تجلبه

من المستشفى، وفي الليل تعود بالغة الإجهاد بحيث تأوى إلى فراشها في الحال. كنا نسكن في شقة ثالثة صغيرة جدًا في أعلى شارع ثردينيا، على حافة ميدان سانليهي. وحين كنت أعود إلى المنزل بعدها، حيث كنت أتأخر بعض الليالي في لعب البلياردو في بارخوبنتود[1] ، كنت أوارب باب حجرة نومها وأنظر إلى الداخل، دون أن أرى شيئًا لأن الظلام دامس، لكنني كنت أبقى هناك بجوار الباب منتظرًا أن أسمع شيئًا: تنفسها، جسدها وهو يتحرك بين الملاءات، طقطقة السرير أو سعلة، أي علامة كانت تدلني على أن أمي قد عادت إلى المنزل وأنها تستريح.

قبل أيام قليلة بالضبط من وصول ناندو فوركات ومن مسألة الحفرة عهد إلي بالمهمة الدقيقة للسهر على الكابتن بلاي العنيد. كانت جارتنا الدونيا كونشا، زوجة الكابتن، قد اقترحت على أمي أن باستطاعتي، ما دام لا يشغلني شيء أفضل، أن أكرس الصباح لمصاحبة العجوز الأحمق في جولاته في الحي.

ـ ستذهب معه وتعتني بألا يقع له شيء ـ أمرتني أمي ـ. افتح عينيك لعربات الترام والسيارات، ولهذه العصابة من المتشردين الذين يسخرون منه في الشارع. ولا يذهبن بعيدًا، لا تهبطا إلى أبعد من ترابيسيرا دي جراثيا. ولا تدعه يحرق الصحف، بحق الرب، فأي حماقة هذه!

كانت السنيورة كونشا تعطي الكابتن بعض النقود من أجل أكواب الخمر، لكنها حذرتني ألاّ أدعه يدخل كل الحانات، بل فقط تلك التي يعرفونه فيها، وألا يدخل في مشاكل ولا في مناقشات سكارى وقبل كل شيء ألا يتكلم في السياسة مع أناس غير معروفين، ألا يطلق إحدى حماقاته ويكون

---

(١) الشبيبة. (م)

علينا أن نبحث عنه في قسم الشرطة... أجبت كليهما، السنيورة كونشا وأمي، قائلاً حسنًا، سأصنع ما أستطيع، لكنني فكرت: من ذا الذي يستطيع أن يغلق فم العجوز المعتوه، أو أن يمضي به إلى حيث لا يريد؟

في الأيام الأولى انتابني خوف شديد. فخلال زهاء ثلاث سنوات، لم يكن الكابتن قد مشى مائة متر متواصلة في خط مستقيم ولا خرج من منزله على الإطلاق، مختبئًا بعض الأحيان في غرفة حمام صغيرة غير مستخدمة يصل إليها عن طريق دولاب ملابس لا ظهر له يخفي بابها. وحين قرر أخيرًا الخروج إلى الشارع كان قد خسر ثلاثين كيلوجرامًا من وزنه، وحربًا وابنين، واحترام زوجته، ووفق كل الظواهر، جزءًا كبيرًا من عقله الذي كان خفيفًا على الدوام. لم يتعرف عليه أحد من الجيران في البداية، فقد بلغ من خوفه أن خرج متخفيًا في هيئة تنكرية ملفتة «لأحد المشاة صدمته عربة ترام»، وفق ما كان يروق له أن يقدم نفسه في الحانات: مجهول في طور النقاهة من مستشفى المستعمرات الأجنبية المجاور في شارع لاس كاميلياس خرج لبرهة ليحرك ساقيه ويشرب كأس خمر، بإذن من الطبيب والممرضة بالطبع؛ وكان يرى السكارى الصباحيين والمشاكسين الذين يستمعون إليه متحيرين ببجامته المخططة تحت المعطف الفضفاض، وصندله الخيش ورأسه الشامخة والمحمومة المعصوبة تمامًا، بيضة ضخمة من الشاش وحزم القطن المنسولة تتوجها خصلة من الشعر الأبيض النافر. وقد تخلى عن النظارة السوداء بعد ذلك بقليل، حين أصبح معروفًا في الحي وبدأت أنا أصطحبه في جولاته. وقد أخبرني الكابتن أنه خلال حبسه الطويل حلم بأنه عند خروجه سيرى مبان مهدمة تحت مطر من الرماد، وأكوامًا من

الأثاث والمتاع والتوابيت، الغنيمة بعد الهزيمة وسط إعصار هائل: بروق ورعود وأبواب ونوافذ تنفتح بعنف والعاصفة تخبط قطرات الدم على ورق حوائط حجرات النوم البائسة التي يمكن رؤيتها من الشارع من خلال الثقوب في الواجهات... كان لديه انطباع بأنه عاد إلى مدينة مهجورة، متروكة للوباء أو للقصف المدفعي، هذا ما قاله لي في أول يوم من أعلى الجينارو، وهو مزروع على باب حانة ونظرته ضائعة في جبهته وذاكرته مدمَّرة.

جعلني مزاجي الخجول، المتخوف والمصدق لكل شيء، أبتلع في البداية كل تفانين الكابتن، كل أشكال جنونه ومبالغاته، لكنني أخذت أتعلم شيئًا فشيئًا كيف أصارع تلك الشخصية الغريبة. والآن، وفي مقابل هذه الخدمات كدليل وملاك حارس، أو ربما لأن الدونيا كونشا قد أشفقت على أمي لأنها مشغولة جدًا، أصبحت آكل في منزل الكابتن ثلاثة أيام في الأسبوع. كانت الدونيا كونشا امرأة سمينة ومتوقدة، شفتاها غليظتان ورموشها الطويلة مطلية بالكحل، أصغر من الكابتن بكثير وذات قلب طيب. وكان الأخوان تشاكون يسمونها البتيبو[1] Betibu. كانت تسكن مع العجوز المخبول في شقة بالطابق الأول فوق شقتنا، لكنني ظللت لوقت طويل أعتقد أنها تسكن بمفردها ولم أكن أعرف من الكابتن بلاي سوى اسمه؛ فيما يبدو، كانت البتيبو أرملة ليس لها مورد رزق سوى أعمال التنظيف التي تقوم بها في بعض البيوت وأشغال التطريز الدقيقة، التي تلقى تقديرًا كبيرًا بين السيدات الورعات في كنيسة لاس آنيماس والسيدات الثريات في الحي.

---

(١) تعريف لإسم بيتي بوب Betty Boop . وهي من شخصيات القصص المصوّرة. ممتلئة وذات جاذبية جنسية - م.

كذلك كانت تحيك وترفو الجوارب. وبسبب صداقة قديمة وقرابة بعيدة كنت أجهلها حينذاك، كانت أمي تكن لها إعزازًا شديدًا، وعند عودتها من زياراتها لقرية أجدادي في البينيديس، ببعض البطاطس والزيت وغير ذلك من الزاد، كانت دائمًا تعد سلة صغيرة لدونيا كونشا وتبعثني بها إلى شقتها: باذنجان، وطماطم، وفلفل، وخرشوف، وبندق، وقطعة سجق أحيانًا. وذات يوم، وأنا أعبث بالسلة التي كنت أصعد بها إلى البتيبو، حين حاولت الإمساك ببندقة، تعثرت يدي بسيجارتين ملفوفتين في ورقة صحيفة. يا خبر! هل تدخن البتيبو، السجائر سرًا؟، سألت أمي، أم أن تلك المفرقعات الكريهة الرائحة من أجل أحد أعزائها، الخفير، أو جامع القمامة...؟ نظرت إليّ أمي بقسوة وتفكرت في الإجابة: ما تحمله في هذه السلة هو شيء لا يجب أن يعنيك، السنيورة كونشا امرأة صالحة ومنذ فقدت الكابتن وابنيها تجد نفسها في وحدة شديدة... إنها تستحق الاحترام والعون، والسجائر لها هي، نعم، فكل منا له رذيلة صغيرة.

كانت أمي تكذب وسرعان ما عرفت السبب. كنت قد ذهبت إلى منزل البتيبو عدة مرات، لكن لم أتخط المدخل أبدًا ولم أعرف بعد أن المرحوم الكابتن بلاي والرجل الخفي، ذلك الشخص الغريب الذي نراه يتجول في الحي محاطًا بسرب من الصبية يصيحون فيه قائلين: «اخلع ثيابك، أيها الرجل الخفي، فلن يراك أحد!»، كانا نفس الشخص. وقد اكتشفت ذلك يوم بعثتني أمي لأعود ببعض الجوارب التي كانت الدونيا كونشا ترفوها لها ولأن هذه الأخيرة، بدل أن تجعلني أنتظر في المدخل كما تفعل دائمًا، أمرتني أن أتبعها حتى غرفة الطعام وأجلستني حتى تفرغ من الجوارب. وسط المائدة المغطاة بمفرش كان يتأرجح نصف بطيخة مغروس في قلبها

القرمزي سكين. سألتني البتيبو إن كنت أريد شقة بطيخ فقلت لا ـ فقد أكلت نصف البطيخة الآخر في المنزل ـ عندئذ تأملت دولاب الملابس العتيق، الأسود البالغ الارتفاع، المزاح إلى زاوية غرفة الطعام. بدا وكأنه صومعة اعتراف كالحة مثل صوامع الأبرشية. وتساءلت ماذا يصنع دولاب ملابس في غرفة الطعام؛ ورغم أنني كنت متعودًا على بعض التضاربات في استخدام ووضع الأثاث المنزلي، فقد عشنا أمي وأنا لبعض الوقت في سكن مشترك، بمساحةٍ ضيقة وعفش كثير، فإنني لم أر أبدًا في الحقيقة مثل هذا الدولاب الضخم في مكان غير مناسب على هذا النحو. فكرت أنه ربما كان يُخفى بقعة رطوبة أو شقًا في الحائط، وبينما أفكر في ذلك، انفتحت، بغتة، ضلفتا الدولاب محدثتين صريرًا، وشقت يدان ناحلتان ومسودتان لنفسهما طريقًا بين المعاطف القديمة وبذلات المرحوم التي نحلتها العثة والمعلقة في الشماعات، وبخطوة واسعة، انزرع الكابتن بلاي أمامي، محنيًا ومتحفزًا كالنمر، ونصف سيجارة مطفأة بين شفتيه ببيجامته المخططة ومعطفه البني الطويل، منبعثًا من عالمه الآخر الذي صار محطمًا ولا يمكن استعادته، عالم الابنين الميتين والمثل الضائعة، عالم الهزيمة والجنون.

ـ أولاد القحبة ـ قال دون مرارة، كأنه قد تذكر شيئًا لتوه.

## ٥

مطاردًا على الدوام بخيالات وأصوات سأتعلم مع الوقت فك شفرة مصدرها ومغزاها، ظل الكابتن بلاي للحظة بجوار الدولاب وظهره محني وحدقته منتبهة، متوترًا وشيطانيًا، منصتًا، ربما، إلى صدى الطلقة التي تدوي على الضفة الأخرى لنهر الإبرو ويرى ابنه أوريول يسقط من جديد بين

سيقان الحصان وعلى ظهره الجريندية والبندقية، ونظارة الميدان المعلقة في رقبته تهتز.

نظر إليّ دون أن يراني. ولم تعره زوجته أدنى اهتمام، لانهماكها في رتق الجوارب. رفع الكابتن هامته بعناء وسط الضباب الكثيف الذي يتصاعد من النهر. كانت ضلفتا الدولاب العتيق، مغطاتين من الداخل بصور صغيرة مطبوعة عليها صلوات وأشعار ورعة.

- سأخرج إلى الشارع، يا كونشا - أعلن بنبرة من الخفوت بحيث بدا أنها تود مسبقًا ألاّ تكون مسموعة. وبينما يقلب ضمادات وقطنًا مستعملاً في أحد الأدراج، أردف بصوت أشد خفوتًا لكن دون حزن -: أين تظنين أنهم دفنوه؟ لم ترد زوجته ولم تنظر حتى إليه.

- على الأقل - أردف هو - كان بإمكانهم أن يعيدوا إلينا نظارة الميدان. فقد كانت جيدة جدًا.

- Vols parlar com Deu mana, brètol?[1] - قالت البتيبو.

- لم يعد الرب يأمر، يا كونشا. الآن يأمر هؤلاء.

نظر إليّ كأنه رآني لتوه وقال: «وأنت من أنت، يا ولد؟»، وشرع يعصب رأسه وهو يدور على عقبيه كالمغزل، وعاد ينظر إلى نفسه وملامحه تتقلص حنقًا بينما يربط ضمادة أخرى تثير الدوار بدورها، طويلة وقذرة، حول جبهته الدامية: قفز، ولا بد أن رأسه الجريح قد احتك بقماش خيمة الميدان الشبحية المنصوبة بجانب النهر ثم أقعى في الوقت المناسب بالضبط لرؤية أوريول وهو يسقط صريع رصاصة للمرة المليون. كان شخص ينتحب على

---

(١) هل تتكرم بالتحدث كما يأمر الرب، أيها الأحمق، - بالقطالونية - م.

الدوام وراء ظهره وهو ممدد على نقالة، ربما كان ابنه الآخر ذو السبعة عشر عامًا الذي عاد من الإبرو مريضًا بالتيفوس. لعن الكابتن وأمره بالسكوت:

- Prou, nen! Calla![1]

- Què dius?[2] - زامت زوجته.

- لا أتحدث معك - قال هو، وعاد رأسه المحموم للاصطدام بأحد حبال الخيمة عند خروجه وغوصه في الضباب - الشهر الماضي، صفرت فوق النهر طلقتان طائشتان. الأولى لأوريول والثانية لرأسي. القحبة اللعينة وصلت حتى مخي، لكنها حين دخلت لم أكن أفكر في شيء ذي بال. إذن أنا خارج لأتمشى.

هزت رأسها المستدير الخزفي المحدد بخصلات مجعدة سوداء ولامعة وزمت فمها البارز، الأشد احمرارًا من قلب البطيخة. لم تنظر إليه الآن أيضًا ومن المحتمل ألا تكون قد سمعته، فهي شديدة الصمم، لكنها تعرف أنه هناك إلى جوارها ينسج حماقة ما. من قديم لم تكن تناديه باسمه، بل بلقبه.

- Blay, ets un capde cony[3] - قالت بلغة قطالونية مطرقعة وانتقامية - Estas boig[4].

- أنا خارج، يا ملكة - أعلن الكابتن - وأعتقد أنني عند عودتي إذا مررت

---

(١) كفى، يا طفلي! اصمت!.

(٢) ماذا تقول؟.

(٣) بلاي، أنت سخيف.

(٤) أنت مجنون.

على لاس أنيماس - ساكل قسيسًا. - لاحظ وقع كلماته على سحنتها وأردف -: إذا كان حقًا أنني بلشفي أحمر متعطش للدماء وماسوني منحط، فيجب أن أتصرف كأنني كذلك. ألا تظنين، يا حلوة؟

استمرت دونيا كونشا في تعنيفه بالقطالونية، اللغة التي ظلا يتحدثانها كلاهما دومًا. وفيما بعد، قصت علي أمي أن الكابتن، ذات يوم، منذ سنوات، بينما كان يتناقش مع زوجته، بالقطالونية بالطبع، انتابته نوبة دماغية وفجأة فقد النطق، وسقط على الأرض؛ وأنه عندما عاد إليه وعيه بعد فترة طويلة، عانى من زيغ بصره والأدهى أنه بدأ يتحدث بالإسبانية دون أن يعرف هو نفسه سببًا لذلك ودون أن يستطيع تجنب ذلك، مهما حاول. ومنذ ذلك الحين أخذ يتحدث بهذه اللغة، رغم أن دونيا كونشا، سمعته أم لم تسمعه، كانت تجيب دائمًا بالقطالونية.

- Ja n'ets prou deruc, ja(١)

- قلت إنني خارج وسأخرج - أصرّ الكابتن بصوت تستطيع الآن سماعه بوضوح تام -. أنا الآن أكثر نحافة، وأكثر بهدلة وأكثر قبحًا. لن يعرفني أحد. لقد تحولت إلى وباء في خدمة موسكو، أعترف، لكن لن يلاحظني أحد في زي واحد من المشاة صدمه ترام.

- Ami em parles en català! Cantamañanas! Càpsigrany!(٢)

زرر الكابتن معطفه بهدوء.

- إلى اللقاء، يا قطيطتي. سأعود سريعًا.

---

(١) لقد أصبحت حيواناً تماماً.

(٢) حدثني بالقطالونية! أيها المخرّف! أيها الثرثار!.

- On vas ara, desgraciat? Ruc, més que ruc![1]

لا أدري إن كان الكابتن قد استطاع الخروج إلى الشارع ذلك اليوم، لأنني استبقت نواياه. كانت دونيا كونشا قد فرغت من رتق الجوارب وقلبتها على الوجه الآخر في لمح البصر بيديها السمينتين البالغتي السرعة، لفتها وناولتها لي، فهربت جريًا.

## ٦

في أواسط مارس نقل الأخوان تشاكون منصة بيع التقاويم المفككة وروايات الغرب الأمريكي الممزقة إلى ناصية شارع لاس كاميلياس[٢]، بجوار سور حديقة سوسانا فرانش، التي مضى عليها عام ونصف طريحة الفراش بمرض السل. كانت سوسانا في الخامسة عشرة وكانت ابنة كيم. كنا قد تعاملنا معها قليلاً، كنا نعرف أنها ترددت لبعض الوقت على كنيسة لاس آنيماس وصادقت فتيات دار العائلة، وحين عرفنا أنها تقيأت دمًا عدة مرات وأنها مصدورة، لم نستطع أن نصدق: هي بالذات، التي بدت فتاة موفورة الصحة والمرح، والتي تسكن في ذلك البرج البديع ذي الحديقة، وبكل النقود التي قيل إن أباها يملكها. لكن أمها، وفق ما تقول دونيا كونشا، حين بقيت وحيدة مع الطفلة تدهورت من سيء إلى أسوأ واضطرت لبيع مجوهراتها والنزول إلى العمل: والآن تعمل في نوبات المساء كبائعة تذاكر في سينما مونديال في شارع سالميرون، ولكي توازن أجرًا هزيلاً كانت

---

(١) إلى أين تذهب، أيها التعس؟ حمار، أكثر من حمار!.

(٢) يعنى إسم الشارع . زهرات الكاميليا.

أيضًا تقوم بعمل تطريز دقيق بتكليف من زوجة الكابتن. ورغم ذلك كانت تمر بها أوقات ضيق، خصوصًا الآن مع الطفلة المصدورة؛ قيل إن زوجها لم يعد يرسل إليها نقودًا من فرنسا، وأنها بالتأكيد لا تتحرج من قبول نوع معين من المساعدات الصغيرة من الرجال... هذه الشائعات حول مغازلاتها الغرامية كانت تغضب البتيبو- التي لن تفلت أبدًا هي الأخرى من النميمة، التي كانت تصر دومًا على أن هذه الشائعات ليست سوى أقاويل لا أساس لها تطلقها أربع نساء ورعات من الأبرشية.

كانت سوسانا تقضي النهار في الفراش في القاعة الجانبية نصف الدائرية المفتوحة على الحديقة، والتي بدا أنها أكثر غرف البرج بهجة وتعرضًا للشمس؛ ومن الشارع كان يمكن رؤيتها مستلقية بين وسائد كثيرة تحوطها أبخرة عطرية ترطب الجو وتغبش الزجاج، بقميص نومها البنفسجي أو الوردي وشعرها الأسود مفكوك على كتفيها، تتسلى بتلوين أظافرها بطلاء لؤلؤي أو أحمر بلون الكريز وتقرأ المجلات، وغالبًا ما تستمع إلى الراديو وتقص بمقص إعلانات الأفلام من الصحف. وفي ركن من القاعة كان البخار يتصاعد على الدوام من قدر به ماء وكافور فوق مدفأة حديدية ضخمة تشتعل بالفحم، وتتصاعد ماسورتها المتلوية، مثل شخبطة سوداء شريرة، حتى تكاد تلمس السقف ثم تنفذ إلى الخارج من خلال ثقب تام الاستدارة مثقوب في الزجاج.

وبَّخت الأخوين تشاكون على اختيارهما لناصية لاس كاميلياس هذه للتجسس على سوسانا في الفراش، فقال فينيتو من تظنني، يا فتى، لا شيء من هذا، ألا تدري أن المسكينة ستموت قريبًا؟ كذلك لم يختر الموقع لأنه

هو وأخيه يتوقعون وصول أبيها، كيم، ذات يوم، بل لسبب أقل إثارة لكنه أشد إلحاحًا: ببساطة لكي يكونا على مقربة من سوق الباعة الجائلين المقام في نفس الشارع، أبعد قليلاً من برج سوسانا على الرصيف المقابل، مستندًا على الجدار الطويل لملعب كرة أوروبا. وعلى مقربة تقع مدرسة ولذا كان الأطفال يمرون من هناك، كما أن الأخوين كانا يتناوبان التجوال بين حين وآخر بين منصات بيع الفاكهة والخضروات فربما نالا أحد الأعمال الصغيرة، حمل الصناديق أو تنظيف مساحة المهملات أو القيام بمهمة. وإذا لم يصادفا شيئًا، ألقى فينيتو نفسه على الأرض فريسة لإحدى نوبات صرعه الرائعة. كان يفعلها بطريقة مقنعة لدرجة أنني، رغم معرفتي بالحيلة، كانت رؤية اختلاجاته وارتعاشاته وتقلصاته، بعيني الغريق والرغوة الخضراء في الفم، تسبب لي فزعًا شديدًا. كان ثمة دكان زلابية على ناصية شارع ثردينيا ودائمًا ما كان يجد روحًا محسنة تشتري للبدوي البائس كيسًا من الكعك، كما كان يجد دائمًا إحدى بائعات السوق لتعطيه تفاحتين أو موزتين.

من منصتهما بجوار السور، أقام خوان وفينيتو مع الطفلة المريضة علاقة صامتة وودودة، شفرة مرحة من الإشارات والعلامات، ودائمًا ما كانا يقرضانها قصصًا مصورة وروايات صغيرة ويزودانها بالكافور من أجل القدر. وعادة ما كانت أم سوسانا تظهر في الحديقة لتبعث أحدهما إلى السوق لشراء فاكهة، أو إلى الفحام أو الخباز، وحين كانت تمضي في العصر إلى السينما كانت تطلب منهما أن ينتبها حتى لا يدخل إلى الحديقة أحد. كنت أتوقف بعض المرات لأتصفح الروايات عند المنصة واستطعت

أن أرى سوسانا تنهض من الفراش وتحيي حارسيها من وراء الزجاج وهي تلوح بيدها وعلى فمها ابتسامة حزينة.

وذات مساء كئيب مررت فيه من شارع لاس كاميلياس حين كان الأخوان تشاكون قد ذهبا، هاربين بالتأكيد من قسوة البرد والشبورة التي غزت الشارع ومحت خطوط الحديقة والبرج، خيل لي أنني أرى بقعة وردية تدور كالمغزل خلف الزجاج، بجوار الفراش، كانت هي الصبية المصدورة ترقص محتضنة الوسادة. جرى ذلك للحظة، وسرعان ما تهاوت على ظهرها فوق الفراش، ثم نهضت ورأيت يدها بوضوح تمسح البخر عن الزجاج ثم وجهها الملتصق به، شاحبًا ونائيًا، ناظرة إليّ وكأنها تطفو داخل فقاعة. لكني أظن أنها لم ترني، لأنني لوحت لها بيدي فلم ترد التحية، ولم يتأخر جو القاعة الدافئ في تضبيب الزجاج من جديد حتى محا وجهها.

# الفصل الثاني

## ١

قبل الجنون التام للكابتن بلاي بوقت قصير، طلب مني أن أذهب لأرسم بأقلامي الملونة سوسانا وهي محصورة في فراش المرض. كان بحاجة إلى رسم تلك الطفلة المريضة لأمر في غاية الأهمية. وقد تحدث مع والدتها، السنيورة أنيتا، وقال إنها موافقة.

- يمكنك رسمها دون أن تضطر للذهاب، من الذاكرة، إذا كنت تخشى العدوى، لكن لن يخرج الرسم جيدًا.

- لا أعرف الرسم من الذاكرة - قلت.

- إذن يجب أن تذهب في أسرع وقت. أظنها ستموت عن قريب.

مضى الكابتن متوترًا جدًا ذلك اليوم، برأسه المعصوب والمعطف المفتوح الذي يظهر البيجاما. قادني إلى دكان ورق بشارع بروبيدنثيا، واشترى لي ستة أفرخ من ورق الرسم وشرح لي فيم يحتاج الرسم. كان قد قرر أن يركز كل جهده في جمع التوقيعات من الجيران لوثيقة كان يكتبها ويفكر في تقديمها إلى البلدية للإبلاغ عن التسرب الإجرامي للغاز في ميدان روبيرا الذي يهدد بتسميمنا جميعًا، والذي أخذ يقتل مرضى الصدر مثل

سوسانا المسكينة... لكن علاوة على تلك الرائحة الكريهة السامة، التي بدا أن أكثر الناس خوفًا وعمي قد تعودوا عليها، ثمة رائحة أخرى لا تقل انحطاطًا وخبثًا: هي مدخنة مصنع البلكسيجلاس والسيلولويد. كانت مدخنة من الطوب الأحمر لا يبلغ ارتفاعها الحد الأدنى الذي يقضي به القانون، كما قال الكابتن، وتطلق ليل نهار دخانًا أسود خانقًا لا يمكنه الارتفاع ويصبغ الحي كله بالهباب. وقد تعب من إرسال أكوام من الرسائل إلى مدير مصنع دولس ش.م. طالبًا زيادة طول المدخنة، دون أن يتلقى أي رد، وهكذا عقد الآن العزم على الانتقال إلى الهجوم: سيجمع توقيعات من المواطنين ليس فقط لمحاربة رائحة الغاز، بل ضد المدخنة كذلك. قال إنها يجب أن تكون رسالة شجب قاطعة وساحقة، مزودة بخمسمائة توقيع على الأقل. وقد حصل على توقيع سوسانا وأمها. وأضاف الكابتن أن توقيع الطفلة كان بالغ الأهمية ويعد شهادة من الطراز الأول، لأن التعسة رئتها مدمرة وتحتاج إلى الهواء النقي، وهذا الدخان الخانق يفاقم مرضها.

كنت أعرف جيدًا المدخنة والفناء الخلفي لمصنع دولس، فقد قفزت مع فينيتو وأخيه سور المخزن مرات عديدة لنلتقط من الأرض قطعًا من أحزمة البلكسيجلاس تبدو كثعابين ملونة، وأسماكًا وبطًا من السيلولويد وكرات بنج بونج بها عيب من عيوب التصنيع. لكن كان قد مضى على ذلك ثلاث سنوات أو أربع.

- وفضلاً عن البلاغ المكتوب - أصر الكابتن -، أريد أن أقدم لحقراء البلدية هؤلاء شيئًا آخر، وهنا يمكنك المساعدة. قالت لي أمك إنك ترسم جيدًا جدًا... وكما تعرف ترتفع المدخنة خلف حديقة هذه الصبية المريضة

المسكينة، وحين تستيقظ، كل صباح، تلقى عليها نفحة من الخراء الأسود تحية الصباح.

وقد فكرت أنه، بالإضافة إلى التوقيعات، ولإعطاء الموضوع قوة أكبر، فإن رسمًا جيدًا لسوسانيتا[1] وهي تحتضر في الفراش ويقربها المدخنة تنفث فيها هذا الدخان السام سيكون أبلغ من كل الكلمات...

- مرحى، يا كابتن! منذا الذي يحتضر هنا؟

- لنر إن كنت تفهمني، يا فنان. يجب أن نتصرف بدهاء! ارسم لي الطفلة المصدورة شديدة الشحوب والهزال، بالغة الحزن، بجبهتها تلك التي تبدو من الخزف، مطروحة في الفراش وعيناها مغلقتان ويدها على صدرها، تتنفس بصعوبة، هكذا، انظر...

- وهل رأيتها؟ - قلت.

- بالأمس زرتها مع زوجتي.

- ألا زالت تتقيأ دمًا؟

- لم تفعل أمامي.

- تقول دنيا كونشا أنها تداويها بزهرة البيلسان، تدعك بها صدرها وظهرها.

- كذبة عفنة. زهرة البيلسان المغلية في الماء لا تشفي سوى نوبات الزكام لدى القساوسة والمخنثين، هذا أمر معروف. ولا تقاطعني، لأن التكليف الذي أعهد به إليك بالغ الأهمية - زام الكابتن وهو يعبر شارع مارتي -. تذكر: يجب أن يكون رسمًا مؤثرًا، يثير البكاء. ويجب أن يظهر

---

(١) سوسانيتا هي صيغة التدليل لسوسانا - م.

الدخان الخطر طافيًا فوق المريضة في فراش الموت، مثل سحابة سوداء وقاتلة، وأن تظهر المدخنة حمراء مثل خطر غير معهود ووحشي، مثل لعنة...

ـ وهل تتركني سوسانا أرسمها؟

ـ قالت لي أمها إنها قد أقنعتها تقريبًا ـ أخرج الكابتن من جيب معطفه سيجارة معوجة ـ غدًا صباحًا ستذهب إلى منزلها من طرفي ويمكنك أن تبدأ في الحال. وقل لي إذا احتجت إلى مزيد من الورق. أعتقد أن لديك أقلامًا ملونة.

ـ هل تريده بالألوان؟

ـ طبعًا. متى ينتهي؟

ـ هيه، لا أدري. أنا بطيء جدًا، فالأمر يجهدني.

ـ ما دام الرسم سيكون جيدًا.. هيا، يا فتى، تشجع! لنر إن كنت ستبدع! سندمر أوليجا ركيي الدخان السام والغاز القاتل هؤلاء!

في الميدان جلس للحظة على مقعد حجري وقسم السيجارة إلى قسمين بشفرة مبراة. احتفظ بالنصف وأشعل النصف الآخر بعود ثقاب، حاميًا اللهب بيديه المعروقتين ومعطيًا ظهره لرصيف تسرب الغاز. «من باب الاحتياط»، غمغم. كانت الضمادات ذات الخيط الأحمر التي تلف رأسه قذرة: فلم يغيرها منذ أسبوعين على الأقل، وربما كان ينام بها. وبالمقابل كانت القفازات الجلدية بلون التبغ ذات التطريز الأبيض في حافتها، والتي كان يحملها اليوم مشبوكة بحزام المعطف، تلمع لا تشوبها شائبة. وسرعان ما نهض الكابتن عن المقعد وبدا أنه فقد اتجاهه. ومع كل الوقت الذي قضاه متخفيًا في هيئة واحد مجهول من المشاة صدمه ترام، خطر لي أنه ربما يكون قد نسي ملامح وجهه هو.

ـ هيا بنا إلى المنزل لنبري الأقلام ـ اقترح ـ أسرع!

ـ ألم تكن حضرتك تريد الذهاب إلى البار؟

ـ شيء آخر: غدًا، حين تذهب إلى البرج، احمل إلى سوسانا بعض رسومك لترى أنك فنان. هيا أسرع، فأمامنا الكثير لنفعله!

لم أنم تلك الليلة مفكرًا في الصبية المصدورة وهاجمتني كل أنواع المخاوف والمحاذير. سمعت سعالها العميق المتعفن بالميكروبات ورأيتها تبصق بقوة لعابًا ورديًا في المنديل، منديل جميل من الباتستا[1] أخفته تحت الوسادة على الفور. وقد أصبحت عند الفجر وأنا أطفو في نوم متقطع، بقوة ودقة لم أحظ بها من قبل في هلوساتي الشبقية، تخيلت كذلك، ثدييها الأبيضين مثل الجليد بين الملاءات البيضاء وفخذيها المحمومين بلون الحليب تغطيهما طبقة رقيقة من العرق وهما يتحركان قلقين في المنام.

## ٢

في صباح اليوم التالي توجهت إلى شارع لاس كاميلياس وتحت إبطي حافظة الرسوم. ومن مجرد التفكير في المسلولة أحسست بأنني منهار ومحموم وكأنني لا أجد الهواء الذي أتنفسه، كأن العدوى قد أصابتني فعلاً بصورة غامضة. وعلى البعد، فوق برج سوسانا، لم يكن دخان المدخنة الذي يكرهه بلاي كثيرًا يصعد مباشرة إلى السماء، بل يتساقط كأنه لعاب أسود حول فوهتها ويظل معلقًا لبرهة طويلة في فقاقيع منفرة قبل أن يتناثر ويسقط فوق الأسطح والحدائق القريبة.

(١) قماش قطني أو كتاني رقيق ـ م.

وجدت الأخوين تشاكون يعرضان بضاعتهما الممزقة فوق الرصيف، بجوار سور حديقة سوسانا، وتوقفت لبرهة أتصفح روايات إدجار والاس في مجموعة اللغز. كان ثلاثة أطفال يقلبون كومة القصص المصورة المستهلكة. كان سوق الباعة الجائلين على بعد أقل من خمسين مترًا وكانت بعض النساء اللائي يأتين للتسوق مع صغارهن يتركن هؤلاء عند المنصة ليتسلون بالتطلع. وعبر الحديقة رأيت سوسانا خلف زجاج القاعة، مستلقية على الفراش وعلى كتفها شال أزرق. كانت عينها مُغمضة ورأسها مُلقى إلى الوراء، لكنها لم تكن نائمة ولم يبد أنها تتألم لأنها كانت تحرك ذراعها اليمنى إيقاعيا، كأنها تتابع إيقاع موسيقى، من الراديو بالتأكيد.

أعلنت لفينيتو وخوان أنني سأرسم صورة لسوسانا بتكليف من الكابتن، وفي البداية لم يريدا أن يصدقا ثم شعرا أنهما غيوران وشبه متألمين. أدركت إلى أي درجة كان الأخوان يعتبران أنفسهما حارسين دون سواهما للطفلة المريضة ومسؤولين عن كل ما يمكن أن يحدث للحديقة وللبرج.

- حسنًا. لكن الحذر الحذر، يا فتى - حذّرني فينيتو -. إذا رأيت أنها تعبت، أو إذا صارت حزينة فجأة، كأنها سارحة، الله أعلم بما تفكر فيه، يجب أن تذهب على الفور - وأخرج من جيبه نصف دستة من دبابيس الشعر - أعطها هذا من طرفي. وهذا التقويم لريب كيربي Rip Kirby الذي يبدو جديدًا بربطته.

- هل رأيتها عن قرب، هل دخلت عندها؟ - سألت.

ـ أحيانًا. حين تكون وحيدة.

شـرح لـي فينيتـو أن أم سـوسـانا تـخرج من المـنزل كل عصر، بما في ذلك أيام الآحاد والعطلات، في الثالثة والنصف لتلحق بالعمل ولا تعود حتى الثامنة على الأقل؛ ودائمًا ما ترجوهما من فضلهما لو جاء أحد أن يترك معهما رسالة. كانت السنيورة أنيتا تود أن تنهض ابنتها من الفراش أقل ما يمكن. والمرة الأولى التي فتحت لهما فيها سوسانا باب القاعة المؤدي إلى الحديقة كانت لأنها هي قد نادتهما؛ كانت المدفأة قد انطفأت، وكان يجب إحضار فحم من الكرار وهو ما فعلاه. وأحيانًا كانا يذهبان لأنها تطلب منهما شيئًا تقرأه أو كافورًا للقدر الذي يغلي فوق المدفأة، لأن أزهار إحدى المزهريات تصيبها بالدوار أو لأنها ببساطة سئمت البقاء وحيدة.

ـ عليك إذن أن تتصرف بأدب مع سوسانيتا وإلا دفعت الثمن غاليًا ـ اختتم فينيتو كلامه فاتحًا لي البوابة ومفسحًا لي الطريق ـ. تستطيع أن تدخل، يا أحمق.

وبينما أدخل مخترقًا الحديقة الصغيرة المهملة، حيث تتكاسل خمائل الدفلي في ظل الصفصافة وتتعفن أركان السوسن الرطبة لافتقارها إلى الشمس، تساءلت كيف اكتسب هذان المهاجران الميتان جوعًا تلك السلطة الغريبة عند الحديث عن المصدورة. وقلت لنفسي مرة أخرى أنه، رغم انقضاء أربعة أشهر بالكاد على الأيام الملوثة بالغاز التي تعودنا الاجتماع خلالها في بار كومولادا أو في بلياردو بار الخوبنتود، بدا وكأن أعوامًا قد مضت.

# ٣

إستقبلتني السنيورة أنيتا مرتدية ثوبًا منزليًا من الحرير الفستقي موشى بالحرير لم يعد قشيبًا ولا زاهيًا، وعلى كتفها فوطة وفي يدها قدح من النبيذ. كانت من إحدى قرى ألميريا[1] سمعت اسمها لأول مرة على لسان الكابتن بلاي: كويباس دي إلمنثورا[2] . أبقت الباب مفتوحًا ونظرت إليّ وشرود خفيف في عينيها الجميلتين السماويتين اللتين يكسوهما حزن ما. كانت في الثامنة والثلاثين تقريبًا، شعرها أشقر مجعد ومنكوش، وجسدها ضئيل وممتلئ بالحيوية وحدقتاها هما أشد ما رأيت في حياتي زرقةً. كان وجهها المتعب، بالجفنين الثقيلين والفم غير الملون، يعكس عذوبة خاملة ومُهانة.

- جئت من طرف الكابتن بلاي - قلت - من أجل الرسم...

نظرت إليّ برهة وكأنها لا تفهم. ثم ابتسمت:

- آه، حقًا. ادخل. لكن يبدو لي أن سوسانا لم تحزم أمرها بعد. ابنتي هذه مجنونة بعض الشيء، أتعرف؟

- إذا شئت حضرتك عدتُ في يوم آخر.

- لا، لا، ادخل. - جذبتني من ذراعي وأغلقت الباب -. لا تقل للمسكين بلاي، لكن الحقيقة أن ما يقترحه يبدو لي حماقة كبرى... لكن حسنًا، سيكون هذا تسلية للطفلة، ستكون لديها صحبة في الأصيل، حين لا أكون أنا موجودة. ما اسمك، يا أمّور؟

---

(١) إقليم فى جنوب شرقى إسبانيا - م.

(٢) يعنى الاسم : كهوف المنصورة - م.

ـ دانييل.

ـ دانييل. يا له من اسم جميل. لو كانت سوسانا ولدًا لسميتها هذا الاسم... دانييل والأسود. دائمًا ما أعجبني هذا الاسم. حسنًا، واصل هذا الممر حتى غرفة الطعام، القاعة على اليسار ـ وأردفت رافعة صوتها وموجهة له تجاه عمق الممر ـ يا حبيبتي، إنه الولد الذي سيقوم بالرسم!

لم تصدر إجابة فلم أتحرك. وتوقفت موسيقى الراديو.

ـ هيا، تعال ـ تعلقت السنيور أنيتا في ذراعي وقادتني ـ ولا تعرها اهتمامًا إذا كشرت لك. لقد كانت تنتظرك في الحقيقة.

صحبتني لبعض المسافة، حتى عتبة غرفة نوم افترض أنها غرفتها، وشجعتني بابتسامة على المضي وحدي نحو القاعة. من الداخل، لم يكن البرج بالضخامة التي يبدو بها من الخارج. لكن في هذه الزيارة الأولى، أربكني الممر الخافت الضوء: بدا بلا نهاية، طويلاً بحيث بعث فيّ إحساسًا غريبًا، وأنا أتقدم خلاله، بأنني أتخطى حدود البرج وأدخل في مجال آخر. سرت تحت سقف مرتفع به نقوش جصية متآكلة وكانت على الجدران لوحات قديمة في أطر فنية، ومرايا حداثية بها سحب مصمتة وفي كل مكان تماثيل من المرمر والخزف على قواعد، بعضها مكسور الرأس يتجمع عليه التراب؛ التقطت رائحة الأثاث الزنخة وتذكرت أن والدي سوسانا كانا ثريين. كان الأثاث الماهوجني الثقيل يبدو كأشكال ضخمة قبيحة لا يمكن تحريكها؛ حانقة وخطرة على نحو ما؛ بدا أنهم الشهود الصامتون على مأساة حدثت هنا منذ سنين، ولم تتغلب عليها بعد لاسوسانا ولا أمها. كذلك كانت تصل إليّ، كلما اقتربت من القاعة، رائحة الكافور والرطوبة الدافئة

والمرضية للجو: كثافة في الهواء ورائحة لم أكن قد تنفستها في أي منزل أحدثت فيّ مزيجًا من الإثارة والتوجس. قررت البقاء على مسافة معقولة من فراش المريضة. وعند عبوري غرفة الطعام رأيت دمجانة[1] خمر منزوعة السدادة فوق المائدة، وعلى الفور، حين أطللتُ برأسي على القاعة، سمعت صوتها:

- ادخل بسرعة، يا رجل، قبل أن تأتي ماما!

كان البخار يتصاعد من القدر الموضوع فوق المدفأة والشمس الشاحبة تنفذ إلى القاعة كأنها تنفذ إلى حوض سمك، وتغمر السرير المعدني الصغير المزاح إلى جوار الحائط والمنضدة الليلية الصغيرة وعليها جهاز راديو عتيق. وفي الطرف الآخر كان هناك منضدة منخفضة، وكرسيين وكرسي هزاز أبيض. وفوق الكرسي المنتصب والمستند إلى الحائط، كان ثمة وسادة بها تطريز لم يكتمل.

أدهشني أن أجد الصبية المصدورة جالسة على حافة الفراش وظهرها شديد الانتصاب، والساق على الساق وقميص النوم مرفوع حتى ركبتيها، حافية وفي شعرها زهرة مرجريت قماشية، ذراعاها على كفلها والشال على كتفيها. حافظت على وضعها بجهد ونظرت إلي بعيون واثقة ومتحدية، كأنها تطلب موافقتي. لم أستطع حينها أن أتبين أن هذا الوضع المتكلف وهذه الفتنة المرتجلة كانا نتيجة ساعات من التأمل والتدريبات أمام المرآة: كانت تعرض نفسها على هذا النحو لأنها قد قررت أن أرسمها هكذا، أمّا هذه

---

(١) وعاء خمر كبير تُصبُّ منه الخمر في غيره من الأوعية. ويحتفظ في الإسبانية باسمه العربي القديم: الغرّافة Garrafa ـ م.

الهالة من التوق التي يبعثها تعبيرها، وهذه الرغبة اليائسة في أن تكون موضوع إعجاب، والنبض الحيواني الذي يطفو حول شفتيها الشاحبتين اليابستين وفي الفتحتين الدقيقتين لأنفها فقد كانت من القوة والمباشرة بحيث بدت لي أنها أجمل من رأيت من الفتيات على الإطلاق. كان شعرها الأسود يحدد جبهة شفافة، تلمع بالعرق، وتلمع على خديها دوائر وردية صغيرة بتأثير القرص، كما سأعرف عن قريب. وكانت شفتها العليا محددة الخطوط تمامًا وممتلئة وبارزة نحو الأنف، مما جعلها تبدو أسمك وأكثر امتلاءً من الشفة السفلى وجعل فمها يكتسب طابعًا غاضبًا، وطفوليًا، ومقلقًا في آن واحد. لم تُبد محجرين ولا وجنتين غائرتين ولا صدر هضيم، ولم تكن بالغة الشحوب ولا تتنفس وفمها مفتوح ولا شيء من هذا؛ لم تكن تشبه مطلقًا تلك الصبية المصدورة التي تخيلتها والتي فور رؤيتها، بمجرد التنفس بجوارها، كان يمكن أن تعديني بأخلاطها المسمومة وبأحلام الغيبوبة المحمومة بالموت. وبجوارها، على الفراش، كانت هناك صور مقصوصة من مجلات وصحف، ومقص، وقنينة ماء كولونيا، وأوراق لعب وقط أسود من القماش بعينين خضراوين من الزجاج، كانت المريضة تسند يدها على رأسه.

- أنا أعرفك - قالت. - اسمك دانييل.

- نعم.

- أنت الصبي الذي اكتشف تسربًا ضخمًا للغاز في ميدان روبيرا.

- لقد اكتشفه الكابتن بلاي.

- وتسكن في شارع ثردينيا.

- نعم.

- وليس لك أب - خفضت صوتها وأردفت: صحيح؟ كان يعشش في صوتها نعاس يختلط على فترات ببقعة بلغم تشتبك بحبالها الصوتية؛ فكرت انها لا بد أن لديها حمى مرتفعة، وأن صوتها ينقل على نحو ما تلك الحمى وذلك البلغم الملوث.

- أحقًا ليس لك أب؟ - عاودت القول.

- لا أدري.

- لا تدري إن كان لك أب أم لا؟! حسنًا يا صبي، أنت على ما يرام! هل أنت أحمق أم ماذا؟

لاحظت أظافرها المُعتنى بها، ملونة بطلاء أحمر بلون الكريز.

- لم يعد أبدًا من الحرب - قلت - لكننا لا ندري إن كانوا قد قتلوه، لا أحد يدري. قد يكون حيًا في مكان لا ندريه، وذاكرته تائهة أو مصابة إصابة قاتلة، أعني، دون أن يتذكر عائلته أو أي شيء، ودون أن يعرف كيف يعود إلى المنزل... وهكذا لا يمكنني القول أنني ليس لي أب.

نظرت إليّ سوسانا بفضول ثم قالت :

- إذن كأنك ليس لك أب. مثلي تمامًا. - أخرجت منديلها من تحت المخدة، بللته بماء الكولونيا من القنينة التي كانت في متناول يدها وبللت جانبي جبهتها وعنقها. كان المنديل أبيض بياضًا لا تشوبه شائبة. نظرت إليّ الآن بشك وأردفت: أنت غريب بعض الشيء، أليس كذلك؟

- أنا؟ لماذا؟ هززت كتفي.

بدا أنها تفكر، دون أن ترفع عينها عني. ثم تكلمت غاضبة:

ـ ألم يقولوا لك إنني مريضة جدًا وإنك لا يجب أن تقترب مني كثيرًا، يا غلام؟

ـ بلى.

ـ وتعرف أي مرض لدي؟

تأخرت قليلاً في الإجابة:

ـ رئتاك مريضتان.

ـ لا يا سيدي. الرئتان لا. الرئة. واحدة فقط. أتدري أيهما؟

ـ لا.

ـ اليسرى.

ظلت صامتة برهة دون أن تكف عن تفحص وجهي. كان في نظرتها خبث متكلف وتوتر إرادي يفرض نفسه على الحمى وعلى استنزافات الدم بلغ في مرات عديدة، على طول علاقتنا، درجة أن يقلقني أكثر من فكرة العدوى ذاتها. وسرعان ما بدت بالغة الإجهاد، فأغلقت عينيها وتنفست ببطء وحذر، كأنها تخشى أن تتألم. حينئذ قلت:

ـ أعطاني فينيتو هذا من أجلك ـ وأعطيتها دبابيس الشعر وتقويم ريب كيربي، الذي لم تعره نظرة واحدة. اختارت دبوسين للشعر وبينما تشبكهما في شعرها، ضامة شعرها على قفاها وأذنيها الشاحبتين، لاحظت فوق المنضدة الليلية الصغيرة صورة أبيها في إطار فضي: كيم في معطف فاتح مرفوع الياقة، بزاوية تظهر ثلاثة أرباع الوجه، وحافة القبعة تخفي إحدى عينيه وابتسامته مائلة. وفي عينيه الداكنتين يكمن ضوء هازئ، هو شرارة المغامرة.

- أحقًا أنك تعرف الرسم؟ - قالت سوسانا.

- قليلاً.

فتحت الحافظة وأريتها الرسومات التي انتقيتها، واحدٌ لشجرة لوز مزهرة، غيمة وردية نسختها عن الطبيعة في باش باناديس Baix Penedès، واثنان لحديقة جويل كنت أحبهما جدًا بسبب ألوانهما الزاهية؛ واحد للتنين الخزفي عند السلم والآخر للمقعد المتموج في الميدان وفي الخلفية سيلويت برشلونة. لم تحمسها الرسوم، فأريتها لوحة أحضرتها من باب الاحتياط: جين تييرني Gene Tierney ترتدي ثوبًا أخضر محبوكًا تمامًا جالسة فوق منصة كازينو، موحية ومنكوشة الشعر، ودخان السيجارة يتلوى صاعدًا إلى وجهها. كنت قد نسختها من قصاصة إعلان فيلم وكان الرسم عاديًا، ليس له ميزة، ولم يكن حتى يشبه الأصل كثيرًا، لكنه أكثر ما أعجبها.

- هذا جيد جدًا. ما أجملها. - أعادت إلي الحافظة، ونزعت دبابيس الشعر وأرخت شعرها من جديد، باعدت ركبتيها ثم عادت فوضعتهما الواحدة فوق الأخرى وأضافت خافضة صوتها: ألا زالت ماما في الحمام؟

- لا أعرف.

- يجب أن نسرع. لأنها إذا رأتني خارج الفراش ستنزعج. - بللت شفتيها بلسانها، وعضتهما، وقرصت خديها ـ الآن أنظر. كيف تجدني؟

لم أدر بم أجيب. فقد بدت شبيهة بدمية. أصرت:

- أهل أنا تمام هكذا؟

- لا أفهمك.

ـ كما أنا الآن، جالسة على الفراش. أريد أن ترسمني هكذا، كأنني قد شفيت وعلى وشك الخروج إلى الشارع، وجنتاي ملونتان وألبس حذاء وفستانًا أخضر لا أستطيع حتى الآن أن أرتديه لكنني سأريه لك يومًا. لا قميص نوم ولا شال من الصوف، لا شيء مما تراه. ويجب أن يكون في يدي شيء... مرآة، أو حقيبة بيعة الجمال أهداها إلي بابا. ما رأيك، أتعرف كيف ترسمني هكذا؟

قلت لها إن هذا ليس ما اتفقت عليه مع الكابتن بلاي وإن التعليمات التي لدي تقضي بأن أرسمها ممددة في الفراش، شديدة الشحوب تستنشق الدخان السام لمدخنة المصنع...

ـ بمحجرين غائرين ووجه ممصوص ومرعب، يا سلام! ـ قاطعتني غاضبة مرة أخرى ـ مصدورة مسكينة على وشك أن تموت. لا!.

ـ ولا هذا ـ قلت لكي أشجعها ـ: إنك تبدين وقد شفيت تقريبًا. تبدين رائعة، مرحي. لكن الكابتن يريد أن تظهري في الرسم بصورة أخرى...

ـ أعرف تمامًا ما يريده العجوز المأفون!

كانت متضايقة جدًا وتخلت عن الوضع المدروس، ظننت أنها سمعت خطوات أمها فوضعت نفسها بعجلة في الفراش، وظهرها يستند على الوسائد وجذبت الملاءات واللحاف السماوي حتى صدرها. لكن أمها لم تظهر.

ـ حسنًا لا أريدك أن ترسمني هكذا ـ أردفت دون أن تنظر إليّ ـ طريحة الفراش أسعل مثل حمقاء. لا.

ـ حسنًا، يمكنك أن تستلقي فوقه، كأنك تستريحين... ولن أرسمك بالغة الشحوب، هيا، أقل ما يمكن. ويمكن أن تضعي زهرة في شعرك، إذا أردت. لو كان الرسم لك، لصنعته كما تحبين.

حركت سوسانا رأسها ببطء ونظرت إلي بفضول.

- أنا لا أريده لي - وفكرت لبضع ثوان وعاودت الابتهاج .. حسنًا، سنصنع شيئًا. سأدعك ترسمني من أجل الكابتن هكذا، مثل طفلة حمقاء محاطة بالأدوية؛ لكن بشرط: أن تصنع لي رسمًا آخر في الوضع الذي أقوله لك، مرتدية ومصففة الشعر على النحو الذي أقوله لك، بالألوان وبأجمل ما يكون. صورة فتاة أكثر مرحًا وأشد جمالاً، صورة يجب أن أظهر فيها مثلما سأكون خلال وقت قصير، خلال شهور قليلة..

- وسيكون الرسم من أجل الكابتن جميلاً هو الآخر، سترين.

- ذلك لا يهمني. - أمسكت بالقط القماشي وضمته إلى صدرها .. يمكنك أن ترسمني قبيحة وسقيمة بسحنة بيضاء مثل الشمع وعينين تلونهما الحمى، وحتى وأنا أبصق دمًا، فالأمر سواء بالنسبة لي. لكن الرسم الآخر يهمني حقًا، لأنني أود أن أرسله إلى أبي ولا أريد أن يراني مريضة ومرعبة. هل تفهم؟

- نعم.

- سيكون هدية مفاجئة له، هل تفهم؟

- أيوه. أيوه.

- إذن، هل تصنعه؟

- أرجو أن يخرج من يدي جيدًا...

- طبعًا! سيكون رائعًا!

- وهل نضع في الخلفية كذلك المدخنة والدخان الذي يسممك، مثلما في الرسم من أجل الكابتن بلاي؟

هزت كتفيها.

ـ الأمر سواء بالنسبة لي. لا علاقة له بي ولا يمكنه أن يؤثر في، لا ذلك الدخان المقرف ولا رائحة الغاز ولا أي شيء مما يجري هناك... لا شيء.

ـ لماذا تقولين ذلك؟

حدقت عيناها اللامعتان النظر في، لكن بدا أنهما لا تريانني.

ـ لأنني قريبًا جدًا سأمضي بعيدًا عن هنا ـ قالت بابتسامة خبيثة ـ. هذا هو السبب، يا غلام.

## ٤

الرسم الذي كان يجب أن يكون مؤثرًا بشكل متحيز والذي يجب أن ينقذ بطريقة سحرية الطفلة المسلولة والحي بأكمله من موت بطيء ومحقق، بدأته شديد الحماس عصر يوم اثنين، ولم يخرج مني شيء جيد في ذلك اليوم. ولا ملمح واحد كان في موضعه، رغم إعادته مرة وألف مرة. نظرت مليًا إلى المريضة وأنا أزرر عيني لأقيس وألتقط التآلف المنهار لجسدها الهش الممدد على نحو غريب بين الوسائد وأبخرة الكافور ـ وساخرة من إخراجي المصطنع، سرعان ما أخذت هي تتلوى وتبالغ في اتخاذ وضع على غرار غادة الكاميليا وهي تحتضر منهكة ونصف جسدها وإحدى ساقيها متدليان خارج الفراش ـ، لكن ما كان يخرج من القلم كان تعيسًا. وحتى لا أستهلك ورق الرسم، أخذت أرسم اسكتشات في كشكول مدرسي. تركت مؤقتًا صورتها وتفرغت لرسم زجاج القاعة، والمدفأة والمدخنة المشؤومة، التي لم أكن أراها في الحقيقة من مكاني، وكانت النتيجة واحدة. كان ثمة مشكلة منظور لم يكن باستطاعتي حلها.

ـ لقد قلت لك إنك إذا صورتني هكذا متراخية ومتآكلة، بصدر غائر وعيون جاحظة، فسوف يخرج من يدك رسم فظيع ـ قالت سوسانا وهي تمسك ورق اللعب من على الطاولة الصغيرة ـ لماذا لا تبدأ الرسم الآخر؟

ـ هذا أولاً. فقد طلبه مني الكابتن قبلك.

ـ هيا اتركه، هيا. ـ نشرت ورق اللعب أمام وجهها كأنه مروحة تاركة عينيها المرحتين ـ هل نلعب لعبة السبعة ونصف؟

تركت القلم كأنه يلسعني وتنفست الصعداء.

ـ حسنًا.

في اليوم الثاني كذلك لم أتقدم كثيرًا. وعند المغرب بدأت تمطر ورأينا الأخوين تشاكون في الشارع يجمعان منصتهما بعجلة ويدخلان جريًا إلى الحديقة ليحتميا بشجرة الصفصاف. نادتهما سوسانا فدخلا من الباب الصغير عند طرف القاعة. كانت جيوب فينيتو ممتلئة بأوراق الكافور التي ألقاها في القدر بيديه القذرتين، بعدها أخرج مشطًا مكسورًا ومرره عدة مرات في شعره المتلبك الدهني، الفاحم السواد. أرسلته سوسانا مع أخيه إلى الحمام ليغسلا يديهما وحين عادا اقترحت دورًا من لعبة السلم والثعبان فجلسنا ثلاثتنا على الفراش. كنت أعطي ظهري للطاولة الليلية الصغيرة ولصورة كيم وأحس في قفاي بعينيه النفاذتين. هززت الزهر في الكوب باحثًا عن الحظ وحركت قطعي الصفراء بحزم، لكن لم أستطع تجنب أن يقتل الأخوان تشاكون قطعي مرات عديدة الواحدة تلو الأخرى، كما لم أستطع أن أطرد من رأسي طوال المساء الرجل الأسطوري ذا المسدس ولا البريق الداكن لنظرته المغروسة في قفاي.

# ٥

حين ماتت أم نانلو فوركات قيل إنه سيأتي لحضور الدفن وتوقع الجيران رؤيته، لكنه لم يأت. ومضت الابنة العانس التي كانت تعتني بالعجوز لتعيش في حي لابرشلونيتا مع أختها المتزوجة وباعت شقة ميدان روبيرا، وهكذا أصبح من المؤكد ألا يظهر صديق كيم في الحي بعدها على الإطلاق.

ظللت أكرس أوقات الصباح للكابتن بلاي في تجواله الذي لا يكل في شوارع جراثيا، وبرلا، وبروينكير، ومونتماني، وجوان بلانكس والإسكوريال ونحن نصعد، وندق الأجراس ونطلب توقيعات، ونغرق هنا وهناك في حانات معتمة بمنصات ذات رائحة فواحة يتردد عليها شاربون مستوحشون، بينما ينمو فضولي لكل ما يتعلق بوالد سوسانا: هل كانوا يبحثون عن كيم بوصفه أحمرا حينما ارتبط بالسنيورة أنيتا، يا كابتن؟ هل صحيح أنهما لم يتزوجا في الكنيسة؟ هل صحيح ما يقولونه عن السنيورة أنيتا، أنها كانت تعمل في كباريه اسمه شنغهاي، وأن كيم تعرف عليها هناك؟ وما يقولونه أيضًا عنها، أنها كانت خادمة فقيرة ثم راقصة في أحد استعراضات الباراليلو، كانت تظهر فيه عارية...؟

وكان الكابتن يقول نعم، اللعنة، حسنًا، يصعب القول وأن الأمر لا يقال هكذا دفعة واحدة لصبي ببربور في الرابعة عشرة لا فائدة منه ولا عائدة، وأنه في مثل هذه الحالة يكون الشيء الأساسي ألاّ ننسى أبدًا أن النساء ذوات العيون الزرقاء يكذبن مثلما يتنفسن، وهذا أكثر من مجرب؛ وأن الحقيقة الوحيدة الحقة في حياة كيم هي أنه كان سيدًا مهذبًا شديد التأنق،

رجلاً راقيًا نال تربية معتنى بها، الابن البكر لعائلة شديدة الثراء من سابا ديل، عائلة من صناع المنسوجات.

- سيد مهذب فوضوي، هذا ما كانه وماهو عليه، إذا كان مازال كما هو، أو كما أراد أن يكون، فحول هذه النقطة لا نتفق أنا وكونشا أبدًا. - توقف الكابتن أمام بعض الصبية يلعبون الكرة في شارع ليجاليداد - إيه، أنتم، لا تقتربوا كثيرًا من هذه البالوعة، فالغاز يتجمع فيها! أقول لكم بجد، يا صعاليك! لقد وصل التسرب إلى جحر الجرذان هذا واستنشاقه يؤثر على نمو العظام! ولا تفكروا في إلقاء بمب بداخلها...!

- هيا، أيها الرجل الخفي، إخلع ملابسك! - صاح أحد الصبية، وأحاطوا جميعًا بالكابتن وتصايحوا -: إخلـ لـ لـ ـع، إخلـ لـ لـ لـ ع!

- حسنًا، بالنسبة لي يمكنكم أن تختنقوا! - وشق الكابتن طريقًا متخلصًا من الأيدي. وبعد خطوات قليلة أمال رأسه بحزن وقال -: على كل حال أصبح الخراء داخلهم فعلاً، لن يعودوا ينمون بعدها.

عاودت الهجوم بأسئلتي عن والد سوسانا. ولسبب لا أدريه، كان الكابتن متحفزًا له، رغم أنه لم يشكك في شجاعته ولا في أسطورته، في وضعه الفريد كبطل سري، وتذكر أنه قبل زمن طويل من معرفة الناس له على أنه كيم، حين كان كل الناس هنا وفي ساباديل ما زالوا ينادونه باسم جواكيم فرانش إي كاسابلانكاس، كان رجل فعل، أفكاره متقدمة ومزاجه لا يلين، متشوقًا لأن يصنع قدره الخاص: فحين كان على وشك إنهاء دراسة هندسة النسيج، أحب بجنون خادمة المنزل وهرب معها إلى برشلونة، عندما حرمه أبوه من الميراث، أو بالأحرى فعلها هو نفسه؛ ولن يعود لرؤية العائلة

أبدًا. كانت أنيتا، أم سوسانا، في ذلك الحين في الحادية والعشرين، كانت قد جاءت من إحدى قرى الميريا لتخدم في منزل سادة مقتفية خطوات ابنة عم لها، ستتحول في نهاية المطاف إلى فتاة كورس في الباراليلو. كنا في سنوات الثلاثينات الأولى، وكان الناس يعانون من شظف العيش، يا فتى، فاشتغل كيم فيما يتاح له وعمل في مهن عديدة، باستثناء مهنته: عمل بائع آلات لطحن البن وسكاكين حلاقة، ومديرًا لملعب رياضي، ووكيلاً لفناني المنوعات، وشرطيًا سريًا في الحكومة القطالونية (الجنراليتات) وأخيرًا ممثلاً لماركة ألمانية من آلات العرض السينمائية، وهذا النشاط هو الذي أتاح له السفر في طول اسبانيا وعرضها ودر عليه نقودًا كثيرة.

ـ لكن كل شيء سينتهي في لمح البصر مثل تسبيحة الفجر ـ أضاف الكابتن حين أخذنا في صعود شارع ثردينيا، قريبًا من المنزل ـ. فما كاد ينتهي من الاستقرار هنا في البرج مع زوجته وابنته، التي لا بد أنها كانت عندئذ في الثالثة من عمرها، حتى اندلع الهول الكبير وطاطاطاخ، وأخذ الجميع يجرون لحمل البندقية...

وبدءًا من هذه النقطة، ماذا أحكي لك، يا فتى، اختتم صاعدًا ببطء الدرج المعتم الكئيب ذا الدرابزين الملوث بالشحم، وأنا خلفه لا تفوتني كلمة واحدة مما كان يهمهم أو يزوم به بدل أن يقوله: حينئذ يستأنف صداقته مع نانو فوركات وعصبته من الحالمين بالفراديس، أولاً في جبهة أراجون ثم هنا في برشلونة، وسرعان ما تقوده هذه الصداقة صوب اليوتوبيا الفوضوية، صوب هذا المثال التحرري الذي كان سيغير العالم وحياته الخاصة، حياة حبيبته أنيتا وحياة هذه الطفلة المصدورة التعسة.

فتحت البتيبو الباب فاستقبلنا في المدخل عبق مثير لطبيخ عدس بشحم الخنزير.

- إلى المائدة - أمر الكابتن فاركًا يديه. وتحت النظرة الخبيرة والصبورة لزوجته نزع العصابة والمعطف ثم غسل يديه، وحين جلس إلى المائدة مظهرًا وجهه الشبحي العاري، الحاد والشيطاني بعض الشيء بلحيته الصغيرة البيضاء والحاجبين الأشعثين، وعيني السحلية التائهة واليد المرتعشة التي تتحسس الملعقة فوق المفرش، بدا بمظهر بفالوبيل Buffalo Bill متهالك ومروَّض، فقد شعره الفضي البراق، وفقد مسدس الونشستر والمهارة في التصويب، لكنه مازال على أهبة الاستعداد لعراك طويل.

## ٦

هل تحب السينما؟ - سألتني سوسانا وهي تتسلى بترتيب قصاصات الصحف. ودون انتظار لإجابتي أردفت -: أنا لا أذهب إلى السينما منذ زمن طويل. وأحيانًا أرى أفلامًا في أحلامي. ذات ليلة رأيت ضوء آلة عرض في وسط كابوس، يبزغ في الظلمة، واستيقظت حين انتبهت إلى أنها واحدة من آلات عرض أبي... هل كنت تعرف أن آلات العرض ماركة Erneman إرنمان في كل دور سينما برشلونة ومدن عديدة في إسبانيا من عند أبي؟ فقد ركّبها هو.

- في كل دور السينما؟ أليس كثيرًا؟

- حسنًا، في كل الدور تقريبًا. - فكرت برهة وأصرّت -: نعم، نعم، في كل دور سينما إسبانيا، طبعًا. ولم لا؟ إذا كانت آلة عرضه جيدة جدًا وأحدث الآلات، أفضلها جميعًا؟

كان لدى سوسانا استعداد طبيعي لأحلام اليقظة، لاستحضار ما هو مرغوب، وجميل ومناسب. مثلما حين تنشر وترتب حولها في الفراش مجموعتها من إعلانات الأفلام وقصاصات البرنامج التي تحضرها لها أمها كل أسبوع من سينما مونديال، والتي كانت سوسانا أحيانًا تقص منها الوجوه والأجسام لتلصقها وتجمع بينها بشقاوة في أفلام لا تخصها، فقط لأنها قد راقها أو سلاها رؤية هذه الوجوه والأجسام معًا ـ كانت قد جمعت بين شهرزاد الجميلة وكازيمودو في مرتفعات ويذرينج، وتركت هيثكليف Heath Cliff الغامض على حافة حمام سباحة مع إستر ويليامز Esther Williams بالمايوه، وتركت سابو Sabu يطير فوق بساطه السحري فوق بغداد في صحبة شارلو Charlot ومدبرة منزل ريبيكا Rebeca، وجعلت طرزان معلقًا في أعلى أحد أبراج كنيسة النوتردام مع إزميرالدا الغجرية والقردة شيتا ـ كذلك كانت تثير حول نفسها توقعات باسمة أو نذر حزن من خلال تصحيحات بسيطة للواقع، مضيفة بعض الرتوش إلى الصور والذكريات. وبين ذلك الخليط من الذكريات كانت ذكرى والدها في آخر مرة جاء ليراها مخترقًا الحدود سرًا، منذ عامين تقريبًا، بعد قليل من وقوعها فريسة للمرض.

ـ وصل في الفجر، ودخل هنا دون أن يشعل الضوء وقرفص إلى جواري. كان قد تحدث لتوه مع ماما وبكى تقريبًا.. لم يكن يعرف أنني مريضة بهذه الدرجة. وجدني واهنة جدًا فأعطاني قبلة طويلة على جبهتي وقال لي إنه ليس بمقدوره بعد أن يأخذني معه. حسنًا، إذا لم يكن قد قال لي ذلك مباشرة في كلمات، فقد أفهمني إياه... ـ ترددت سوسانا كأن

الذاكرة قد خانتها، ثم واصلت ـ: لم تنفصل شفتاه الثلجيتان عن جبهتي الملتهبة، يا داني، ومازلت أحس بهما حتى الآن في بعض الليالي حين آخذ في التفكير والتفكير دون أن أستطيع النوم... قال لي في أذني، سآتي لآخذك في الربيع. كانت سترته الجلدية تفوح برائحة المطر وأظن أنه كان يرتدي قلنسوة، فلم أستطع رؤيته بوضوح. عندئذ سمعت خبطة في الحديقة فانحنى أكثر إلى جواري، ثم استدار ويده تتحسس شيئًا في حزامه وفي تلك اللحظة استطعت أن أرى وجهه المعذب، لكن ليس ملامحه، أعرف أنه وسيم من الصور ولأن ماما قالت لي... وحين نهض لم أر أي مسدس في يده، كما لم يكن يحمله موضوعًا بين الحزام والقميص. لم تكن الضجة شيئًا، ولا أحدًا، ربما قط في الحديقة أو إصيص جيرانيوم قلبته الريح. وعاد يقبلني، وأمسك يدي وظل إلى جانبي حتى جعلته يظن أنني قد نمت، فقد أشفقت عليه ـ تنهدت وظلت برهة أخرى، صامتة، غاضبة، وبللت بلسانها شفتها العليا، التي كانت يابسة وربما متورمة ـ ثم مضى مرة أخرى، لكنه ترك لي كلامًا يقول، أنا أحفظه من الذاكرة، يقول: أيتها الحمامة العذبة النائمة، لا تخافي أبدًا من الليل لأن الليل شريكي وسآتي معه لآخذك... هذا ما قاله، وتركه لي مكتوبًا في ورقة.

قالت لي إنها يومًا ما ستريني هذه الورقة، وكذلك بعض رسائل كتبها لها، لكنها لم تفعل أبدًا. كذلك كان يروق لها أن تتذكر، وهي طفلة صغيرة، أن أباها اعتاد أن يرفعها بذراع واحدة حتى تكاد تلامس نجفة غرفة الطعام المتوهجة، وهي نجفة عتيقة جدًا تهاوت فجأة ذات يوم، بعدها بسنوات، دون أن يلمسها أحد وتحولت إلى حطام؛ وأن هذا المنظر بالغ

الحيوية في ذاكرتها، فقد كان حاضرًا تمامًا في ذاكرتها قوة ذراع أبيها، وتوتر الحب والأمان الذي يبعثه هناك في أعلى، قالت ذلك لي، وكذلك الضوء المُعشي للبصر لشبكة الكريستال ودوار الهبوط وضحكة أمها. وأنها حتى اليوم، خصوصًا في الليالي التي تحس فيها أنها في حالة بالغة السوء، بنغزات في صدرها ووهن في قواها، إذا ومضت فجأة الذكريات التي تحتفظ بها عن والدها، كانت تشعر في دمها أحيانًا بانفجار الضوء المعشي للبصر ذاك الذي لم يعد بالمنزل ودفقة الحنان تلك التي ترفعها من جديد فوق الحمى وفوق الوحدة، فوق الرعب من قيء الدم ونذر الموت.



# الفصل الثالث

## ١

عبرت شارع لاس كاميلياس وتحت إبطي الحافظة وعلبة الأقلام ماركة فابر[١]، وتوقفت برهة مع الأخوين تشاكون أمام البوابة، كالمعتاد، وحين هممت بدخول الحديقة، جعلني صرير فرامل سيارة أدير رأسي. كان يوم أربعاء، اليوم الوحيد الذي لا تعمل فيه السنيورة أنيتا، وفي هذا اليوم بالذات كانت في الحديقة منذ بداية ما بعد الظهر، وراء شجرة الصفصاف، تنشر الغسيل وبين أسنانها أغنية، ومشبكان.

جرت المناورة الحادة للسيارة ماركة باليبا Balilla التي ينبعث البخار من مبردها على مسافة قريبة من ناصية شارع اليجري دي دالت وبدا أن الفرملة راجعة إلى أن السائق كان قد تجاوز ذلك الشارع، وكان الآن يستعد للرجوع إلى الوراء ليتجه إليه على الوجه الصحيح. لم يكد يتوقف لثانيتين ولم نر أحدًا يهبط من السيارة ولا سمعنا صوت ارتطام أي باب، ورغم ذلك، فبعد أن تقهقرت السيارة الباليبا لتصحح مسارها وعاودت السير لتختفي عند الناصية، وجدناه واقفًا هناك فكأنما نبت فجأة من الإسفلت يحمل حقيبة قديمة

(١) Faber.

من الكرتون مربوطة بحبل، ويده الأخرى غائصة في جيب سرواله، رجل في أواسط العمر بائس المظهر بعض الشيء لكنه متباه، وجنته بارزة ونظرته مختلسة تحت حافة قبعته الرمادية. نظر إلى جانب الشارع ثم إلى الجانب الآخر ثم إلى الحديقة والبرج، محركًا رأسه ببطء شديد، قبل أن يغرس ذقنه في صدره وينظر إلى قدميه؛ وواقفًا هناك في وسط الشارع، لا تائهًا ولا مرتبكًا، بدا ببساطة أنه يسجل الحالة التعسة لحذائه البني والأبيض. وعلى كتفيه المضمومين بعض الشيء طفت بادرة على التوتر العصبي بدت لي مألوفة.

خطر بذهني أنه يمكن أن يكون والد سوساناً، لكنني تعرفت عليه على الفور: ناندو فوركات. كان قد تغير. لم يكن يضع نظارة شمس وبدا أشد نحافة وهشاشة منه منذ خمسة أشهر، حين ظهر لنا لأول مرة واقفًا على عتبة بيته على حافة الحفرة المحفوفة بالمخاطر. وساكتًا ومتفكرًا مثلما كان عندئذ، بدا الآن أيضًا، أكثر من كونه قادمًا من حيث لا ندري لكن من مكان بعيد جدًا، مستعدًا للعبور مرة أخرى بدءًا من حافة حفرة أخرى، بجسده المتوجس والمحني قليلاً إلى الأمام. تبادلت نظرة مع فينيتو وأخيه، اللذين كانا قد تعرفا عليه بدورهما، وبينما بدأ هو يتحرك أبقيت البوابة مواربة. اقترب متمهلاً، والحقيبة في يده وحافة القبعة فوق عينيه، وحين رفع رأسه قليلاً ليكلمنا، حيرتني نظرته الحولاء ولم أدر إلى من منا يوجه السؤال:

- هل تسكن هنا السنيورة أنيتا فرانش؟

- نعم، يا سيدي - أجبنا ثلاثتنا في نفس واحد.

أنا واثق من أنه كان قد رآها وأنه سأل من باب السؤال، حتى لا يبدو متطفلاً. فتحت البوابة ورأيناه يدخل الحديقة بخطوات ناعمة وحازمة. لم تره

أم سوسانا وهو يدخل. ولا أدري لماذا تخيلت أنهما يعرفان بعضهما فعلاً، معرفة قليلة أو كثيرة، رغم أنني في تلك اللحظة لم أكن أملك دليلاً على ذلك. وفيما بعد، سيقول لي الكابتن أنه، قبل سنوات عديدة، في الفترة التي كانت الخادمة أنيتا تخدم فيها في منزل السيد المهذب كيم ولم تكن قد أحبته بعد، كان يمكن أن تكون قد تعرفت على فوركات في بارات البارالبلو وتبادلت معه الغزل. وعلى أية حال، فإن فوركات نظر إليها الآن وهي تنشر الغسيل واتجه نحوها عابرًا الحديقة بإصرار متأن وناءٍ، بخطوات يمكن أن يكون قد حلم بها مسبقًا.

دخلت أنا أيضًا وتبعته لبعض المسافة، لكن وجهتي كانت القاعة، التي توقفت أمام بابها لأراه يترك الحقيبة على الأرض، ويخلع القبعة ويمد يده للسنيورة أنيتا. أما هي فأظهرت الدهشة والرضا البالغ، وغطت وجهها بيديها فأخرج من جيبه رسالة. لم تبلغ سمعي كلمات التحية المتبادلة، لكنني سمعته تمامًا حين قال بصوته الرخيم الدافئ:

- أنا قادم من تولوز وأحمل أخبارًا عن كيم.

ناولها الرسالة في ظرف غير مغلق فتحته هي على الفور، وبعد التعرف على الخط وقراءة بضعة مقاطع، ندت عنها صرخة فرح وتعلقت في عنق القادم الجديد. لكنها تراجعت على الفور، ربما لخجلها من عدم قدرتها على التحكم في حماس كان غير مبرر بدوره، كما سأعرف بعد قليل. وأول ما قاله لها زوجها في هذه الرسالة هو أن تصنع معروفًا بأن ترحب باسمه بصديقه فوركات وأن توفر له مأوى في البرج بأكثر ما يمكن من التكتم، بينما يقوم هو في برشلونة بحل مسألة ذات أهمية قصوى. عرفت التفاصيل

فيما بعد، وطبيعي أن السنيورة أنيتا لم يكن بإمكانها أن تتوقع ذلك لحظتها، عند قراءة الرسالة، لكن ذلك المعروف الذي كان يطلبه منها زوجها لصديق في ضيق كان سيصبح، في الواقع مصدر الشيء الوحيد الحسن والسار الذي سيصادفها خلال أعوام طويلة، إذ أن كيم كرر في نهاية الرسالة شوقه القديم لأن يأخذ الطفلة معه ذات يوم، حين تكون قادرة على السفر دون الإضرار بصحتها، لكنه لم يقل شيئًا بشأن ما إذا كان يريد زوجته أيضًا لتبدأ معه حياة جديدة خارج إسبانيا.

ظلا لبرهة يتحدثان في الحديقة بينما تفرغ هي من نشر الغسيل، وبعدها بقليل، حين كنت قد واجهت رسمي من جديد جالسًا على المنضدة الليلية وسوسانا تتقلب في الفراش وقد تحولت إلى حفنة من الأعصاب، فقد عرفت مني أن هذا الرجل يحمل أخبارًا عن أبيها، دخلت السنيورة أنيتا إلى القاعة مبتسمة ممسكة بذراعه وقدمته:

- يا طفلتي، هذا هو السنيور فوركات. بابا يحبه كأخ - قالت، وسارعت مردفة، ناظرة إليه بعينيها الزرقاوين المتوقدتين -: وأنا أيضًا. سيبقى بضعة أيام معنا... وهذا الصبي الجاد جدًا والرسمي جدًا - واستدارت نحوي - هو صديق عزيز لسوسانا يأتي كل يوم لصحبتها، واسمه دانييل.

مشدودًا واحتفاليًا بعض الشيء، مد يديه إلى سوسانا ثم إليّ. سأل المريضة كيف حالها فقرفصت في الفراش وضمت القط القماش إلى صدرها.

- بخير - قالت -. في أحسن حال. كل يوم أفضل.

- حقًا؟ قال فوركات - سيفرح أبوك بمعرفة ذلك...

- هل حضرتك قادم من طرفه؟

- نعم.

- متى رأيته؟ هل هو بخير؟

قلبت أمها جمرات المدفأة. وبصوت مليء بالتدليل أمرت سوسانا أن تدخل بين الملاءات وأن تتدثر، ثم قالت:

- سأذهب لأرى كيف حال الغرفة العليا - ابتسمت لضيفها -. بعدها تأخذ الحقيبة إلى أعلى. أعطني سترتك، فهنا ستشعر بالحر.

أعطاها إياها وخرجت السنيورة أنيتا من القاعة. كانت سوسانا تتقافز من اللهفة وهي راكعة على المرتبة محتضنة قطها، وكررت السؤال:

- متى رأيته؟

- منذ شهر بالكاد - قال هو، وابتسم ابتسامة خفيفة شابكًا ذراعيه وجلس على طرف السرير مستعدًا لإشباع فضول سوسانا -. حسنًا، ماذا تريدين أن تعرفي أكثر؟

- لا أدري... ماذا قال لك؟

- لقد حكى لي أشياء كثيرة. كان قد وصل من رحلة طويلة ويستعد للرحيل مرة أخرى، في مهمة لنقُل إنها خاصة.

- أين رأيته؟ في تولوز؟

- نعم. لكنه لم يعد هناك.

- وأين هو الآن؟

- حسنًا... أبعد من هناك بكثير. أنت تعرفين أباك، لا يطيق القعود. لكنني أظن أن من الأفضل الآن أن تأوي إلى الفراش، وأن نترك هذا كله لما بعد. أنا متعب قليلاً من الرحلة... وها قد سمعت أمك، يجب أن تتدثري.

لاحظت حاجبيه الأشعثين المرتفعين وعينه القاطعة الحولاء، المتخشبة، العين التي لم نرها أبدًا تنظر إلينا مباشرة، لا إلى سوسانا ولا إلى أمها ولا إليّ ولا إلى أحد؛ العين الباردة ذات البؤبؤ الساكن الذي يكسوه حجاب خفيف والتي بدا أنها تنفر من الضوء وتدرك واقعًا آخر، تستجيب لنداء آخر بعيد عن المحيط المباشر ربما يكون صادرًا عن الماضي. كانت سحنته بالغة الطول تطل منها دهشة ساخرة، حزن مهرج بعض الشيء. لكنه إذا تكلم لم يكن ما يجتذب النظرات لا تعبيره ولا عينيه، بل فمه الواسع، الشفتان المتوترتان الرفيعتان والأسنان الكاملة التكوين، اللامعة والمتراصة بحيث تبدو برمتها مزيفة، مصطنعة. ويجب أن أضيف أنه كان يتحدث بوضوح قسري في صوته، بذلك النطق المدقق والودود لمن كافحوا من أجل تهذيبهم الشخصي في وسط معاد.

كان قد نهض من على الفراش، ربما للإفلات مؤقتًا من أسئلة سوسانا، وألقى نظرة مختلسة على رسمي البائس، بالكاد مجرد اسكتش للزجاج وللمدخنة القاتلة التي تبرز في الخلفية، خلف أشجار الحديقة؛ لم أكن قد توصلت إلى خط واحد جيد للفراش ولا للمدفأة ولا حتى لسوسانا. ربت على ظهري ولم يعلق. عادت السنيورة أنيتا وأجبرت سوسانا على الاستلقاء في الفراش، وغطتها ثم سوت الوسائد ورتبت الفراش، وهي مهمة شارك فيها فوركات تلقائيًا فاردًا اللحاف بكلتا يديه وبمهارة فائقة. في ظهر يديه، كانت العروق الزرقاء القوية تتراكب فوق الأعصاب، لكن ما كان يثير الاستغراب هو الجلد المبقع، بعض المناطق صفراء كأنها من اليود وأخرى ذات لون وردي داكن توحي بخريطة غير مقروءة لجلد آخر، رقع حريرية، كأن اليدين قد

تعرضتا للنار أو لحامض أو كأن مرضًا غامضًا ما قد قشرها جزئيًا. كذلك التقطتُ حولها رائحة تشبه رائحة القرنبيط المسلوق، رائحة منزلية، مستكينة وباهتة لم يخطر ببالي أبدًا أن أربط بينها وبين رجل حرب عصابات.

قادته السنيورة أنيتا لتريه الغرفة التي سيقيم بها، في الطابق الأول، وواصلت أنا الشخبطة وظلت سوسانا برهة تتفكر ثم فتحت زجاجة طلاء وبدأت في طلاء أظافرها. وبعد قليل سمعنا حديثًا يدور في غرفة الطعام المجاورة. «هل تبحث عنك الشرطة؟»، همست هي، وقال هو: «لا أدري... ربما كفوا الآن. لم أكن مهمًا في الجماعة. لكن هذه الأمور لا تعرف أبدًا، وعلى أي حال ليس لدي مكان أذهب إليه.» بعدها دعته إلى الجلوس، وقدمت له قدحًا من النبيذ ثم لا بد أنها انهمكت من جديد في قراءة الرسالة، لأننا سمعناه يقول لها بصوت متألم: «لا تعاودي قراءتها، يا امرأة، لا تعذبي نفسك. وفوق كل شيء لا تفقدي الأمل...» «لقد فات الأوان ـ قالت هي، لا أستطيع أن أغفر له الآن. كان يمكن أن أغفر له أي شيء آخر، أن يذهب مع امرأة أخرى، مثلاً...» «لقد شهد لي أنه لا توجد أي امرأة أخرى في حياته»، قال فوركات. «في حياته ماهو أسوأ من ذلك»، غمغمت السنيورة أنيتا وصوتها مشتبك في ذلك الحزن اليومي والدقيق التوقيت الذي يغلبها أكثر من النبيذ، وأضافت: «أنت تعرف ماذا أقصد.» «نعم»، غمغم هو، ثم صمتا حتى تنحنحت هي وهمست، كأنها تلتقط خيط شيء تحدثا فيه من قبل: «إذن فهذا هو كل ما قاله لك. هذا فقط.» «لا، ليس هذا فقط. فقد قال لي أيضًا إنه لن يستطيع أن ينساك أبدًا. أعني...» «أعرف جيدًا ماذا تعني»، قاطعته هي، وسمعنا صوت الطقطقة المألوفة لزجاج القدح وهو

يصطدم بعنق الدمجانة عند صب النبيذ فيه. حينئذ أردف فوركات: «حسنًا، لا تقلبي الأمر أكثر من ذلك. لقد انتهى كل شيء منذ زمن.» فسألت السنيورة أنيتا: «هل قال هو ذلك، أن كل شيء قد انتهى؟ هل قال لك ذلك؟ وكيف يمكن معرفة ذلك؟ - ووهن صوتها حتى صار يخبو -: في النهاية، لديه ابنته... ما الفرق إذا كنت أنا سأغرق في الخراء. إذا فكرت في الأمر جيدًا، لوجدتني في الخراء دومًا...»

راقبت سوسانا: كنت أود ألا تكون موجودة، ولا أنا. ظلت مطرقة تلون أظافرها، واضعة ذلك كل اهتمامها في. ربما لم تكن المرة الأولى التي تسمع فيها أمها تشكو من وحدتها ومن جفوة بدا أنها نهائية بالنسبة لها. عندها، وبعد صمت أطول بكثير من سابقيه، سمعنا صوت كرسي ينقل في عجلة، تصر سيقانه على بلاط غرفة الطعام ثم أنينًا خافتًا وساد الصمت مرة أخرى... تخيلت السنيورة أنيتا وهي تغطي وجهها بيديها لتكتم بعض الشهقات، وربما تخنقها في صدر ذلك الرجل، تاركة إياه يحتضنها. رفعت سوسانا رأسها وحدقت فيَّ، كما لو كانت تود أن تقرأ في عيني ما يجري في غرفة الطعام. وعلى الفور عاودت الانهماك في طلاء الأظافر مطرقة رأسها من جديد، وانسدل شعرها الأسود على جانبي رقبتها الشاحبة.

فكرت أحيانًا أنني لم أحس أبدًا أنني قريب منها مثلما أحسست في هذه اللحظة، وأنا أرى فجأة رأسها المستسلم يسقط بفعل ثقل نفس الشعور باليتم والانتزاع الذي كنت أنا أنميه سرًا وبخبث إلى جوار أمي، والذي لا شك أنه لا بد أن يكون لديها أعمق وأشد إلحاحًا بسبب المرض ولأن الشقراء الحسية كان يروق لها أن تغازل الحياة، وتسخر من الوحدة،

وتتحدى الرجال. في ذلك الصرير للكرسي المنقول من مكانه بعنف، في النحيب غير المحسوس وفي الصمت الممتد الذي تلاه، لا بد أن سوسانا قد خمنت ما خمنته: فورة مشاعر مفاجئة ولا يمكن كبتها من جانب أمها، وقد أخجلها ذلك. وفجأة أمسكت بقطعة من القطن وأخذت تفرك بعنف طلاء الأظافر حتى محته، وأغلقت الزجاجة وألقتها على الفراش ثم تمددت بين الملاءات وساقاها مفتوحتان. أدارت الراديو ثم عادت فأطفأته، حدقت فيّ وبدأت تتصرف مثلما تفعل حين تريد تسلية نفسها على حسابي وصرف انتباهي عن الرسم الذي تحتقره، المخصص للكابتن: أخرجت لي لسانها، تظاهرت بأنها تسعل سعال كلب وخبطت صدرها بيدها، نزعت الغطاء ورفصت، حركت يديها في الهواء كأنها تنظفه من الأبخرة الخانقة وسدت أنفها بأصابعها كأنها لم تعد تستطيع تحمل رائحة الغاز والدخان الأسود السام اللذين، طبقًا للتنبؤات الغريبة والمشئومة للكابتن بلاي، سينتهي بهما الأمر إلى أن يجففا رئتيها. إلا أن الدعابة، هذه المرة، كانت انعكاسًا عصبيًا لشيء يؤثر فيها على نحو أشد حميمية. وحين اقترحت عليّ بنفاد صبر لم تحسن إخفاءه أن نلعب دورًا من لعبة السلم والثعبان، تركت الأقلام والرسم لأرضيها. ولم نعد نسمع شيئًا في غرفة الطعام.

عند الغروب، حين كنت أهم بالعودة إلى المنزل، دخل فوركات القاعة لابسًا صندلاً غريبًا ذا نعل خشبي وملتفًا في جلباب طويل أسود له أساور حمراء ومزين بكتابة صينية. كان يخفي وراء ظهره شيئًا ويبتسم لسوسانا. اتكأ لحظة على منضدة السرير، حيث كنت أجمع أوراقي، وبلغتني نضارة الخضروات في يديه، الآن أقوى: كرنب معصور، أو ربما خرشوف.

ـ انظري، هذا الكيمونو الحريري أهداه لي والدك ـ قال، واقترب ببطء من الفراش ـ والآن، المفاجأة. أعطاني هذا لك.

كان ذلك بطاقة بريد من مدينة شنغهاي ومروحة من الحرير الأخضر. وما نراه في بطاقة البريد، كما أوضح على الفور، هو نهر هوانج ـ بو ومرافئه المنهكة الزاهية الألوان بجوار البوند، أشهر ممشى في الشرق الأقصى، بناطحات سحابه المتباهية ومبنى الجمارك القديم. وكان ظهر بطاقة البريد، التي لا تحمل أختامًا لأن كيم سلمها له في يده، كما قال فوركات، ممتلئًا بكامله بكتابة دقيقة ومجهدة عرفت سوسانا في الحال أنها خط والدها، تقول :

عزيزتي سوسانا، ستتلقين هذه البطاقة البريدية عن طريق رسول يحظى بتقديري البالغ وثقتي المطلقة. عامليه كأنه أنا نفسي وقدمي له الضيافة والإعزاز، فقد كان دائمًا إلى جانبي يعاونني في كل شيء (يطبخ جيدًا جدًا!) ولديه الآن مشكلات (أشرحها لماما في الخطاب). وهو يحمل لك مروحة حريرية صينية أصلية لونها أخضر، لونك المفضل، وقبلات كثيرة وذكرى مني، من جواب الآفاق هذا الذي لا ينساك. كوني طيبة وكلي كثيرًا، واسمعي في كل شيء كلام ماما والطبيب، والأهم ان تشفي سريعًا. والدك الذي يحبك، كيم.

ظلت سوسانا ناظرة إلى الفضاء، مفكرة، ثم أدارت بطاقة البريد لتتأمل من جديد نهر هوانج ـ بو المتدفق.

ـ لكنني لا أفهم ـ قالت ـ لماذا فعل هذا؟ لماذا ذهب بعيدًا هكذا...؟

- إنها قصة طويلة. يمكنني أن أقول... - توقف فوركات، وقبل أن يواصل، أخفى يديه في كميّ الكيمونو الواسعين وجلس على حافة السرير دون أن يرفع عينيه عن سوسانا - يمكنني أن أقول إنه ذهب يبحث عن شيء نسيه هنا بالضبط... لكن لندعنا من ذلك الآن. سيكون لدينا وقت طويل لنحكي فيه أشياء كثيرة.

## ٢

كل يوم، حوالي الواحدة ظهرًا وقد تحطمت قدماي، لم أكن أفكر سوى في إعادة الكابتن إلى منزله، والأكل بسرعة والهرب جريًا إلى برج سوسانا. وذات يوم اقترحت على الكابتن أن يصحبني لتحية ناندو فوركات.

- وما الفائدة - قال.

- لكن، ألم يكن السنيور فوركات صديقك، يا كابتن؟

- كان، هذا صحيح - أجاب العجوز المخبول، وتوقف في أعلى شارع بيّافرانكا ليراجع قائم توقيعاته - ما أقلها، اللعنة يجب الحصول على المزيد.

- إذن - واصلت فكرتي -، أنت لا تفكر في الذهاب لرؤيته؟

- لماذا - زام بصوته الأجش - نحن الآن في حرب أخرى.

وبعد مقدمة معقدة حول مختلف أشكال الصداقة والسخط التي تولدها كل حرب، بدأ الكابتن يحكي لي أن فوركات، قبلها بخمسة عشر عامًا، حين كان يعمل في بار لاترانكيليداد دل باراليلو، وهو عش للفوضويين البرودونيين والحالمين باليوتوبيات، كان وهو يقدم القهوة بالعرق والكوكتيلات للزبائن، يحاول أن يبيعهم كتبًا لباكونين ومنشورات عن الثورة يطبعها بنفسه.

ـ كان رأسًا مليئًا بالعصافير ـ قال الكابتن ـ. روحًا مخلصة تبشر بالفردوس. ومن المؤكد أن مزيج العرق والقهوة الذي كان يقدمه لم يكن من هذا العالم، فقد كان سخيًا، يصب فيه قدرًا كبيرًا من العرق... لكن كفى ثرثرة، لدينا عمل كثير ووقت قليل. ـ وألقى نظرة فاحصة على طول الأرصفة المتهالكة والأبواب المغلقة وأضاف ـ: هل تظن أن أحدًا سيوقع في هذا الشارع؟ أقسم أن الغاز قد مر من هنا.

عنيدًا ومجنونًا، لكن ليس أحمقًا ولا أعمى، لم يتأخر الكابتن في الانتباه إلى الحماس الضئيل الذي كانت تثيره معركته ضد المدخنة والغاز في الجيران، إلى الدعابة التي كان يبعثها وإلى الجهد الذي كلفه إياه جمع أول دستة من التوقيعات. وكانت نتيجة ذلك أنه كف عن استعجالي لإنهاء رسم سوسانا ممددة ومتألمة، مما كان مبعث ارتياح لي فلم تكن لديّ أدنى عجلة، بل على العكس؛ كان يروقني أن يكون عليّ أن أذهب كل يوم إلى البرج وتمنيت أن يطول هذا الوضع حتى الخريف على الأقل، حين يكون عليّ أن أبدأ العمل.

في أمسيات كثيرة لم أكن حتى أمسك بالقلم، كنت أفضل أن ألعب مع سوسانا لعبة الداما أو السبعة ونصف، وقبل كل شيء، لعبة السلم والثعبان، إذا زارنا الأخوان تشاكون. وأحيانًا كانت سوسانا تتعب فكان من عادتها حينئذ أن تلومني لأنني حتى لم أبدأ في الرسم الذي تريده، الآخر، الذي تريد أن ترسله إلى أبيها مع إهداء؛ لكنها بدورها كفت عن استعجالي حين اكتسب فوركات عادة الظهور في القاع نحو الساعة الخامسة مساءً بالكيمونو الطويل من الحرير الأسود، وشعره اللامع المكوي وقبقابه

الخشبي المدوي، مهندمًا ومستريحًا بعد قيلولة طويلة، ليستحضر بتمهل، جالسًا على فراش المريضة، وبالتفصيل بعض الأشياء التي عاشها مع أبيها: كيف تعارفا ونميًا صداقتهما في برشلونة فقيرة، حالمة ومتضامنة مع العالم، في مدينة أحبها كلاهما وفقداها معًا، وكيف أنهما بعد أن فقداها كان عليهما الفرار هما الاثنين إلى فرنسا، وكم من المتاعب والمخاطر والتعاسات، كم من المصاعب وكذلك كم من الأفراح اقتسماها...

لن أستطيع تحديد متى بدأ ذلك، وأظنه بدءًا من اليوم الذي طلبت فيه سوسانا إجابة على سؤالها المتكرر: ماذا كان ذلك الأمر البالغ الأهمية الذي يفعله أبوها في شنغهاي، هذه المدينة النائية والغامضة ـ وهو سؤال ظل يجيب عليه حتى الآن بالمراوغات ـ، لكنني أتذكر حقًا أن هذه الأحاديث التي كان يرتجلها فوركات بدأت تثير حماسنا حينما حاول أن يشرح السبب في أن رجلاً مثل كيم، يتوق كثيرًا إلى عائلته ومدينته، كان برغم ذلك خاضعًا لقيود معينة ذات طابع أممي لا يمكن توقعها في العادة وترتبط بمعتقداته الأخلاقية، وبشكل أكثر تحديدًا حينما ألمح إلى الأمر الشائك الذي حمله بعيدًا جدًا عن هنا، رغم أنني لا أدري ان كان يجب أن أقص عليكما ذلك، أضاف، ولفني أنا وسوسانا بنظرته الحولاء، بهذه العين المثبتة دائمًا في شيء يبدو أنه خلف ظهرنا ـ شيء يبدو أنه لا يمكن بلوغه بالضبط بنظرة علبية ـ، لكن سوسانا أصرت فانتهى به الأمر إلى التسليم، قال حسنًا، الأمر يتعلق بحكاية طويلة بدأت في فرنسا منذ عامين، في حجرة صغيرة في أحد بنسيونات تولوز تقاسمناها أنا وكيم منذ السنوات الأشد قسوة، وهكذا سيكون من الأفضل أن نبدأ من تلك النقطة، ثم نمضي بالترتيب...

# ٣

كان أحد الأوائل الذين طلبنا توقيعهم هو السنيور سوكري، الذي صادف الكابتن في شارع تريس سنيوراس ذات يوم كانت السماء تمطر فيه مطرًا خفيفًا.

- لكن يا بلاي، اللعنة - قال مبتسمًا -، كيف تطلب مني توقيعي وأنت تعرف أنني فقدت اسمي وعنواني وجنسي ونقابتي...؟ كيف تكون هكذا، يا رجل؟

- هيا، يا رجل، كفانا من مُزحة البشارة هذه - احتج الكابتن -. فالأمر لا يجب أن يؤخذ على محمل الهذر...

- حسنًا، أعطني بيانك الشهير - قاطعه السنيور سوكري، وأمسك بقلمه الحبر، ووقع وذيل التوقيع -. ها هو ذا... أتعرف شيئًا، يا بلاي؟ أنا أقدرك حقًا، أيها العنيد. ويومًا ما سأرسم لك صورة. لكن حملتك الصليبية تثير الضحك. ألا ترى ضخامة العدم الذي يلفنا؟ - وقامت يده الرقيقة الرمادية لفنان فقير، كأنما ترشدها ذاكرة مستسلمة، أو يهديها الوعي الملموس بأشكال متحضرة أصبحت منفية، بالإشارة بإيماءة رشيقة وواسعة إلى البركة المثيرة للغثيان التي تحوطنا -: أنت تفهمني. عدم من الأحلام التي تغرق نفسها في العدم، كما قال ذلك الـ...

- أترى أنك تعرف من أنت، يا وغد؟ - قال الكابتن بابتسامة متواطئة -. شكرًا ان توقيعك بالغ الأهمية.

- بلاي، لن تصدقني، لكن هناك أيام يكون فيها اهتمامي ضئيلاً جدًا، أقول لك ضئيلاً جدًا، بمعرفة أي لعنة أكون. أحس أن الأمر يستوي. الهوية خدعة، وهي أيضًا سريعة الزوال... نحن زبالة كونية، يا صديقي العزيز.

وبالنسبة لي، فإن الشيء الوحيد الذي يشغلني الآن هو تذكر ما فعلته غدًا بكل تفاصيله ونسيان ما سأفعله أمس إلى الأبد. سلام.

استأذن السنيور سوكري مربتًا على ظهر الكابتن وغامزًا لي بعينه، ورأيناه يمضي خفيفًا ومحنيًا تحت المطر الخفيف باتجاه تورينتي دي لاس فلورس. واصلنا طريقنا وهز الكابتن رأسه وابتسم، راضيًا لأن صديقه القديم يعابثه بنفس الثقة القديمة. وإلى أعلى، في السماء الرمادية والملبدة، في عمق كومة من السحب السوداء المرتعشة التي بدا أنها تلتهم نفسها، ظلت ساكنةً خربشة برق صفراء.

٤

من عادة كيم أن يقول إنه، في وسط التقلبات التي تنطوي عليها أي مهمة خطرة، كلما أمسك مسدسه وواجه الموت، لا يفعل ذلك من أجل الحرية أو العدالة أو أي مثل من تلك المثل العليا التي تحرك العالم منذ الأزل وتجعل البشر يحلمون ويتقاتلون، بل من أجل صبية حسناء لا تستطيع التحرك من بيتها ولا من مدينتها، يعذبها المرض والفقر. تلك الصبية هي أنتِ، وأنتِ محفورة في أحلامه مثل وشم لا ينمحي. ولا يمرّ يوم دون أن يراك هنا، ممددة في هذا الفراش، مثل حمامة جريحة داخل قفص من الزجاج يتعقبها دخان أسود مشين.

قل لها ألا تفسح في قلبها مجالاً للكآبة ولا للحزن، هذه هي الكلمات التي استخدمها والتي أنقلها الآن إليك دون أن أحذف أو أضيف نبرة؛ هكذا يراك ويحس بك، هكذا يتذكرك ويحبك، أسمى وأبعد من تعاسته الخاصة، فقد أحسن تحمل كل الهزائم وخيبات الأمل التي عانيناها منذ نهاية الحرب:

الوحدة والمنفى، غياب أمك، تسليم وموت الرفاق وقسوة الألمان، كل هذا لم يكن شيئًا بالمقارنة مع ألم عدم تمكنه من مساعدة ابنته المريضة، عدم قدرته على تشجيعها، وإعطائها رغبة في الحياة...

والآن سأحكي لكما كيف بدأت المغامرة الأخيرة لكيم وعلى أي نحو غير متوقع ومدهش تمامًا قادته تلك المغامرة من تولوز إلى شنغهاي.بحثًا عن عميل نازي، عن مسؤول سابق في الجستابو لم يكن قد رآه من قبل مطلقًا. ولفهم الالتزام والمخاطرة اللذين أخذهما كيم على عاتقه في مهمة من هذا القبيل، يجب أن أشير أولاً إلى حدث سابق مشئوم، إلى ما سيكون آخر تسلل له إلى إسبانيا، كان مخططًا في الأصل لجمع الأموال.

أول ما أتذكره هو طرقعة خزانة مسدس براونينج عند فكها، طقطقة معدنية لم تكن أبدًا لتبهج سمعي، كنا في تولوز، منذ أكثر من عامين، في غرفة ضيقة ذات شرفة مفتوحة على شارع بلفور، غير بعيد عن محطة القطار. يراجع كيم وثائق الهوية المزيفة التي ناولته إياها لتوي، ويبتسم لي ويضعها في جيبه. «أحسنت - يقول لي بينما أنتهي أنا من وضع بعض اللمسات الأخيرة في جوازات المرور الأخرى، ويضيف -: أنت فنان.».

أود أن أوضح شيئًا، يا صغيريّ: بالنسبة لي لا يجب أن ترياني حاملاً مسدسًا أو مدفعًا رشاشًا، مهاجمًا البنوك أو مطلقًا الرصاص مثل أي واحد من المجموعة؛ لا تتخيلا فوركات المسكين في أعمال كهذه، فلم تكن تلك مهمته، وسوف نرى ذلك. أما من أراه الآن فهو لويس دينيسو ماسكاروه، الذي ندعوه جميعًا دنيس، قائمقام كيم وموضع ثقته، لحظة انحنائه على المسدس الذي يقوم بتشحيمه جالسًا على السرير، وإحدى ساقيه في

الجبس؛ ففي مناوشته الأخيرة مع الحرس المدني قرب الحدود أصيب ويستخدم عصا بمقبض فضي تضفي على حركاته أناقة إضافية، من عادته أن يبالغ فيها أمام النساء. دنيس هذا، الأحمق محب النكات واللطيف في كل وقت، الشاب والأنيق، الصديق الوفي لكيم، والطفل المدلل للاجئين النشطاء في تولوز: كان في الحقيقة متشائمًا يتهدده اليأس والجنون، مثله مثل كثيرين آخرين ما زالوا يناضلون. وهو يجيد التصويب ويتمتع بشجاعة فائقة، وإحدى متعه الكبرى تنظيف وتشحيم أسلحة كيم كلما تولى هذا القيام بمهمة. نسمع صوت تكتكة ساعة الحائط، وصفير قطار.

- هيا، دعك من هذا - يقول له كيم -. هذه المرة لا أحتاج إلى الذهاب مسلحًا.

إنه يرحل إلى برشلونة لغرضين: أن يسلم نقودًا وجوازات مرور مزيفة لرفاق عليهم أن يجوبوا جنوب البلاد، وأن ينقل شخصيًا أمرًا مضادًا عاجلاً إلى ثلاثة أعضاء من المجموعة كانوا قد انتقلوا منذ يومين إلى العاصمة القطالونية. كان اثنان منهم، نوالارت وبيتانكور، قد رحلا من تراسكون، أما الآخر، كامبس، فقد رحل من بيزيير. أما العمل الذي كان يجب وقفه فهو الهجوم على مصنع مواد كهربائية في حي لوسبيتاليت، كان من تخطيط كيم، الذي وعد بالانضمام إليهم في برشلونة عشية العملية. لكن قبل ساعات قليلة من رحيله، يتلقى كيم من اللجنة المركزية أمرًا بوقف كل النشاطات؛ ولما كان نوالارت ورفيقاه ينتظرونه بالفعل في برشلونة، فإنه يقرر الذهاب إلى الموعد لكي يثنيهم عن القيام بأي مبادرة ويجعلهم يعودون. رحلة ذهاب وإياب سريعة، عمل روتيني ولا ينطوي على أدنى خطورة.

عند تسليمي إياه وثائق الرفاق الآخرين وتمنياتي له بحظ سعيد، ننظر في عيون بعضنا؛ في عينيه ينطفئ آخر وميض لحلم، وفي عيني لم يعد ثمة سوى رماد، وكيم يعرف ذلك:

- أنت لا توافق على هذه الرحلة - يقول لي.

- لا على هذه ولا على أي رحلة أخرى، كفى - أجيبه - لكنني لا أوافق على هذه الرحلة مطلقًا. لا أرى ضرورة ذهابك، فبإمكانهم تدبر أمورهم بدونك.

- ربما. لكن ماذا عن الوثائق، والنقود؟

- أعتقد أن هذا كله لم يعد يفيد شيئًا.

- أحقًا؟ - يقاطعني بخشونة .. ورغم ذلك، لدي أسبابي للذهاب.

يقول إنه سينتهز فرصة الرحلة ليراك أنت وأمك، ليلاً، زيارة سريعة، قبلة والوعد المتجدد بإخراجكما من هنا ذات يوم. وعندما يصبح المسدس جاهزًا ومشحمًا، يقدمه دنيس إلى رئيسه، الذي يرفضه. لم يكن كيم قد عبر الحدود قبلها أبدًا دون سلاح.

- ماذا دهاك بحق الشياطين؟ يقول دنيس.

- الأمر لا يستحق كل هذه الاحتياطات لمجرد حمل بضع أوراق وأمر - مضاد - يقول كيم.

يبدو دنيس متضايقًا ليس لهذا السبب وحده: فهو أيضًا كان بوده أن يقبل كارمن وابنه وكان سيذهب مع كيم عن طيب خاطر لو لم تكن ساقه مكسورة. ودائمًا، في كل رحلات كيم السرية إلى برشلونة، يقضي الليل في منزل والدي دنيس، وهو شاليه صغير في موضع منعزل في أورتا، حيث

تعيش كذلك رفيقة دينس مع ابنه ذي السنوات السبع. وهي فتاة شابة جدًا، كانت في السادسة عشرة عندما ارتبطت بدنيس، واضطر هو للذهاب على الفور إلى جبهة الإبرو في الأسبوع الخامس للرضيع وبعدها إلى المنفى، واستضاف الحموان كارمن والطفل الذي لم يتعد عمره شهورًا، فلم يعد لها في برشلونة عائلة سواهما. كان دنيس قد عرفها عندما قدمت حديثًا من ملقا، وكانت فتاة رائعة الجمال ومرعوبة دائمًا تعمل وتنام في صالون كوافير تملكه عمة لها تستغلها. ومثل أبيك، يا طفلتي، لم يفقد دنيس أبدًا الأمل في رؤية كارمن وابنه وقد التأم شملهما معه في فرنسا، لكن ذلك لم يكن ممكنًا حتى الآن؛ فقد وجد نفسه أولاً في معسكر اعتقال ومن هناك انتقل للعمل في منجم لصالح الألمان خلال الاحتلال، ثم تمكن من الهرب وناضل في صفوف المقاومة التي تعرف في صفوفها على كيم وبعدها رافقه في مغامرة النضال المسلح[1]، عند نهاية الحرب. لكن حكاية دنيس هذه حكاية أخرى...

تصفر قاطرة في محطة ماتابيو، ويغمر آخر أشعة الشمس المدينة الوردية Ville Rose[2] وثمة شرارة لهفة في عيني كيم بينما يراقب عفريتتي البيضاء الملطخة بالألوان، ويبتسم لي بإعزاز: «أيها النقاش المسكين - يقول - يجب أن تعود إلى جوار أمك». إذ أنني هنا في برشلونة كنت قد عملت كمصمم كتب، بالإضافة إلى عملي كجرسون، لكنني في تولوز لم أستطع العمل إلا كرسام مساعد، مثل دنيس؛ لم يكن عملاً سيئًا، أنا لا أشكو.

---

(١) Máquis : تطلق على من يحمل السلاح لمعارضة نظام قائم وكذلك على التنظيم الذى يقوم بذلك والشخص الذى يشارك فيه - م.

(٢) Ville Rose : «المدينة الوردية» اسم اشتهرت به مدينة تولوز - م.

- أراكم في العودة. ليكن سلوككم جيدًا - يقول كيم وهو يحفظ الأوراق بين ضلوعه وبين القميص -. أقسم أنني في واحدة من هذه المرات سأضرب بالاحتياطات عرض الحائط وأحضر سوسانيتا معي.

- هل أنت مجنون - يقول دنيس -. كيف تريد عبور الحدود بطفلة مريضة؟ ما يمكن عمله حقًا، إذا سار كل شيء على ما يرام، هو أن تحاول إحضار كارمن وابني، إذا رأيت هذا ممكنًا هذه المرة، فافعل، سأعطيك نقودًا من أجل النفقات، ومبلغًا آخر تتركه لوالدي.

يفكر كيم بينما ينتهي من ارتداء السترة.

- إذا لم أر أي خطر عليها وعلى الطفل، فسوف يأتيان معي. اعتمد على ذلك.

يسلمه دنيس ورقة من ذات الخمسة آلاف بيسيته، نصفها من أجل والديه والنصف الآخر من أجل كارمن، ويتعانق الصديقان في منتصف غرفة البنسيون، وسط ذلك البريق الوردي الذي عادة ما يدخل من الشرفة في تلك الساعة. وهكذا سأراهما دومًا، فكأن ذلك كان توقعًا حدسيًا منذ اللحظة الأولى: متعانقين كلاهما تحوطهما هالة من ضوء بدا أنه يبقيهما في الهواء، وكل واحد منهما يفكر في نفسه أنهما، مثلما في مناسبات عديدة أخرى، ورغم كل الاحتياطات والنوايا الطيبة، ربما لا يعودان للالتقاء بعدها أبدًا. ويقبل كيم في النهاية المسدس الحديث التنظيف الذي يقدمه له صديقه. نسيت توصيات دينس التي لا تنتهي بشأن أقدام كارمن الرقيقة واستعدادها للإصابة بنوبات البرد، ألا تدعها تنام في العراء أثناء عبور تلك الجبال، لكنني لا أنسى النظرة الحازمة لكيم حين يقول له : -

- ثق بي، يا فتى. سأحضرها لك سليمة معافاة.

يخطو نحو الباب وإذا بقط أسود لست متأكدًا من أنني رأيته، وربما كان يهزُّ ويعبر بخطوته النمرية في خيالي فقط، أريد أن أقول إنني لا أتذكر أنه كان في تلك الغرفة، وربما لم يكن له وجود، إذا به ينزلق من أمامه ثم يقفز من الشرفة إلى الشارع وتكاد تفلت مني صرخة.

- ماذا دهاك، يا فوركات - يقول كيم.

- لا شيء. إنه ميسيفوس[1].

- أيُّ ميسيفوس وأي لعنة؟ - ينظر حوله دون أن يرى شيئًا.

- لا تولني اهتمامًا - أقول له - هيا، حظ سعيد.

من الشرفة نراه يبتعد في شارع بلفور في طريقه إلى المحطة بسترته الجلدية وقبعته البنية، يمضي متمهلاً ومفكرًا، والسيجارة في شفتيه، ويداه في جيوبه، كأنه سيتمشى في واحدة من جولاته المعتادة على ضفة نهر الجارون.

## ٥

- أهلاً، أهلاً! لقد وقعت لي من السماء، يا بني. دعني أستند على ذراعك، فقد خرج الحذاء من قدمي - قالت السنيورة أنيتا.

كانت قد صادفتني عند الناصية وكانت تتأرجح وإحدى قدميها حافية، والحذاء في يدها. تعلقت بذراعي كيفما اتفق، وجعلتني أسقط الحافظة وعلبة الأقلام ولفتني بنفسها الذي تفوح منه رائحة الخمر. ابتسمت فظهرت في

(١) القط صاحب حذاء الاربعين فرسخاً فى الحكايات - م.

أسنانها بقع من أحمر الشفاه. كنت قد خرجت لتوي من البرج، وكانت الساعة قد تجاوزت الثامنة وأحسست بالبرد يعض أصابعي رغم القفاز الصوفي. وكانت هي قادمة من سينما مونديال في شارع ساليرون ولا بد أنها توقفت في نصف دستة من البارات. مستندة على ذراعي، لم تفلح في ارتداء فردة الحذاء وسقطت على الرصيف جارحة ركبتها. بالكاد لم تسقط على وجهها وتصطدم بحافة مدخل أحد المباني، حيث عاونتها على الجلوس. رفعت ركبتها حتى أنفها وفحصتها وهي تهز رأسها. كان بالجورب ثقب في حجم بيضة.

- أتريدين أن أصطحبك، يا سنيورة أنيتا؟

- أنت لطيف جدًا، لكن لا ضرورة. إنه هذا الحذاء، لا أدري ماذا جرى له - أمسكت بفردة الحذاء أمام عينيها لا تدري ماذا تفعل به، نظرت إليه من الوجه ومن النعل، لكن لم يكن قد جرى للحذاء شيء.. إنه قديم، هذا ما جرى له... ولا بد أن الكعب قد التوى، حذاء سندريللا، انظر...! - جاوبتها الابتسام، دون اقتناع كبير فيما أظن.. أنت قادم من المنزل؟ لن تكون قد تركت سوسانا بمفردها.

- السنيور فوركات معها.

- آه، طبعًا. ما ألطف صحبة طفلتي الآن، ألا تظن ذلك؟ كل الأمسيات معك وأحيانًا مع صبيي الكارميلو هذين، البالغي الظرف، ومع السنيور فوركات الذي يعرف جيدًا كيف يسليها... كم نحن محظوظتان، ألا تظن ذلك، يا دانييل؟

- نعم، يا سنيورة.

ـ ما أروعنا الآن، أليس كذلك؟

ـ نعم، يا سنيورة.

ـ أتعرف؟ أنا في أشد الرضى ـ تنهدت ـ. لم يعد على طفلتي أن تبقى وحيدة. أوف، أنظر إلى هذا الجورب التعس، لم يعد ينفع فيه الرفو! ومع كل هذا البرد اليوم... ـ صمتت وأعطتني الانطباع بأنها تريد أن تضيع بعض الوقت في تدليك ركبتها المجروحة. حتى لاحظت قفازي الصوفي الرمادي، فأمسكت يدي اليمنى وأسندتها برفق فوق ثقب الجورب وفوق الجلد المتجمد

ـ هل تسمح لي؟ ما ألطفه من دفء، يا للراحة...! وما أجمل هذا القفاز. هل صنعته لك أمك؟

ـ لا. صنعته السنيورة كونشا.

ـ هل تعرف أن هناك أيدٍ تعطي الدفء بمجرد النظر إليها ـ ثنت ركبتها مرتين مغلقة عينيها. وحين فتحتهما من جديد رمش بؤبؤاها الأزرقان بمرح ـ. إذا فكرت في الأمر جيدًا، فإن الشيء الوحيد الذي نحتاجه في هذه الحياة هو قليل من الدفء في اللحظة المناسبة، القليل منه لا أكثر، ألا تظن...؟ لكن ما تفكر فيه الآن هو: السنيورة أنيتا سكرانة تمامًا، أليس كذلك. ـ نجحت أخيرًا في ارتداء الحذاء ونهضت ـ. لكن، أتعرف شيئًا؟ ما من شر يدوم إلى الأبد... آه، يا ركبتي!

ـ دعيني أعاونك حتى منزلك.

ـ لا، لقد وصلت...

لكنها أخذت تعرج وفي النهاية قبلت أن أصاحبها، تعلقت في ذراعي وقبل أن تدفع بوابة الحديقة حاولت أن تهدأ، نظرت في مرآة صغيرة، وسوّت

الخصلات المجعدة الشقراء وبينما تمرر إصبع أحمر الشفاه على شفتيها جعلتني أعد بألا أخبر السنيور فوركات بأنني رأيتها في تلك الحال. وعند عبورها البوابة استدارت إليّ مبتسمة:

- أنت طبعًا تعرف، إذا ذهبت يومًا إلى سينما مونديال ولم أكن أنا في شباك التذاكر، قل للعامل إنك صديقي وسيتركك تدخل مجانًا.

- شكرًا، يا سنيورة أنيتا.

## ٦

لم أكن سوى واحد منهم ولست من أشجعهم، لست ممن يخاطرون بجلودهم ممسكين بالمسدس، كنت فقط أعمل بالريشة والأحبار أكشط وأثبت أرقامًا وأسماء بمساعدة حد شفرة الحلاقة وأدوات مدهشة ومتنوعة؛ كنت فقط أزيف وثائقهم وأخترع توقيعات، وأزودهم بأسماء وهويات جديدة: كنت أجعلهم خطرين، لكنني لم أكن خطرًا. كنت أحلم بمخاطراتهم.

يصل كيم متخفيًا إلى برشلونة ذات ليلة ماطرة لأواخر أبريل ويلتجئ إلى دار والدي دنيس، اللذين يسلمهما الرسالة ونصف النقود التي أعطاها له هذا الأخير في تولوز؛ أما النصف الآخر فمن أجل كارمن، التي تقبله دون بهجة. فتاة في الرابعة والعشرين أنهكها العمل والوحدة، وسئمت الانتظار تنظر الآن إلى كيم بما يشبه الكراهية: فزيارته دائمًا مصدر للهموم والحزن، دائمًا ما تحمل خبرًا سيئًا : هذه المرة خبر إصابة دنيس في اشتباك مع الحرس المدني. إلى متى هذه المخاوف؟ هل يستحق الأمر عناء كل هذه التضحيات، كل هؤلاء الموتى؟ متى سينتهي هذا الكابوس؟ يتفهمها كيم ويعترف لها.

- وليست هذه هي المرة الأولى، ففي المرة الأولى اعترف لي بذلك عند خروجه من اجتماع ساخن في باريس - بأنه هو أيضًا بدأ يتعب من النضال من أجل لا شيء.

وراغبًا في رفع معنوياتها، ينقل إليها شوق دنيس: هناك تمضي الأمور أفضل قليلاً بالنسبة للجميع وربما حانت ساعة أن تولى هي والطفل ظهريهما لهذه المدينة ويلتئم شملهما معه. بإمكاني أن أصطحبك عند عودتي، خلال ثلاثة أيام، يقول لها: عبور الحدود منهك بعض الشيء، لكن لدينا دليلا جيدا. المدهش أن كارمن لا تبدو متحمسة للفكرة: كأنما الوقت قد فات، كأنما دنيس قد مات بالنسبة لها. تحتضن ابنها وتفكر... يمكننا تخيل ثلاثتهم تلك الليلة المطيرة بجوار المدفأة، بعد العشاء، وقد أوى العجوزان إلى فراشهما والطفل الذي لا يريد النوم قابع بين
بنفس هذه العيون المفتوحة عن آخرها التي تنظران بها إل
الدهشة وعدم التصديق، يمكننا أن نتصور الآن ذلك الطفل وهو ينظر إلى كيم ويستمع إليه، إلى الصديق الجسور لأبيه، القادم من الجانب الآخر لليل والخوف، هناك حيث ستنتهي أخيرًا متاعب أمه ومرارتها؛ كذلك لا بد أنها هي الأخرى تنصت إليه منتبهة وصامتة، تلك الشابة الجميلة شبه الأمية القادمة من ملقا خلال الحرب... لا أعلم التفاصيل، لكن كيم ينجح أخيرًا في إقناعها/محدثًا إياها عن خبرته في العبور بأطفال إلى فرنسا: فمنذ عام، حين نظم أول مجموعة مسلحة من مختلف الفصائل وكان يعبر الحدود كثيرًا، كان يحمل أحيانًا عند عودته ابن أحد المنفيين. وفي المرة الأخيرة، عبر بطفلين في الثامنة والثانية عشرة، هما ابنا قومندان جمهوري مات في

معسكر ماوتهاوزن. لماذا إذن لم تخرج زوجتك وابنتك من هنا حتى الآن؟، تقول له كارمن. فيجيب: كيف كان يمكنني أن أعولهما خلال تلك السنوات وأنا أرحل على الدوام من هنا إلى هناك وأنا منخرط في المقاومة؟ والآن ما حيلتي، وابنتي مريضة...

قبل إقامة الاتصالات المقررة، يقرر كيم في تلك الليلة ذاتها، أن يأتي لرؤيتك أنت ووالدتك، في وقت متأخر، قرب الفجر. كانت تمطر بشدة وسار مسرعًا في شوارع خالية وعابرًا الأراضي الفضاء في أورتا والجينارديه، حتى استطاع ركوب عربة أجرة.

يقول إنه وجدك نائمة ولم يرد إيقاظك، ولا حتى أضاء النور؛ حدثني عن الرائحة الطيبة للكافور في هذه القاعة، عن شفتيه المرتعشتين فوق جبهتك الملتهبة. ترك لك فوق الفراش كيسًا من البلكسيجلاس الأخضر، لونك المفضل. كذلك ترك بعض النقود لأمك. لم يبق ولا حتى خمس دقائق، لكن هذه الدقائق القليلة إلى جانبك عوضته عن مشاق كثيرة.

اليوم التالي يوم أحد ويشرق النهار صافيًا ووضاءً، تهب فيه الريح تحت سماء بلغ من زرقتها أن أقلقت ذاكرته التي خدرها بنفسه، ربما كانت ذكرى هذا الضوء نفسه في هذه الحديقة في أيام أسعد، بينما هو يعبر المدينة في الترام وتتتابع خلف زجاج النافذة أشجار الموز المخضرة والواجهات المشمسة، وأشجار النخيل الصفراء في الشرفات والناس الذين يتمشون بهدوء ممسكين بأيدي أطفالهم. يحس في قلبه بالوخزة التي أحس بها في أحيان أخرى: غريب في مدينتك ذاتها، أجنبي في بلدك ذاته، هكذا تحس حين تكون الكراهية والبارود قد أعمياك مثلما فعلا به خلال زمن

طويل، حين كان يتخيل بعيدًا عنكما هذا الجحيم من القمع والبؤس، هذا الشقاء الذي لا ينتهي والذي طالما لعنه واليوم فجأة، على نحو غير متوقع، يحاول أن يكذّبه نهار بالغ الوداعة وربيعي، مناسب تمامًا لفقدان الذاكرة الاحتفالي الذي يبدو أن هؤلاء المتنزهين المرتدين ثياب الأحد يتمتعون به... نحن لا نصاحب كيم في رحلته في ذلك الترام الذي يعبر المدينة من الشمال إلى الجنوب، لكن يمكننا تخمين ما يستشعره مرة أخرى ويجهد في رفضه: ليس فقط تلك اللاجدوى المفزعة للبراونينج الحديث التشحيم الذي يحمله تحت الإبط، قريبًا جدًا من القلب، بل كذلك عبثية المثل العليا القديمة التي ما زال هذا القلب ينطوي عليها. كل عبور جديد للحدود، كل لقاء جديد مع ذلك الضوء هو سقوط جديد في القنوط.

لكن هذا الإحساس بالاستبعاد يحمل مزايا معينة: فالغريزة التي تنبهك للخطر تزداد رهافة وتبقيك منتبهة. يحتفظ كيم بالوثائق في حقيبة أوراق قديمة ويحتفظ بالأوامر في رأسه: الوقف المؤقت لكل الأعمال المسلحة بغرض جمع الأموال، بما في ذلك هجوم الغد. تلك هي تعليمات اللجنة المركزية، وسيكون من يتلقاها هو جوزيب نوالارت. والاتصال مقرر في شرفة مقهى قريب من محطة سانتس، في الحادية عشرة صباحًا. يهبط كيم من الترام، ويتوقف للفرجة عند أحد الأكشاك، على بعد نحو ثلاثين مترًا من المقهى، ويراقب نوالارت الذي ينتظر جالسًا وأمامه فرموت، وحيدًا، على إحدى طاولات طرف الشرفة. يبدو كل شيء عاديًا. والشرفة يتردد عليها الكثيرون، وتخدمها فتاة شقراء ماهرة ذات قلنسوة صغيرة بيضاء وجونلة بكرانيش. يتسلى نوالارت بقراءة الصحيفة، التي تعبث الريح بصفحاتها،

ولم ير كيم بعد. إنه رجل في الخامسة والثلاثين، ربعة، بشعر خفيف ونظارة ذات إطار معدني. حدثتكما عن غريزة كيم لاستشعار الخطر، لكن ما سينقذه هذه المرة هو خاطر مكرس لك، يا سوسانا.

يسمع صوت فرملة سيارة ويرفع نوالارت رأسه بحدة عن الصحيفة، لكنه لا يتبين أي شيء غير عادي. يتقافز طفلان بين طاولات الشرفة، تشتد الريح وتصبح مزعجة جدًا. يبدو أن نوالارت يستشعر قرب كيم ويبدأ في إدارة رأسه باتجاه الكشك، لكن في هذه اللحظة بالضبط، ترفع لفحة ريح جونلة الفتاة التي تمر حاملةً صينية مشروبات فيلفت الحادث انتباهه الباسم وانتباه الزبائن الآخرين. وعند محاولتها إنزال الجونلة، تكاد الجرسونة الشابة، الشديدة الانزعاج، أن تقلب الصينية بكل ما عليها فوق رأس نوالارت. تسمع بعض الضحكات. وهكذا فإن سيقان الفتاة، هذه الهدية غير المتوقعة للنظر - هكذا كان يمكن أن يصفها نوالارت نفسه، ضاحكًا - هي ما يمنعه من إدراك وصول رئيسه وربما من القيام بإشارة له، وهذا، مقترنًا بواقع أن أباك يتسلى عند الكشك لبضع ثوان أخرى متصفحًا رسوم رواية صغيرة من روايات الشباب يظن أن عنوانها، مخاطر سوسانا، سيسليك، هو ما ينقذ كيم.

يهم بشراء الكتاب، لكن لا وقت لشيء. يعبر إشارب أسود تنتزعه الريح من رأس امرأة الشرفة خافقًا كأنه غراب حتى يشتبك بفرع شجرة واطئ. إنها العلامة، النذير المشئوم الذي لا يلتقطه نوالارت. عند الكشك، يسأل كيم عن ثمن الرواية، وعندما يستدير، يراه واقفًا على قدميه كأنه سيسقط، مقاومًا ضد الريح وضد دهشته: يطبق عليه من الجانبين رجلان

يرتديان المعاطف، يحاول نوالارت الانحناء لالتقاط شيء من الأرض، قلنسوة، لكنهما يسندانه ويفحص أحدهما أوراقه بينما يضع الآخر القيد في يديه. لا يقاوم ويقودانه نحو سيارة سوداء، وهما يدفعانه دفعًا، وسط الفضول العام، لكن ما زال لديه من الوقت ومن المرح ما يجعله يلقي من فوق كتفه نظرة أخيرة على سيقان الجرسونة، من يدري ربما آملاً أن تقرر الريح أن تلعب مرة أخرى بجونلتها المكشكشة الممتلئة بالهواء، هكذا كان نوالارت، دائمًا بمعنويات عالية، رجل محب للحياة وللنساء...

يبقى كيم إلى جوار الكشك حتى تختفي السيارة ثم يمضي. ومن المفترض أن الشرطة كانت تجهل أن نوالارت كان على موعد معه، فلو كانت تعرف لكانوا قد انتظروا وصوله ليوقعوا به هو أيضًا. إلا أن كل شيء كان يشير إلى أن البوليس قد بدأ العمل بعد أن تلقى وشاية، ففي نفس تلك اللحظة تم القبض في شقة في البوبلنو على رجلي كيم الآخرين، بيتانكورت وكامبس، وكذلك على حلقة الوصل لتوزيع الدعاية، وهو ميكانيكي من جراثيا.

يعلم كيم بذلك بعد ساعات قليلة، وبعد التعرض لكثير من المخاطر، فيقرر أن أفضل شيء هو الذهاب في أسرع وقت. لا يبدو له من الحكمة العودة إلى شاليه أورتا فيحدد مع كارمن موعدًا بالتليفون في محطة فرنسا، وتذهب هي مع ابنها وحقيبة صغيرة وفي نفس هذا المساء يبدأ ثلاثتهم أولى مراحل الرحلة التي ستجعلهم يعبرون الحدود خلال الليل.

فشلت المهمة، لكن كيم سيفي بالوعد الذي قطعه لدنيس بأن يحضر له رفيقته وابنه سالمين معافين حتى تولوز.



# الفصل الرابع

## ١

حين تحولت إلى ظل صباحي للكابتن بلاي، مشتبكًا في أحبولة خيط العنكبوت من الأشياء غير المترابطة التي أخذت تتسع وتتدعم كل يوم بالمبالغات اللفظية والإيمائية للعجوز المجنون، كنت كثيرًا ما أحس أنني أطفو في اللاواقع الأشد نقاء، محصورًا في حي متعفن ورمادي لا ترتبط مشاغله المفزعة بأية رابطة على الإطلاق بالمشاعر التي تنتظرني بعد الظهر في البرج: كانت رغبتي الوحيدة هي العودة إلى جوار سوسانا وفوركات.

في بداية تجوالنا لجمع التوقيعات كنت أحس بكثير من الخجل، فكنت «أتدارى» خلف الكابتن حين يفتحون لنا الباب وأتظاهر بالشرود، لكنني تعودت بعدها. كنت أحمل معي حافظة صغيرة تضم وثيقة الاحتجاج وورقة جعلني الكابتن أسجل فيها اسم وعنوان من يوقعون، وكذلك من يرفضون التوقيع. وكانوا هم الأكثرية. كان الكابتن يدخل البارات والدكاكين، الأسواق والمدارس، مغطيًا بالتدريج شوارع أكثر حول المدخنة الكريهة وموسعًا منطقة صارت تشمل كل حي لاسالود تقريبًا وجزءًا من الجينارديو. كان يطرق بإلحاح أبواب كل الشقق، وكانت ربات بيوت مثقلات بالعمل

ومستريبات ينصتن إلى رجائه كارهات وغير مصدقات، وهن يسددن بأجسامهن الباب الموارب. إذا كن يعرفنه، فإنهن يوقعن للتخلص منه، لكن هذا حدث مرات قليلة. أما أغلب السكان، خصوصًا حين كان من يفتح لنا هو الزوج، فكانوا يطردوننا بطريقة سيئة. توقيع من أجل زيادة طول مدخنة بضعة أمتار ووقف تسرب غاز سام؟ أي مدخنة لعينة تعني، وأي تسرب دخان مسموم بل وأي خراء في الخل؟، كانوا يقولون مغتاظين، ويصفقون الباب في أنوفنا.

- حضرتك أحمق وعبيط، يا سيدي - كان الكابتن يرد من وراء الباب. ثم يتحسر في الشارع :- الخراء يصل حتى رقابهم ولا يريدون أن يعرفوا. أكيد أن هذا الشقي منتم للنظام...

- تريد أن تقول مخلص، يا كابتن.

- أريد أن أقول ما قلته، يا أبا بربور.

هناك مخلصون وهناك خائرون رعديدون لا يصلون إلى هذا الحد فيظلون منتمين.

لكنه لم يفقد معنوياته أبدًا. ومع أواخر مايو، بعد حوالي شهر من وصول فوركات إلى البرج، لم نكن قد أفلحنا حتى في جمع دستة من التوقيعات،وطبقًا لتوقعاته، فإننا إذا أردنا أن تولينا البلدية اهتمامًا لا يجب أن نرضى بأقل من خمسمائة، وهكذا رأيتني أصعد وأهبط السلالم وأطرق الأبواب والمزيد من الأبواب حتى الخريف القادم، حتى تأخذني الورشة كصبي وتحررني في النهاية من جولات وشطحات الكابتن.

وكان كثير من الجارات النمامات في المناطق المتاخمة لكاميلياس وأليجري دي دالت ينتهزن زيارة جامع التوقيعات الغريب، الذي يفترض أنه يعلم عن طريق زوجته بكل ما يدور في برج السنيورة أنيتا، لاستدراجه دون حياء: هل صحيح أن الرجل الذي تؤويه تلك العاهرة في منزلها آكلاً شاربًا لم يأت من فرنسا، بل من معتقل بورجوس؟ لماذا لا يخرج من البرج أبدًا، ماذا يفعل طوال النهار هناك مع صبية مصدورة في الخامسة عشرة ومع هذا الغلام...؟ هل صحيح أن عاملة التذاكر تتجول سكرانة وعارية في كل أنحاء المنزل، أمام الأحول، أم أنها مجرد شائعات؟

بكل صفاقة العالم، وبكل ثراء التفاصيل عادة، كان الكابتن بلاي يغتبط بزيادة تعقيد أحبولة الشائعات. لا، يا سنيورة كلوتيلده، معلوماتك غير صحيحة، هذا الرجل هو في الواقع مداوٍ وصل لتوه من الصين وهو يعالج الطفلة المسلولة بتدليكها بماء الورود المغلية مع ديدان الوهج، وهو علاج قديم جدًا ضد باسيلات كوخ[1]، وصحيح أنه في شبابه كان خادمًا في سفينة وطاف العالم بأسره وكان مغرمًا بعاملة التذاكر، إلا أن جواكيم فرانش إي كاسابلانكاس كان أبرع منه وسرق خطيبته، وقد رضي هو بذلك ويبدو أنه نسي الشقراء، لكن من يدري إن كان ثمة بقية من ذلك اللهب، لا يجب أن يثق المرء أبدًا بهؤلاء المغامرين، وخصوصًا هذا الذي نظرته متقاطعة وقلبه مليء بالندوب... فوركات المغامر عابر الأطلنطي!

كان يلضم الاختلاقات بالحقائق بطبيعية بالغة، ورغم أن السكان كانوا يعتبرونه خرفًا ووقحًا، فقد كانوا يبتلعون بمتعة كل ما يتمشى مع توقعاتهم المريضة ومن يدري مع أي هلوسات عاطفية وأحلام مبتلة، خصوصًا لدى

(١) هي الباسيلات العصوية المسبِّبة للسل التي اكتشفها العالم الألماني كوخ - م.

الرجال، فقد كانت بائعة التذاكر الشقراء تدير رأس الكثيرين. ومهما جمع الكابتن، ما دام يتحدث عن البرج وعن ساكنيه، كانوا يستمعون إليه بانتباه. أما هو، فقد كان يتظاهر باهتمام وفضول كان بعيدًا عن الإحساس بهما بكل ما يجري هناك. وذات مرة قال لي أنه اكتشف إنه صار عجوزًا يوم أن بدأ يتظاهر بالاهتمام بأشياء تضجره كثيرًا، في أعماقه. لكن الحقيقة أنه نادرًا ما كان يتصرف كعجوز، وبالأخص في كل ما يتعلق بوسواسه المزدوج: مدخنة المصنع ووباء الغاز، المحركان الحقيقيان لجولاته في الحي ولتعامله مع الشائعات وسوء الفهم.

هكذا استطعت الوقوف على كثير من الأقاويل التي تدور حول السنيورة أنيتا، والتي كان الكابتن يكذب بعضها ولا يكذب البعض الآخر، مثلما على سبيل المثال أنها لم تكن المرة الأولى التي تؤوي فيها رجلاً في منزلها: فمنذ ثلاث سنوات، كان عامل عرض السينما التي كانت تعمل فيها حينئذ، سينما إيبريا، ينام ويأكل في البرج طوال شهر تقريبًا؛ فطبقًا للكابتن، كان ذلك الرجل على قرابة بعيدة مع السنيورة أنيتا وكان مريضًا جدًا، وكانوا قد طردوه من البنسيون ولم يكن لديه مكان ينام فيه، كان يسعل ويبصق طول الوقت - ودائمًا ما اعتقدت أنه قد نقل العدوى إلى الطفلة، تجاسر الكابتن على القول - ورغم أنه لا بد من الاعتراف بأنه كان رجلاً مليحًا ومهندمًا، فقد قالت هي للدونيا كونشا أنها تحس بالقرف منه، خصوصًا عندما تغير له الملاءات.

في محل زهور بشارع ثردينيا قرب المنزل، توقف فيه الكابتن قائلاً إن لديه ضرورة ملحة لشم القرنفل - رغم أنه حين دخل تعجب متشممًا الهواء:

«حتى هنا يصل النفس المتعفن للوحش الشرير!» - أبدت صاحبة المحل، وهي امرأة نحيفة متصلبة، قبل أن تقرر توقيع خطاب الاستنكار، الذي أمرني الكابتن بأن أقرأه بصوت عال مرة أخرى، أبدت اعتقادها بأن أم سوسانا هي مهاجرة جاهلة: «كل هذه السنوات تحيا هنا ولم تتعلم بعد الحديث بالقطالونية، لا هي ولا ابنتها» وأردفت أن أسوأ ما في عاملة التذاكر ليس لخبطاتها العاطفية، بل ولعها بالخمر، وجونلاتها المحزقة وطريقتها في المشي، نوقها السيء، جو العاهرة الذي لن يفارقها أبدًا، خسارة. وإذا كان زوجها بالمنزل، فمن المؤكد أنها ستخفف من حركة مؤخرتها، قالت.

- يجد الرجال هذه الشقراء لذيذة وشهية، أليس كذلك؟

- قال الكابتن بصوته المعسول - إنها مدخنة عتيدة. لكن انظري، يا سنيورة بيلي، كلما أصبح المرء عجوزًا ومتهالكًا، كلما قلت رغبته في الحكم على أي واحد... حسنًا، على أي واحد تقريبًا. ولهذا أعتقد أن الرب، الذي لا بد أنه أشد شيخوخة وأشد تهالكًا مني، حين يستقبلني هناك في الأعالي لن يحاكمني. سيقول لي تفضل، يا بلاي، استرح هناك بأفضل ما تستطيع. هذا ما سيقوله لي... وعلى كل حال، يا سنيورة بيلي، فإن المرء إذا تفكر قليلاً في الأمر، مهما فعلت هذه الشقراء المتقدة بمشاعرها وبإليتها الجميلة، فإن ما يجب أن يشغلنا حقًا هو الدمار الذي تحدثه باسيلات كوخ في ابنتها المسكينة، وهذا الغاز الذي أخذ يفسد زهورك ويهدد بتدميرنا جميعًا.. لهذا أطلب توقيعك، من أجل شفاء رئتي مخلوقة بريئة ستموت لا محالة إن لم نتحد جميعًا لنطالب بالعدالة ونطالب السلطات بأن تأمر بهدم هذه المدخنة الشيطانية، أو على الأقل بأن ترفعها بضعة أمتار أخرى...

- حسنًا، حسنًا - قاطعته السنيورة بيلار فارغة الصبر، وانتزعت من يدي ورقة التوقيعات - هاتها، يا غلام. سأوقع. لا حلّ لهذا العجوز المخبول.

لامت الكابتن على مبالغته في درامية مرض سوسانا الرئوي؛ في رأيها أن تلك الطفلة لن تموت. وأضافت أن السل مرض رومانسي، ولا يجب المبالغة فيه... وعند الباب، استدار الكابتن ليجيب على السنيورة بيلار بأن تأخذ حذرها إذا ظلت ذات ليلة صافية وهادئة، مستجيبة لروحها الرومانسية، تنظر إلى النجوم: فالقول بأن النجوم لا ترمش، قال، هو أكذوبة، وما تفعله هو أنها تطلق ترابًا أبيض يصلب العصب البصري ويمكن أن يسبب العمى.

- لا تقل المزيد من الحماقات، يا رجل بحق الرب! - صاحت بائعة الزهور.

- القول بأنها ترسل إلينا ضوءًا هو خدعة من مصلحة الأرصاد الجوية - أكد الكابتن -. فهي ميتة وميتة تمامًا منذ ملايين السنين. قال ذلك الليلة البارحة راديو إسبانيا المستقل.

كان يحس بأنه سمك في الماء وهو يتجول في الحي. وقد سألته لماذا لم يهرب من برشلونة مثلما فعل كيم وفوركات وغيرهما كثيرون، ومثلما لا بد أن أبي كان سيفعل لو لم يختف في الجبهة.

- سأموت في مستشفى لاسالود - زام -. لن يحركـ ي من هنا، سأدفن قلبي في لاسالود... أوف...

كان قد تأخر وعندما استدرت رأيته يبول بهدوء في فتحة البالوعة، في الجزء الأسفل من ميدان سانليهي. كان يطلق بولا كثيفًا ومضفورًا، داكنًا وساكنًا.

- ليس هنا، يا كابتن، من فضلك - جذبته من معطفه، لكنه لم يتحرك -. من فضلك.

- تبول الرجل الخفي لا يرى - قال ضاحكًا.

- إنك لست الرجل الخفي، اللعنة! - عاجزًا وخجلانًا، أخشى أن نجذب انتباه أحد، أخذت أدق الأرض بقدمي وبنبرة خبيثة قرفتني أنا نفسي، وبخته - : كنت أعرف أننا سننتهي اليوم بارتكاب حماقة كبرى!

- وماذا تريدني أن أفعل؟ - قال -. ألا تعلم أنني عجوز مجنون؟

- هيا بنا، يا كابتن، فالوقت متأخر.

بعدها بقليل تجادل مع صاحب محل منتجات ألبان في شارع سان سلبادور حيث تشتري السنيورة أنيتا لبن البقر من أجل سوسانا. طلب توقيعه لمساعدة مسلولة مسكينة لا حول لها على التنفس بشكل أفضل، لكن اللبان زام قائلاً إن هذه حماقة ومضيعة للوقت، وأي لعنة تظن أنك ستتوصل إليها بأربعة توقيعات، وأشار لي أن آخذ من الدكان ذلك الأحمق الذي لا يكف عن الكلام.

- وماذا يكلفك أن تضع توقيعًا صغيرًا، هيه؟ - قال الكابتن -. أعتقد أنك لا تدرك الخطر الذي يحدق بك. أنت وعائلتك. هل تعرف ما هو الغاز؟

- حسنًا يا رجل - همهم اللبان -، لدي فكرة...

- أشك في ذلك، يا سيدي. الغاز مادة أثيرية، مثل الهواء، مثل رائحة الأبقار، مثل أكاذيب النساء الشقراوات ومثل ضراط الأساقفة، الذي لا يسمع ولا يرى. وله خاصية التولد بلا نهاية، دون أن يوقفه شيء.

- نعم، نعم، اللعنة... خذه، يا غلام. يجب أن يشرح أحد لهذا الرجل ما يجري. - أمسكه من ذراعه وفكر قليلاً فيما سيقوله له، ناظرًا إليه بعينين

يملؤهما الأسى جاويتهما شخرة من الكابتن ـ أنظر، يا بلاي، لقد ظللت زمنًا طويلاً حبيس منزلك وفي رأسك مدفع رشاش، ولم تشف تمامًا بعد، والأفضل ألا يتركوك تتجول هنا...

ـ إنه بخر، مادة مائعة ـ قاطعه الكابتن ـ وهناك أنواع كثيرة من الغازات. غاز المناجم، مثلاً، غاز الكلور، السام والخانق، الذي يغزو الخنادق. الغاز المنزلي، الساكن والزاحف. الغاز الأخضر للبحيرات والسدود، وهو منوم... لماذا تظن أنهم يفتتحون كل هذه البحيرات في هذا البلد؟

ـ حسن تمامًا، فهمنا! والآن اذهب، لدي عمل كثير.

ـ نعم، صب الماء في اللبن، هذا هو عملك. هل توقع أم لا توقع؟

بعد شد وجذب أفلحت في إخراج الكابتن إلى الشارع. في ذلك اليوم ربحت بالكاد جائزة كل مساء، مجلسي المفضل في قاعة البرج الدافئة، منهمكًا في الظاهر في الرسم لكنني في الحقيقة أنتظر بفراغ صبر ظهور فوركات في الكيمونو الرائع ذي الأكمام الواسعة حيث يخفي يديه، أن أراه يجلس بتمهل وشرود شديدين على حافة فراش سوسانا. وأحدِّق برهة طويلة في عينه المزاحة عن محورها في الضوء الكليل القادم من الحديقة بينما يفتش هو بالتأكيد عن الكلمات التي يواصل بها حكايته، عندها كنت أترك القلم وأنهض منْ طاولة السرير دون أن أحدث ضجيجًا وأتسلل حتى السرير لأجلس على الجانب الآخر بجوار سوسانا وأتمكن على هذا النحو من الاستماع إليه عن قرب، وأترك نفسي لاشتبك مثلها في الشبكة الكثيفة لصوته وفي الملقاط المفتوح لنظرته، تلكما العينان المتأهبتان اللتان تقلبان في الذاكرة دائمًا في اتجاهين متعارضين.

## ٢

والآن فإن هذه المدينة والأيام التي تولد فيها تتسم بضوء عابر وبمسحة هادئة: قد تقولين إن إعصار الحياة يمر بعيدًا عن هنا، بعيدًا عن فراشك، وأنه قد نسيك. لكن ليس هذا حقيقيًا. فحتمًا وسواء شئت أم أبيت، بسعار أكثر وعلى نحو أبقى من المرض الذي يضايقك الآن، سوف يعديك العالم بحمَّاه وبأوهامه وعليك أن تتعلمي العيش معها، مثلما فعل كيم وأصدقاؤه.

في ذلك الحين، كان ما يدفع هؤلاء الرجال الذين طرحوا تغيير العالم، ما كان يحفزهم على الحياة الخطرة، مضحين بالأمن وبإعزاز عائلتهم وبتقديرهم لأنفسهم في حالات كثيرة، كان بضعة أشياء لم تعد اليوم تهم أحدًا وسرعان ما سوف تُنسى. وربما كان ذلك أفضل؛ فالنسيان، في نهاية المطاف، هو استراتيجية للعيش. لكن الحاصل أن كيم، فضلاً عن همومه المعتادة، لا يكف عن التفكير في طفلته العزيزة ويتمنى أن يراها بصحة وسعادة.

كل ما أقصه عليكما سمعته من فم كيم نفسه خلال أمسية ممطرة قضيناها معًا نشرب البيرة في مقهى صغير بشارع ست تروبادور[1]، في تولوز، عشية عودته النهائية إلى شنغهاي وعودتي إلى برشلونة. وإذا كنت أخترع شيئًا، فإنها تفاصيلُ صغيرة لنقل أنها تتعلق بالجو وخربشات للذاكرة، أصداء ورنات معينة لا أستطيع تفسير من أين تأتي أو بدا لي أنني سمعتها بين طيات ما كان يحكيه لي، لكنني لا أضيف ولا أحذف شيئًا جوهريًا من حكايته، من مغامرته الغريبة التي ستحمله خلال أقل من خمسة عشر يومًا إلى الشرق الأقصى.

---

(١) rue de Sept Troubadours : التروبادور دور السبعة ـ م.

بعد أسبوع من تسليم كارمن والابن إلى دنيس، الذي بكى فرحًا عند رؤيتهما، يثير اعتقال نوالارت ورفاقه في برشلونة كل أنواع الشكوك في اللجنة المركزية فيسافر كيم إلى باريس للاجتماع بشيوعي اسباني يؤكد حصوله على معلومات سرية عما حدث. لكن تلك المعلومات تأتي من مصادر غير موثوقة كما تتسم بالجموع؛ فبين شطحات أخرى، يلمح التقرير إلى احتمال وشاية من جانبي في قيادة الشرطة الرئيسية في برشلونة مقابل عفو مفترض. كل هذا يسبب ضيقًا بالغًا لكيم، الذي يرفض تمامًا أي شبهة خيانة. وكان قد خرج ثائرًا من المؤتمر الأخير لنقابة الاتحاد القومي للعمل[1] في تولوز والآن يجد نفسه قانطًا وقد سئم كل شيء: سئم الأحقاد الأبدية للشيوعيين وعدم مساندته بسبب انتمائه الفوضوي، سئم أوامر لجنة الاتحاد التي تلغي مبادراته، سئم الانقسام بين مختلف تيارات الاتحاد القومي للعمل والصراع الذي لا ينتهي والذي يتساقط نتيجته أفضل الرفاق...

وعند الغروب يتمشى على ضفة السين متسائلاً ماذا يجب أن يصنع بحياته. فكأن السين هو تلك الرغبة الممتدة والغامضة في السعادة التي تفيض بجواره في صمت، والتي تصاحبه دومًا والتي تأتي اليوم طافحة ويبدو كأنها تريد نفي ذاكرته المنهكة، المشبعة بالعنف والموت. إلا أن هذه الرحلة إلى باريس لن تكون بلا طائل كما يظن، وسرعان ما سيجد نفسه قافزًا من نهر السين إلى نهر الهوانج - بو، واضعًا للمرة الأولى في حياته محيطًا هائلاً بين همومه السياسية المقاتلة وبين شوقه إلى إعادة إقامة نوع ما من الحياة الخاصة معك ومع أمك، أينما كان وفي أسرع وقت.

(١) الإتحاد القومى للعمل CNT : نقابة فوضوية - سنديكالية إسبانية - م.

لكن لنمض بالترتيب. إذ يحدث أنه في آخر أيام إقامته في العاصمة الفرنسية، في منزل أحد الرفاق، يتلقى من عيادة فوتران مكالمة تليفونية من ميشيل ليفي، وهو صديق فرنسي لم يره منذ ما قبل تحرير باريس بقليل. تحت الاسم المستعار كابتن كرواسيه، كان ليفي رئيس كيم في ليون حين كان الاثنان يناضلان في صفوف المقاومة. وفي مارس عام ١٩٤٣م، أثناء عملية تخريب ضد دورية ألمانية أنقذ الكابتن كرواسيه حياته ولن ينسى له كيم هذا الصنيع أبدًا. كانت لدى ليفي دوافع أكثر من كافية لكراهية النازيين وقد قاتلهم بحماس حقيقي. فأبوه واثنان من إخوته، الذين اعتقلتهم قوات العاصفة[1] بعد الحملة الكبرى لاعتقال اليهود في فل ديف[2] كانوا قد ماتوا في غرف الغاز في معسكر اعتقال تربلينكا ونجا بقية العائلة بالهرب من فرنسا. وانضم هو إلى المقاومة وقبل التحرير بقليل اعتقله الجستابو وعذبه، وبقيت من جراء ذلك عواقب بدنية ولا بد له الآن من إجراء عمليتين جراحيتين دقيقتين. يقرر كيم زيارته قبل العودة إلى تولوز.

عيادة خاصة على مشارف باريس. يستقبله رجل متهالك، مطروح على كرسي بعجلات، لكنه مرح ومبتسم. يتعانقان، ويتبادلان النكات والذكريات. ماذا تفعل في باريس، مون فييو؟[3] كما ترى، يقول كيم، ما زلت أفعل نفس الشيء، ما حيلتنا، في أسبانيا لم ننته بعد من تلك الطغمة... وبدأت أعتقد أننا لن نفلح أبدًا. أتيت إلى باريس دون رغبة ومن أجل لا شيء في النهاية، من أجل خناقة أخرى. لكنني الآن سعيد لأنني على هذا النحو استطعت أن أعانقك.

---

(١) الـ SS : قوات العاصفة. قوات خاصة نازية - م.

(٢) Veld'ttis.

(٣) mon vieux : يا صديقي العجوز. بالفرنسية في الأصل - م.

يتبين ليفي قنوطه العميق. لا تظن أن الأمور سارت معي على نحو أفضل، يقول له لكي يرفع معنوياته، يبدو أن النازيين قد أفلحوا أخيرًا في تحطيم عمودي الفقري وهانذا أمامك، لا يدري الأطباء ماذا يفعلون بي. ويحكي له تقلبات حظه منذ انتهت الحرب: فبعد إجراء العملية الأولى في العمود الفقري، انتقل إلى الشرق الأقصى ليشرف على بعض الأعمال العائلية المرتبطة بالتجارة البحرية. فليفي ينتمي إلى عائلة فرنسية ثرية جدًا، ذات علاقات راسخة في شنغهاي منذ سنوات طويلة وتمتلك عددًا من الشركات والتوكيلات: شركة الترام، وشركة ملاحية، ومصنع نسيج وعدة مطاعم. وقد وقع ليفي في حب شنغهاي منذ اللحظة الأولى وقرر البقاء، تولى إدارة الشركة الملاحية والمصنع ومنذ ستة أشهر تزوج فتاة صينية تدعى تشن جينج فانج، هي ابنة تاجر أفيون من تيانجين. إنه سعيد في زواجه، وأعماله تسير سيرًا حسنًا، ويملك سمعة قوية في الأوساط الجمركية والمصرفية لشنغهاي... لكن كل هذا الآن معلق بخيط رفيع. فقد ساءت حال عموده الفقري كما أنهم لا بد أن يزيلوا له جلطة في المخ، وهكذا فقد جاء إلى باريس ليضع نفسه بين يدي جراح أعصاب شهير. العملية الأولى تنطوي على مخاطرة، وإذا خرج منها سليمًا، فإن العملية الثانية الأخطر في انتظاره: في أفضل الأحوال، لن تقل إقامته هنا عن أربعة شهور. ولكي يجنب زوجته معاناة بلا طائل، لم يسمح لها بمرافقته. سيجرون له العملية خلال أسبوعين أو ثلاثة ولا يخشى أن يموت في غرفة العمليات؛ لكنه، في المقابل، يخشى على حياة تشن جينج فانج.

- لهذا، عندما علمت أنك في باريس، لم أتردد في مكالمتك. - يدفع ميشيل ليفي نفسه في كرسيه ذي العجلات مقتربًا أكثر من كيم وعلى وجهه علامات القلق - أود أن أطلب منك معروفًا، يا صديقي. معروفًا كبيرًا لا يمكن أن يصنعه لي سواك.

- اعتمد عليّ. بأي شيء يتعلق؟

- هل تتذكر كروجر، كولونيل الجستابو الذي عذبني في ليون؟

- كيف لا أتذكر ذلك المجرم.

- هل رأيته شخصيًا ذات مرة؟

- لا. في إحدى المناسبات أطلقنا الرشاشات على عربته الرسمية لكن ابن الحرام هرب على شعرة، بأن أقعى في المقعد الخلفي. بالكاد رأيت قبعته العسكرية.

- إنه في شنغهاي - يقول ليفي برقة، كأنه يود تخفيف الأثر السيء الذي يمكن أن يحدثه هذا الخبر في رفيقه القديم - هيلموت كروجر يسمى نفسه الآن عمر ما ينينجن ويدير ملهى ليليًا، هو يلوسكاي كلوب[1]، وبعض بيوت الدعارة. وقد جمعت معلومات عنه: هرب إلى أمريكا الجنوبية قبل نهاية الحرب، وعاش في الأرجنتين وتشيلي على تهريب السلاح ثم قفز إلى شنغهاي. إنه رجل معروف جدًا في الأوساط الليلية للمدينة وأقسم أنه في حماية منظمة من النازيين السابقين تهرب السلاح ولها ارتباطات بالكومنتانج.

---

(١) Yellow Sky Club.

أوضح لكيم أنهما قد تقابلا صدفة في حفل استقبال بالقنصلية الإنجليزية قبل يومين من رحيله إلى باريس وقد أصبح مسمرًا في هذا الكرسي ذي العجلات، وأنه قد تعرف عليه في الحال رغم الشعر المصبوغ، والشارب، والابتسامة الودودة. وأن كروجر كذلك قد عرفه، رغم تظاهره بأنه لا يرى سوى جينج فانج.

- في البداية فكرت في أن أبلغ عنه يهوديًا صائدًا للنازيين أعرفه في نيويورك - يقول المشلول - وقبل أقل من عام، حين كنت لا أزال سليمًا، كنت سأصفيه أنا شخصيًا... أما في حالتي هذه، فقد قررت الانتظار وتخطيط شيء مأمون عند عودتي، بعد إجراء الجراحة. لكن هنا في باريس هاجمتني فجأة كل أنواع المخاوف. فماذا لو بقيت متخشبًا فوق طاولة العمليات؟ لقد عرفني هذا الوحش الدموي، كما قلت لك، وفي اليوم التالي بعث لي شخصًا مجهولاً بهذا التهديد: إذا لم أمارس استراتيجية النسيان الحكيمة، فإن زوجتي وأنا سندفع الثمن في أقل الأيام توقعًا، هي أولاً. هل تعرف ما يعني ذلك؟

- هل تريدني أن أجهز عليه؟ - يقول كيم.

- أريد قبل كل شيء الحماية لزوجتي. لكن الأفضل طبعًا أن نقطع عرقًا ونسيل دمًا.

- موافق.

- سيكون عليك أن تتصرف بمفردك - يقول ليفي - لا يجب حتى أن تتحدث في الأمر مع جينج فانج، بل أن تحميها فقط. أنصت، يا صديقي العزيز - يميل نحو كيم من كرسيه المتحرك ويمسك بذراعه. ويلاحظ كيم

تقلص أصابعه ـ. لو حدث شيء لجينج فانج، لفضلت ألا أخرج حيًا من هذه العيادة. فأنا ضائع بدونها... يبتسم خجلاً بعض الشيء ويضيف ـ: أتدري ماذا يعني اسمها بالصينية؟ جينج تعني الهدوء وفانج تعني النضارة... وهذا ما جلبته هذه المرأة الرائعة إلى حياتي.

ـ هدئ روعك ـ يقول له كِيم ـ سنتولى أمر ذلك الألماني اللعين.

ـ كنت أعرف أنك لن تخذلني.

سيعطي تعليمات لرجاله لكي يحصل كيم على كل ما هو ضروري في أسرع وقت. «لا يجب أن تفارق جينج فانج»، يضيف ليفي، «وهكذا فإنك ستقيم في المنزل، في أعلى ناطحة سحاب في البوند، أشهر شوارع الشرق كله». سيكلم زوجته تليفونيًا ويقول لها إن كيم بمثابة أخ بالنسبة له، وأنه سيذهب إلى شنغهاي... بحثًا عن عمل، مثلاً.

ـ ستكون موضع ترحيب ـ يقول ليفي ـ. لكنني لا أدري بعد كيف أقنع جينج فانج بضرورة أن تدعك تصاحبها في كل مرة تخرج فيها وحيدة أو بالليل... هذا دون أن أحدثها عن كروجر ولا عن تهديده، أتفهم ذلك؟، لأنني لا أريد إزعاجها. في النهاية، سأجد تفسيرًا مقنعًا.

يوافق كيم متفكرًا، ثم يبدي ملاحظة: مسألة السفر إلى مكان بعيد كهذا بحثًا عن عمل، قد يبدو بصراحة غريبًا بوصفه عذرًا، يقول، لكن، ماذا إذا كان حقيقيًا؟

ـ ماذا تقصد؟ ـ يقول ليفي.

ـ أقصد أن لا شيء يمكن أن يجعلني أكثر سعادة من العمل لديك في إحدى شركاتك. لن تكون قد نسيت أنني مهندس نسيج، رغم أنني لم

أمارس العمل أبدًا بسبب الحرب والمنفى... لكنني إلى جانبك لن أتأخر عن ملاحقة ما يجري.

يتفحص ميشيل ليفي وجهه في صمت.

- دون شك - يقول - لكن، هل خاب أملك هكذا في النضال؟

- أعتقد أن ساعة الإحالة على الاستيداع قد حانت. أن آخرين يمكن أن يقوموا بذلك أفضل مني. وأود أن أخرج من إسبانيا شخصًا أحبه كثيرًا وأن أقدم له مستقبلاً.

- أفهمك. لكن، في شنغهاي؟

- ولم لا؟ كلما كان أبعد، كلما كان أفضل.

يفرح ليفي ويؤكد له أن بإمكانه الاعتماد عليه، بالطبع. سيتحدثان في ذلك حين يعود وقد شفي إلى شنغهاي ويمكنهما الاحتفال بذلك.

- الأمر الأكثر إلحاحًا الآن هو كروجر - يضيف بصوت أصبح فجأة مشروخًا، منتقمًا - انتبه جيدًا، والأهم ألا تؤخذ على غرة، إنه صارم جدًا وليس لديه موانع من أي نوع. أكرر: يدعى عمر ماينينجن وهو مالك اليلوسكاي، النادي الليلي الأكثر حداثة والأكثر «شياكة» في شنغهاي. هناك يمكن أن تراه في أي ليلة...

ينصت كيم مشدودًا، ومبهورًا بالصوت المحطم والمسموم للبطل، المحطم مثل الجسد الذي يضمه والمسموم مثل ذاكرة الألم التي يبعثها ذلك الجسد. وغائبًا عن كل شيء إلا عن ذلك الصوت وذلك الألم، مخلصًا لوعد حميم بالصداقة والامتنان، فإنه يستعيد الآن بسرعة مشاهد عنف ومهانة لم يكن يود أن يستحضرها أبدًا ولا حتى من باب التضامن مع الضحايا، ولذا

لا يستطيع أن يرى العلامة المقعية عند قدميه، لكنني أنا أراها، نحن نراها: عقرب من النار يزحف في دوائر مشتركة المركز على البلاطات البيضاء اللامعة، مطوقًا الصديقين ومديرًا زبانه المرفوع من جانب لآخر، ذلك الظفر القرمزي المشتعل. قد تقولان لي، كيف يمكنك أن تعرف كل هذا ولم تكن موجودًا هناك؟ من أين تأتي بتلك التفاصيل عن الصوت المسموم والعقرب الناري؟ وماذا يفعل عقرب في وسط معقم ومشرق مثل حجرة عيادة فاخرة على مشارف باريس...؟ إذا كنتما ذات مرة قد راقبتما طويلاً غسقًا أحمر، منتظرين حتى النهاية لتريا كيف ينكفئ على نفسه الوميض الأخير الأشد رقة، كيف يعكس الضوء قبل أن يموت، فسوف تعرفان عم أتحدث.

حين يدفع ليفي عجلات الكرسي ليقترب من كيم، يسحق العقرب. لم يكن هو أيضًا قد رأى وميض ظفره المسموم، ويسأل بقلق:

- متى تكون جاهزًا للسفر؟

- حين تقول أنت، يا كابتن - يرد كيم دون تردد.

- سأتولى فورًا أمر التأشيرة والنقود. ستركب في مارسيليا سفينة شحن تابعة للشركة، القبطان صديقي وسوف يخصص لك قمرة جيدة... ستتساءل لماذا أجعلك تسافر في إحدى سفني وليس في طائرة، إن لم يكن لكي أوفر على نفسي بضع دولارات. بالطبع لا. السبب هو أنك، بالمناسبة، ستسدي لي صنيعًا آخر. السفينة هي نانتوكيت[1] وفي كابينة القطان يوجد شيء يخصني ويلزمني استعادته. إنه كتاب صيني لشخص يدعى لي يان، غلافه أصفر وبداخله رسوم جميلة كثيرة؛ ستعرفه كذلك لأن في صفحته

(١) Nantucket.

الأولى إهداء بحروف صينية مكتوب باليد بحبر أحمر، بجوار بقعة من أحمر الشفاه. أريدك أن تحصل على هذا الكتاب في تكتم، دون أن يشعر القبطان. ولا تسألني الآن عن السبب، فسوف أقصه عليك في شنغهاي... إذا خرجت سليمًا. هل أستطيع الاعتماد عليك، مون آمي؟[1].

ـ اعتبر الأمر منتهيًا.

ـ ماذا تحمل من متاع؟

ـ فرشاة الأسنان ومسدس براونينج بمقبض من الصدف.

يبتسم بطل المقاومة في كرسيه ذي العجلات.

ـ أرى أنك لم تفقد الشجاعة ولا المرح.

ـ بقي لي من الأولى أكثر من الثاني ـ يقول كيم.

ـ حسنًا. ستحتاج إلى ثياب ونقود. سأجعلهم يسلموك ثلاثة آلاف دولار وتستطيع في شنغهاي أن تشتري ما تشاء.

ـ ظننت أن اليابانيين قد نهبوها.

ـ على الإطلاق. في شنغهاي ستجد ما لا تجده هنا في باريس، أرخص وأفضل. وحين تصل إلى هناك، إذا احتجت المزيد من النقود أو أي شيء، لا تتردد في طلبه من شريكي، اسمه تشارلي وونج؛ سأعطيه التعليمات. لا أريد أن ينقصك شيء. اشتر ثيابًا جديدة ـ يبتسم ليفي، دون أن يتمكن من أن يمحو تمامًا انقباضة ألم من شفتيه ـ. يجب أن تكون وسيمًا لتصاحب جينج فانج، فهي جميلة جدًا... شيء أخير ـ يخرج من جيبه شيئًا ضئيلاً ونحاسيًا يريه لكيم في قبضة يده ـ. أترى هذا، يا رفيق؟ أتدري ما هو؟

---

(١) mon ami : يا صديقي، بالفرنسية ـ م.

ـ يبدو أنها طلقة مسدس تسعة مللي قصير.

ـ هي كذلك. إنها الطلقة التي غرسها الكولونيل كروجر في عمودي الفقري والتي مددتني في هذا الكرسي المتحرك. أريدك أن تضعها في فم هذا السفاح اللعين، بعد أن يموت.

يوافق كيم في صمت، محدقًا النظر في الطلقة كأنما ليقيس غضبها النائم والبارد في عش راحة اليد الوردي. لكنه الآن لا يفكر في ذلك، لا يقيس الخطر ولا الصعوبات، ولا يحسب المدى ولا المسار الملتوي للغضب الذي لا يكف والانتقام الذي لا يقبل التأجيل الذي سيرحل معه عبر بحار وقارات. إنه يفكر فيك، في هذا العش الآخر للوحشة الذي تتمددين فيه وفي كيفية إخراجك منه. كم مرة منذ ذلك اليوم، وقد صار على يقين من اجتماع الشمل في شنغهاي، تخيلك تتمشين باسمة وقد شفيت من الحمى تحت الأشجار الوارفة على ضفة نهر الهوانج ـ بو، متعلقة بذراعه وفي غاية الوسامة بدبابيس من اليشب تلتمع في شعرك ورداء من الحرير الأخضر، محبوك تمامًا ومفتوح من الجانبين، مثل الشابات الصينيات الأنيقات...

## ٣

كل خمسة عشر يومًا تقريبًا، كانت دونيا كونشا تمر بالبرج لأخذ التطريز الذي تشتغله السنيورة أنيتا وتكليفها بغيره من تصميم مشابه وسهل، عادة ما يكون مفارش صغيرة وقطعاً لوسط المائدة. واعتادت أن تحضر للمريضة قبضات من زهر البيلسان تغليها في الماء ثم تدلك لها صدرها وظهرها، وكانت تتبادل النكات مع فوركات وأحيانًا ما تساعد السنيورة أنيتا في أعمال المنزل لبعض الوقت. وعند منتصف مايو، حينما

انتشــرت الأزهـار الصـفـراء علي جـوانب جبـل بيـلادا، كان فينيتو تشـاكون وأخــوه يهبــطان من التـل بملء أذرع من الرتم[1] من أجل سوسـانا لتنثره هي على الفـراش. فقد كان الأصفر هو لونها المفضل، بعد الأخضر.

وكل خسمة عشر يومًا كذلك، في أيام الأربعاء، كان يزور سوسانا الدكتور بارجاو، وهو شخص في الستين سمين ومتجهم يسكن قرب حديقة جويل ويجوب الحي وجيوب جاكتته المخرومة مليئة بالحلوى يجرجر ساقيه كأنهما من رصاص. كان يحضر لسوسانا مجلات السينما ويمسك يدها، ويجلس إلى جانبها جاعلاً الفراش يغوص ويضع الترمومتر في فمها، وكان يعطيها سينيكول مذاباً في الماء ثم يغرس في وريدها حقنة كالسيوم عادة ما تصيبها بالاختناق والدوار. كان الدكتور بارجاو أصلع تمامًا، وربما لتعويض هذا النقص، كانت تخرج من أذنيه باقة مشعثة من الشعرات المحمرة التي تبدو كحلية زهرية. «كيف حال ذلك السعال، يا طفلتي؟ - ويقرص خدها المحموم - ارفعي القميص وأريني ظهرك. وماذا عن تلك الشرطات، ألا تريد أن تختفي تمامًا؟ سبعة وثلاثون وثماني شرطات، حسنًا، دائمًا ما ترتفع قليلاً في المساء، وفجأة يلصق أذنه المزهرة في ظهرها ليستمع إلى الرئة المتعفنة. وأحيانًا ما كان يحسِّن تقنية التسمع بمساعدة شلنين من الفضة: كان يضع واحدًا فوق صدر سوسانا وينقره بحافة الشلن الثاني بينما تلتقط أذنه فوق الظهر المقوس رنين التجويف؛ كان يغلق عينيه

(١) الرتَم retama و ginesta : عشبة شائعة في غرب أوروبا من فصيلة Cytisus تنمو في الأرض غير المزروعة ولها فروع دقيقة تحمل أوراقاً صغيرة وزهوراً صفراء - م.

ويزوم ويهمهم، كأن الرئة تحادثه. لكن حركاته الحادة كانت تخفي رقة حبيبة لا تظهر إلا حين يطل من عيني المريضة القلق من البلغم والرعب من الموت. فمثلاً، عند وضع السماعة على صدرها، كانت عينا سوسانا تصبحان فجأة مثبتتين في الفراغ بلا حيلة، أو تبحثان فزعتين عن عيني أمها أو عينيّ أنا؛ كانت تلك نظرة لا أستطيع تحملها، لكن الدكتور بارجاو يعرفها جيداً فكان يخبط المصدورة خبطة رقيقة على رأسها قائلاً: «أنت في خير حال وبارعة الجمال.».

بعدها كان يصر على نفس الشيء دائمًا: الراحة التامة والبفتيك الجيد، والبهجة، وأولاً البهجة. وكانت السنيورة أنيتا تبتسم وترد بلهجة مزاح أنها هي أيضًا تود كثيرًا لو كتب لها روشتة بكل هذا، وحينئذ كان الطبيب، بينما يرفع الترمومتر ويتأكد من تلك الشرطات الزائدة التي تلازم سوسانا، يصوب نظرة مختلسة متجهمة وساخرة تصعد ساقي عاملة التذاكر الشقراء المنتصبة بجوار الفراش وذراعاها مكتوفتان وقدح النبيذ في يدها، ورداؤها البنفسجي المفتوح تظهر بطانته التي تحتك بفخذيها وبطنها، حتى تصل إلى صدرها: «أنت لا تحتاجين لا إلى البفتيك ولا إلى المزيد من البهجة، يا أنيتا، فمن هنا يمكنني أن أرى كبدك المسعور... وأعضاء أخرى أمتنع عن ذكرها.» فكانت تضم متعجلة طيات الرداء وحتى العنق وتطلق ضحكتها المشبعة بالتبغ.

- ولا أريدك أن تدخني هنا - كان الدكتور بارجاو يضيف.

- منذا الذي يدخن هنا؟ - تقول السنيورة أنيتا -- أنا لا أفعل أبدًا.

- همم. أقول من باب الاحتياط.

كنت أنتهز فرصة هذه المناوشات، التي تتكرر كثيرًا ويبدو أنها تضايق سوسانا أكثر من يدي الطبيب الوقحتين فوق جسدها، لأتوقف عن طيب خاطر عن رسمي التعس، الذي كان يخرج من يدي مبططًا، دون منظور. لكن هذا لم يكن أسوأ ما في الأمر، فأسوأ ما في هذاالرسم اللعين أنه كان لا يوحي بشيء. كنت أضع في ذهني دخان المدخنة الأخضر المسود والمليء بالفقاقيع. فحسب كلام الكابتن كلاي، كان وجود هذه الفقاقيع السامة والمنفرة فوق فراش المسلولة أمرًا بالغ الأهمية، وحاسمًا. كان قد شرح لي ألف مرة كيف يدخل هذا الدخان رئة سوسانا ويغذي باسيللات كوخ، كيف يقرض الشعب الهوائية ويثقل على قلبها، لكنني كنت أقول لنفسي: أيمكن رسم ما لا يرى؟

كنت أعمل جالسًا على منضدة السرير، على بعد أمتار قليلة عن الفراش وقريبًا من المدفأة، وكان الركود الغريب للهواء حول المريضة والضحكة الأجشة لأمها، والميوعة الخفيفة لأبخرة الكافور، والإبرة في لحم سوسانا الأبيض ورائحة الكحول وشمس العصر الحمراء على الزجاج تبدو لي جميعًا وكأنها العناصر المرضية لجو فريد وخارج الزمن، مفعم بالحسية وبالميكروبات، لن أفلح أبدًا، كنت متأكدًا من هذا، في عكسه في الرسم. لم يكن هذا مجرد اقتناع، بل بالأحرى إحساسًا بدنيًا؛ في وسط هذا الجو الشبقي، المحمل دومًا بالروائح، والمذاق، والرطوبة، كان الجسد يطالب سرًا باهتمام أكبر ويطرح إيمائية متقلبة وعابرة.

خلال الزيارة الطبية، كان فوركات يبقى في غرفته. كان الدكتور بارجاو يعرف ذلك وأعتقد أنه كان أحيانًا يطيل فحص المريضة لمجرد

الفضول والرغبة في معرفته، لكن الضيف لم يظهر حتى الزيارة الرابعة أو الخامسة وحدث ذلك بطريقة غير متوقعة؛ فقد دخل إلى القاعة حين كان الدكتور يضع السماعة في حقيبته وطلب منه أن يكتب لسوسانا شيئًا ضد الأرق. «لا يوجد شيء فعّال ضد ذلك - أجاب الدكتور بارجاو، وبعد أن لاحظه من فوق لتحت أضاف ببعض الفظاظة -: إلا الرغبة في النعاس. فلتشرب الكثير من اللبن.» لكن لم يكن ليفوته القلق المخلص الذي تعكسه سحنة هذا الرجل المهندم والمتصلب، وإعزازه للطفلة، فحين قدمته السنيورة أنيتا على الفور على أنه «صديق عزيز لزوجي يقضي بضعة أيام معنا»، أبدى تجاهه صراحة وودًا أكبر.

- لا تظن أن مسألة اللبن هذه دعابة - قال مبتسمًا -. كانت لدي مريضة بالأرق، في نفس سن سوسانا، وقد شفيتها على أساس كوب من اللبن الساخن كل ليلة عندما تأوى إلى فراشها ... مع المواعظ الإذاعية للأب لابورو، بالطبع.

أطلق قهقهة فابتسم فوركات، رغم أنني أعتقد أنه لم يعرف جيدًا من كان ذلك الواعظ. أحست سوسانا بالدوار فاصطحبتها أمها إلى الحمام، وظل الاثنان برهة يتحدثان، أو بالأصح، تحدث الدكتور بارجاو واكتفى فوركات بالإنصات بانتباه إلى نصائحه الخاصة بأوجه الرعاية التي تحتاجها المريضة، ترتيلة من النصائح كنا نحفظها أنا والسنيورة أنيتا عن ظهر قلب وتتلخص جميعها في نصيحة واحدة: يجب رفع معنوياتها، حفز رغبتها في الأكل وفي الحياة، والباقي سيأتي من تلقاء ذاته.

كان الدكتور بارجاو على علم بجولاتنا أنا والكابتن لجمع التوقيعات، ورغم أنه أثنى على المبادرة، فإنه لم يتردد في وصفها بأنها عمل جبان مثير

للضحك، واعتقد نفس الشيء بالنسبة لرسم سوسانا الذي يجب أن يحرج العمدة. وفي زيارته الأخيرة، لاحظ رسمي وربت على ظهري بحماس.

ـ والغاز، يا فتى؟ ـ داعبني ـ. بأي لون سترسم الغاز؟

ـ الغاز لا يُرى ـ غمغمت.

ـ بجد؟ هل قال لك ذلك المأفون بلاي؟ مرحى، مرحى.

كذلك لم تكفّ سوسانا عن السخرية من الكابتن، ومن المدخنة وانبعاثاتها السامة. وبينما أرسمها، اعتادت أن تنظر إليّ سادّةً أنفها كأنها لا تستطيع احتمال الرائحة الكريهة وتتظاهر بالإغماء فجأة ونصف جسدها متدل على جانب الفراش في الهواء. لم توافق أبدًا على خط واحد من هذا الرسم وصنعت المستحيل لتثبيطي وجعلي أتخلى عنه، وأبدأ في الآخر.

ـ عليّ أولاً أن أنهي هذا وأرى كيف يبدو ـ قلت ـ. ألا تفهمين أن الفراش والقاعة وكل ما يوجد هنا، بما في ذلك القط والمدخنة والغاز، سيكون هو هو في الرسمين؟ أنت فقط ستكونين مختلفة: ستكونين قد شفيت.

في الحقيقة، كنت أؤخر الرسم عامدًا. فقد كان يمكنني الانتهاء منه، جيدًا كان أم سيئًا، خلال أسبوعين، إذا عملت باجتهاد، لكن كان يروقني أن أبقى مع سوسانا أطول وقت ممكن. ولذا كنت أمزق ورقًا كثيرًا وأكرر كل شيء تقريبًا المرة تلو المرة، الفراش، والزجاج، والقط القماش، والدخان الأسود، وقبل كل شيء، هي، المصدورة المسكينة التي تتنفس بصعوبة في فراش الألم، كما كان يود أن يراها الكابتن. كانت لدي بالتأكيد صعوبات في إظهار التفاصيل وإقامة العلاقات بين الأجزاء ـ الرأس الساقط للمريضة

فوق الوسادة وتهديد المدخنة في الخلفية، كأنها ستسقط فوقها، وتجانس المصاريع الزجاجية والشخبطة السوداء للمدفأة ـ لكنني لو أردت، لكنت انتهيت منه قبل ذلك بكثير.

## ٤

بلغ الكابتن بلاي الجانب المشمس من الشارع، وضع قدمه فوق حافة الرصيف واستدار لينظر إليّ وذراعاه خلف حقويه، دون أن يترنح. في بعض الحانات كانوا يثقون به وفي بعض الأيام كان يفرط في الشراب ويتلعثم لسانه، لكنني لم أره يترنح أبدًا.

ـ إقترب وشم ـ قال مشيرًا إلى البالوعة ـ. الناس لا يريدون أن يعرفوا شيئًا ويتجاهلون الأمر تمامًا، لكن لا بد أن هنا بالداخل مئة ألف مليون جرذ ميت على الأقل، ونحو دستة من الهياكل العظمية من عمال صيانة البالوعات...

أخبرني بالتفصيل عما تحت الأرض المظلم لبرشلونة وأكد أن كل شبكة المجاري والأنفاق تحت الأرضية أصبحت تحتوي على كم من الغاز المتراكم، الناشئ كله عن تسرب ميدان روبيرا، بحيث أن شرارة صغيرة تقفز من عجلة ترام إلى داخل إحدى البالوعات يمكنها أن تجعل المدينة برمتها تتطاير في الهواء بمينائها وحاجز أمواجها، وجبل مونتجويك والرملة[١] الدائمة المرح والقريبة من النفس.

ـ إنه استفزاز بالغ الوضوح ـ قال دون أن يرفع عينيه عن البالوعة ـ. ولن يفيد عدم الرغبة في معرفة الأمر أو الإنتماء للنظام.

---

(١) Ramblas : ممشى رئيسى فى بعض المدن الإسبانية يناظر ساحات الرملة والرميلة فى المدن الغربية ـ م.

ولكي أغير الموضوع الوسواسي والكثير التكرار، سألت الكابتن عن عدد سنوات عمره فقال ضعف عمر فرانكو ومن أنجبته، أو بالأحرى مائتان وواحد وسبعون عامًا، حسب حساباته.

- خذ، أمسك هذه - وأعطاني الحافظة بالتوقيعات، وفك لباسه وشرع في التبول بهدوء داخل البلاعة .. كذلك لا يجب الإشفاق على الموتى كثيرًا، فهم لا يعرفون أنهم موتى.

- مرة أخرى، لا، من فضلك - تضرعت .. لا تفعل بي هذا في الشارع، يا كابتن.

- كذلك لا يجب افتراض - واصل دون أدنى اهتمام بي - أن المرء يجب أن يكون في حال بالغة السوء في العالم الآخر، أعتقد، لأن الرجوع إلى هنا، الرجوع بكل معاني الكلمة، الرجوع لمواصلة ابتلاع العصيدة والخراء مع نفس المرأة وتحت نفس الراية، لا أحد قد عاد على حد علمي، لا أحد - وهز قطعة الجلد الداكنة مثل تينة وأعادها إلى لباسه .. كلما أعدته بعد التبول، أفكر فيما قاله ذلك الجنرال عندما سل سيفه، لكنني لا أتذكر أبدًا أي لعنة قال بالضبط...

كنت ثائرًا لأنني في هذا المساء لم أستطع دخول البرج؛ فحين وصلت رأيت شيش القاعة مغلقًا وقال لي فوركات عند الباب إن سوسانا لديها حمى وإنها الآن نائمة، ومن الأفضل عدم مضايقتها، وعليّ أن أعود غدًا. كان يمسك قدحًا من الشيكوريا(١) في يد وفي الأخرى كتابًا مفتوحًا يسنده إلى صدره، وأحسست من جديد بتلك الرائحة النباتية التي تحوطه. ومن ثم عدت إلى المنزل،

---

(١) الشيكوريا achicoria : الهندباء، نبتة ذات أوراق خشنة قابلة للأكل. أحد استخداماتها أن يتم بها غشُّ القهوة - م.

وأثناء صعودي السلم، شاء حظي العاثر أن أصادف الكابتن. طلب مني أن أصحبه، وقال إنهم وعدوه ببعض التوقيعات في *لاترابيسيرا*، وأنه لا يريد الذهاب وحده. كان ذلك كذبة أو أنه حلم به؛ اكتشفت أن الكابتن في المساء يكون أكثر جنونًا بكثير منه في الصباح. جعلني أقطع لاترابيسيرا من ثرينيا حتى تورينت دي لويا، طارقًا في الذهاب أبواب الرصيف ذات الأرقام الزوجية وفي العودة الأرقام الفردية. إلاّ أن التوقيع الوحيد الذي نجحنا في الحصول عليه كان في حانة ومن اليد الملوثة بالزفت لماسح أحذية عجوز مخمور.

وفي طريق العودة إلى المنزل، عند الغروب، حين كنا نعبر ميدان جوانيك، انقطع رباط المطاط الذى كان يربط إحدى فردتى شبشب الكابتن فجلس على مقعد، وأخرج من جيبه رباطًا لفه حول قدمه. بعدها بقليل، غير بعيد عن معسكر الحرس المدني، رأينا عند الناصية رجلاً قصيرًا بمعطف طويل أسود ضيق جدًا، كان رجلاً مرعوبًا. وقف يحك نعل الحذاء في حافة الرصيف بطريقة متكررة ووسواسية، كأنه قد داس على براز كلب. وفجأة انطلقت ذراعه اليمنى ووقف يحيي في الاتجاه المعاكس لنا ونظرته مثبتة فيما لا ندريه، حتى وصلنا إلى جانبه: كان عابر سبيل آخر يماثله في الخبل ومحني الرأس متصلبًا في نفس الوضع عند الناصية الأخرى، على بعد مائة متر، يحيي بدوره احترامًا أو بعدوى الخوف ناصية المربع السكني التالي، حيث كان يرى، مثل لعبة مرايا تبعث وهمًا بصريًا، رجل ثالث بعيد في وضع التحية كان نسخة من الاثنين الآخرين؛ ساكنًا مثلهما فوق الرصيف ووجهه للجدار، كان هو من يسمع خطبة عسكرية أو ربما نغمات النشيد الوطني: فقد كان أقربهم إلى المعسكر.

- «واخد بالك؟» - غرس الكابتن كوعه في ضلوعي -. الغاز قضى عليهم. دخل في دمهم وشل أعصابهم. ها هم أولاء، مغروسين كالأعمدة، سممهم الغاز بصورة بائسة في الطريق العام.

- لا، يا كابتن - قلت، متسلحًا بالصبر - لا بد أنهم ينكسون الراية في ذلك المعسكر، رغم أننا من هنا لا نسمع شيئًا...

لم ينصت إليّ. بيديه خلف ظهره، أخذ يدور حول الرجل ذي المعطف الأسود الواقف على الحافة متخذًا وضع التحية.

- ماذا جرى لك، أيها الرجل الطيب؟ - تساءل ناظرًا إليه بفضول -. أتحاول حضرتك أن تجعلنا نصدق أنك ترتجف مثل شرنقة على إيقاع النشيد الوطني المجيد، أم ماذا؟ هل يبدو لك جميلاً أن تسخر هكذا من وضعنا المستحيل؟ حضرتك قد تسممت بالغاز تمامًا، يا سيدي، ومن العبث أن تخفي ذلك.

دون الإخلال بالتحية الامبراطورية ودون أن يغيب عن بصره المحيي الآخر الذي يمثل له مرجعًا للمحاكاة عند الناصية التالية، التقط الرجل الضئيل بطرف عينه المرعوبة الرأس المعصوب والمظهر الغريب لمن يستجوبه وبدا أن رجفة تجتاحه: كان هذا أسوأ مما توقعت، فيما أظن. كان وجه المحيي الخائف سقيمًا، ورائحته كريهة وفي فتحتي أنفه سدادات قطنية، مثل الموتى.

- حذار - همهم بصوت لايبين - حذار.

- فات الوقت - قال الكابتن -. إنك قد أصبحت مستعدًا. وأفضل ما يمكن عمله أن تموت.

وجه إليه الرجل نظرة مختلسة قلقة أخرى.

- هل حضرتك رجل إعلانات أو شيء من هذا القبيل...؟ إذا كنت فسر ودعني في هدوء، لو سمحت. ألا تفهم؟ - تضرع -. أنهم ينكسون الراية في مكان ما...

- أي راية؟ - قال الكابتن.

- أي راية ستكون رايتنا.

- ألست حضرتك رعديدًا بعض الشيء لتتوقف وتحيي راية لا تراها؟ وماذا لو لم تكن رايتنا؟ أم أن الأمر بالنسبة لك مثلما هو بالنسبة لي، أن كل الرايات تمثل لك نفس الشيء، أعني، خراء؟

- إصمت، إصمت.

- لا أريد.

- ألا تفهم حضرتك أنني أفعل هذا من باب الحيطة...؟ لا يمكن أن تعرف أبدًا. انظر، ذلك السيد هناك يفعل نفس الشيء.

- حمقى. ما يجب أن يقلقك حقًا هو أن هذه البالوعة تبصق السم. - غمغم الكابتن لعنة ونظر إليّ - أترى، يا دانييل؟ يمضي المرء في الشارع في هدوء، مفكرًا في أموره، ويتوقف لحظة بجوار بالوعة ليحيي صديقًا أو لينظر إلى طائرة تمر في السماء ثم، هوب!، ضاع، كابوت[1] - راقب عن قرب اليد المرفوعة، ذات الأظافر الطويلة السوداء والجلد الأصفر، التي حرقها التبغ، ثم واجه الرجل على الفور وفحص عيون الفأر، والأنين الشاحبتين وهلال اللعاب النباتي الذي يطفح من جانبي فمه -. لنر، أيمكن أن أعاونك في شيء؟

(١) Caput : مُحرّفة عن الألمانية وتعني لا يصلُح أو لا فائدة منه - م.

- هيا ابتعد، أيها المأفون، لا تشغلني - زام الرجل، وهو يزداد انحناءً وانكماشًا، كأنه يخشى أن يتلقى ضربة من أعلى، لكن ذراعه ما زال مشهرًا.

أما الكابتن، بالمقابل، فلم تكن تؤثر فيه أدنى تأثير الحركة المتعجلة في الشارع ولا النظرات العابرة للمارين. كنت منذ برهة أجذب أطراف معطفه لكي أمضي به، حين وضع يده على كتف ضحيته العزلاء:

- حسنًا، أتدري ما أحب أن أقول لك؟ إنك تبدو شخصًا مهذبًا، إذا وضعنا في الاعتبار ما يجري هنا... ولهذا، ماذا نفعل بوقوفنا متصلبين؟ لماذا لا نذهب لتناول بعض كؤوس الخمر، هيه؟

في نفس هذه اللحظة، لا بد أن المحيي الآخر البعيد قد انتبه إلى أن الثالث والأكثر بعدًا عنا، والذي لم نكن نكاد نراه لأن الظلام كان يهبط، قد خفض ذراعه، لأنه سرعان ما خفض ذراعه، وعبر الشارع محنيًا ودلف في أحد الأبواب. وعند رؤيته، ترك رجلنا الضئيل ذراعه تسقط بدورها، وقد استرد أنفاسه، وهمهم قائلاً الوداع في داهية، أيها الجد، أنت رجل خرف، ورفع ياقة معطفه وانزلق باتجاه ممر سان خوان ملتصقًا بالجدران.

- الشيطان البائس، يستحق ما يجري له - علق الكابتن والآخر يبتعد - هل دققت في أسنانه الفاسدة وأذنيه الشفافتين؟ الغاز، هذا الوحش الكاسر لا يرحم!

# الفصل الخامس

## ١

وهكذا، ذات يوم لن ينساه أبدًا بالتأكيد، ذات أحد مشمس في أوائل الصيف، دون أن يودع أحدًا ودون أن يسلم أمره لا للرب ولا للشيطان، يرحل كيم في القطار إلى مرسيليا وهناك يركب الـ نانتوكيت، وهي سفينة شحن عتيقة تابعة للشركة الملاحية فرانس - أوريان تبحر بعلم بنمي كان قبطانها، وهو رجل أنيق ومتحفظ من كانتون يدعى سوتزو، قدتلقى من ليفي تعليمات بشأن مسافره الوحيد والطارئ.

كانت النانتوكيت تنقل أسمدة وأدوات لمختلف أنحاء البحر الأحمر والمحيط الهندي، وشحنة من الكونياك والأنبذة الفرنسية متجهة إلى سنغافورة وقطع غيار لورش شركة ليفي نفسه في شنغهاي. أما القبطان سوتزو، الذي يتحدث فرنسية هادئة وموسيقية، فيعتبر كيم ضيفًا خاصًا ويوليه كل أنواع الرعاية؛ يضع تحت تصرفه خادمًا ليقدم له الوجبات في قمرته، ويسوي فراشه، ويغسل ثيابه ويزوده بالويسكي والسجائر الأمريكية. وعلى عكس ما كان كيم يتوقع، لا يبدي القبطان سو تزو أدنى اهتمام بمعرفة السبب في أن مسافره الغريب اختار السفر إلى شنغهاي في سفينة

شحن بينما في استطاعته عمل ذلك على نحو أسرع وأكثر راحة بوسائل أخرى. وبعد ساعات من الإقلاع، يريان الليل يسقط فوق سترومبولي بينما يتحادثان بود في برج مقدمة السفينة. ولن يتأخرا في اكتشاف ولعهما المتبادل بالشطرنج وكل ليلة يلعبان دورًا طويلاً في كابينة القبطان.

وسو تزو في الثامنة والثلاثين وهو صيني طويل، ملامحه لا تكاد تكون شرقية أما أناقته وإيماءاته فغربية تمامًا؛ ولا ينم عن أصله الكانتوني إلا جفنيه الحزينين البطيئين، ونظرته المستغرقة وفمه الحسي. وقد ترك تكتمه ولباقته، حتى في معاملة البحارة، أثرًا عميقًا في نفس كيم، ربما لأن هذا كان قد ترك لتوه في فرنسا عش عقارب، ذلك التوتر وذلك العنف الدفين للمنفيين الإسبان وهم يتجادلون في اجتماعات لا تنتهي.

تعبر النانتوكيت المتوسط دون جديد، مع توقف في محطات في تونس وفي بور سعيد قبل أن تخترق قناة السويس إلى البحر الأحمر مباشرة، حتى تبلغ خليج عدن. تتوقف في محطة قصيرة في جيبوتي وتواصل اتجاهها نحو المحيط الهندي محاذية لسيلان، تدخل مضيق ملقا مواجهة لفحات عنيفة من الريح تتجاوز السبعين عقدة وعواصف من حبات الثلج والمطر، وتظهر سنغافورة ذات غروب ذي حرارة خانقة. وبعد يومين، تاركة عن يمينها شواطئ بورنيو، تبحر النانتوكيت صوب الشمال، وقد أصبح البحر هادئًا، وتتوغل أخيرًا في بحار الصين وفي ليالٍ دافئة ومرصعة بالنجوم، مناسبة لأحلام اليقظة وللشطرنج.

تبحر سفينة الشحن العتيقة بطيئة وثقيلة. ويُبدى مؤخرها المتهالك، ببقع الصدأ والشحم، هيئة بائسة ملتحية وشائخة إزاء الفضول الكسول

للمسافرين المكتئبين لعابرة الأطلنطي التي تتقابل معها. لكن، هل وقفتما أبدًا في مقدمة سفينة في ضوء القمر، ولوحتي في سفينة شحن بائسة مثل هذه، والمرفق متكئ على الحاجز ونسيم البحر يضرب وجهيكما، قادرين على رؤية ما هو أكثر بكثير من مرآة هائلة من المياه المفضضة تحت الليل المرصع بالنجوم، ما هو أكثر بكثير من المحيط ومن الليل...؟ لو كنتما ذات مرة قد أحببتما الأفق، فسوف تعرفان ما أحدثكما عنه.

كذلك يتأمل مسافر النانتوكيت المؤرق الزبد الذي يرسم مروحة حول غاطس السفينة فاتحًا لها طريقًا ضد الأمواج، بينما تحاول ذاكرته المسكونة بالمخاوف وومضات الرصاص استعادة الكلمات البسيطة لأغنية رومانسية أزهرت في قلوبنا خلال الحرب، أغنية قديمة ربطته إلى الأبد بهذه المدينة، وبأمك، وبالأصدقاء. وبعدها، بينما يدخن سيجارة متكئًا على شرفة الميمنة، يستشعر على بعد الشاطئ الآسيوي خطًا متعرجًا من الأضواء والعطر المشتهى لحياة جديدة. لكنه مرة أخرى لا يلتقط علامة القدر على هيئة سحابة سوداء تهبط ببطء فوق السفينة وتهدد بأن تلفها. كانت سفينة الشحن قد خلفت وراءها منذ قليل جزر أندونيسيا، والبحر هادئ وما من مؤشرات على قرب هبوب عاصفة، لكن ستارة مظلمة سقطت في سكون حاجبة الليل المرصع بالنجوم. الأمر، كما يقول القبطان سو تزو، هو سحابة مسممة بشكل خفيف ظلت تتبع النانتوكيت مثل كلب منذ عدة أيام، ولم يلاحظها المسيو فرانش، إذا سمح لي بقول هذا، يضيف سو تزو بابتسامة، لأنه ولا مرة واحدة، منذ ركب في مرسيليا، ولا مرة واحدة، نظر إلى الوراء.

- مضت عليّ سنوات أطول مما يجب وأنا أنظر إلى الوراء، يا قبطان.
يقول كيم وهو يرد على ابتسامته.. وأنا مقتنع بأن ذلك ليس شيئًا حسنًا.

- ربما كنت سيادتك على حق - يقول سو تزو بلهجته الكانتونية القوية ويمسحة حزن - لكن هذا الخادم المتواضع، بالمقابل، إذا لم ينظر إلى الوراء كثيرًا، لن يمكنه التقدم إلى الأمام. وأرجوك أن تغفر لي هذه الصراحة، مسيو.

هذه الظلمة الكثيفة، التي انتهت بأن لفت السفينة تمامًا، ربما تكون قد تكونت عند سواحل الصومال، عند الطرف الغربي للمحيط الهندي، يشرح له سو تزو.

- غدًا ستكون قد تبددت دون أن تترك أثرًا، وبصرف النظر عن الرائحة المائعة غير المستحبة والحرقان الخفيف الذي تحدثه في العين وفي الحلق، فإنها مؤذية للروح أكثر مما هي للجسم - ثم يردف القبطان بابتسامة ملغزة: بعض البحارة الشديدو التطير من ماليزيا يعتقدون أنهم يرون في تلك السحابة إنذارًا بخيانة.

ينهي كيم سيجارته بسرعة، ويطوح بها من فوق الحاجز وينظر محدقًا في عيني الصيني. يقول: -

- وهل تعتقد ذلك أنت أيضًا، يا قبطان؟

- إن ما يعتقده خادم أو لا يعتقده لا يهم كثيرًا، مسيو. ألا تظن أن الحرارة خانقة هنا على السطح...؟ أقترح عليك دور شطرنج بجوار المروحة في كابينتي.

ينتظر كيم بضع ثوان ثم يقول: -

- هل أستطيع أن أوجه إليك سؤالاً ربما كان وقحًا، يا قبطان سو؟ هل علاقتك بالمسيو ليفي، رئيسك، علاقة صداقة أم مجرد علاقة عمل؟

فجأة، يبدو القبطان أكثر اهتمامًا بالتقاط خلل ما في ضجيج المحركات الذي يتصاعد من أحشاء السفينة منه بالسؤال غير اللائق لكيم: وخلال برهة يظل ينصت ويفسر طنين الآلات الرتيب الأصم بتعبير غير راض، وأخيرًا يدير عينيه إلى المسافر.

- أتعرف حضرتك أن هذه السفينة العجوز تعاني من الربو؟ - يقول مستعيدًا ابتسامته الودية .. حسنًا. ماذا تقول عن دور الشطرنج؟

- اتفقنا. سأمنحك فرصة أخرى.

منذ عدة أيام، يأمل كيم في الاستيلاء على الكتاب ذي الغلاف الأصفر الذي يريد ليفي استعادته. لا الكلمات المراوغة ولا السلوك الغريب للقبطان سو تزو، ولا هذه السحابة التي يفترض أنها مشبعة بعطن الخيانة، ستفلح في إضعاف عزيمته التي ألقت مرساتها بثبات في المستقبل، ولا بالطبع في إحداث أدنى تغيير في اتجاه النانتوكيت.

تستمر الرحلة دون أحداث وذات صباح يستيقظ كيم في سريره سابحًا في العرق؛ ويشير ترمومتر قمرته إلى أربعين درجة. تتوقف السفينة في سايجون لتحميل حمولة من الأرز والشاي بالياسمين ثم تقلع من جديد باتجاه هونج كونج، حيث تفلح المساعي الحميدة للقبطان سو تزو في الحصول لكيم على تأشيرة تتيح له دخول الصين الوطنية. بعدها تبحر النانتوكيت عبر بحر الصين الجنوبي وبعد عبور مضيق فورموزا تبدأ المرحلة الأخيرة التي ستقودها صباح ٢٧ يوليو إلى إلقاء المرساة في نهر الهوانج - بو.

لكن قبل ذلك اليوم، حين كانت السفينة تسير بمحاذاة سواحل تايوان، تتاح لكيم دون توقع فرصة الاستيلاء على كتاب ليفي. الليلة رطبة وحارة وتنذر بالعاصفة. وقد أنهى سو تزو وضيفه دور شطرنج ويغادران الكابينة ليدخنا سيجارة متكئين على الحاجز، وناظرين كيف تقترب الأمطار والبروق من الشمال الغربي؛ حينئذ يظهر الضابط الثاني ويطلب القبطان في صالة الآلات لأمر عاجل: فقد اشتبك بحاران من الملايو في عراك بالسكاكين له عواقب خطيرة. يستأذن سو تزو ويذهب، في نفس اللحظة التي يبدأ فيها في السقوط وابل من المطر فيلتجئ كيم من جديد إلى كابينة القبطان. لا يمكن أن توجد فرصة أفضل من هذه. يمر ببصره على كعوب الكتب في المكتب. لا يضيء النور ويكتفي بالضوء الخافت لفانوس خارجي يدخل من الكوة. يرى على الرف كتابين بغلاف أصفر، والكتاب الأول الذي يفتحه - على غير إرادته تقريبًا، بل بفعل اهتزاز مفاجئ للسفينة - ليس هو ما يبحث عنه، ليس كتابًا صينيًا، بل يونانيًا وكتاب أشعار. ومن جديد فإن العلامة التي لا يود الاعتراف بها، علامة تغير في الاتجاه، علامة انعطاف جديد يطرحه عليه القدر، تقفز أمام عينيه من الصفحات المفتوحة عشوائيًا، مستحوذة على انتباهه. خلال نصف دقيقة، يرن في أعصابه الطنين الأصم للآلات في أحشاء النانتوكيت ويجعله يفكر في القبطان سو تزو، في دماثته الغريبة وفي فترات صمته البليغة، ودون أن يدري لماذا، يستشعر في ذلك النبض الدفين والرتيب لسفينة الشحن المتهالكة الفرار المكتمل للزمن، الصدى الأخير للأمل المتقلقل الذي قاده حتى هنا، وسط الريح والأمواج الثائرة، ليضع بين يديه كتابًا مفتوحًا على الصفحة ٧٧ بفعل ضربة غير متوقعة من البحر أكثر مما هو بفعل إرادته الخاصة.

ولو كنا هناك في هذه اللحظة، أيها الشابان، لو استطعنا أن نتسلل خلسة إلى كابينة القبطان ونبقى إلى جانب كيم نشاركه الظلال والبروق تحت طنين الإعصار، لكان الفضول قد دفعنا إلى إلقاء نظرة من فوق كتفه، ولكنا، خلال نصف دقيقة بالكاد، خلال لحظة بالغة القصر وأبدية رغم ذلك في قلب الزمن والبشر، قد استطعنا معًا أن نتبين ما وضعه الحظ بين يديه تلك الليلة :ـ

تقول: «سأمضي إلى أراض أخرى، إلى بحار أخرى.
سأبحث عن مدينة أفضل من هذه
التي لم تثمر فيها جهودي أبدًا،
المقبرة الباردة لمشاعري.
إلى متى ستظل روحي في هذا التيه؟
أينما تلفتُّ، لا أرى
سوى الأطلال السوداء لحياتي،
زمن مستهلك ألقيته هنا إلى النفايات.»
لا توجد من أجلك أراض أخرى، ولا بحار أخرى.
ستمضي هذه المدينة معك أينما ذهبت.
ستجوب دومًا نفس الشوارع. ستشيخ
في نفس الحي البائس. ستشيب
في نفس الدار.
أبدًا لن تغادر هذه المدينة. فما من أخرى من أجلك،
ولا سفن ولا دروب تخلصك منها.

فلم تُضيِّع حياتك هنا فحسب :
بل حطمتها في كل مكان[1].

بطيئة ومائلة، كأنها تقطر وراءها تحت المطر فتاتًا من صدئها والذاكرة الميتة لإبحارات أخرى، خطوط عرض أخرى أكثر اعتدالاً، تبحر النانتوكيت العتيقة صوب شنغهاي.

## ٢

ـ إذا أرغمتماني على أكل كل هذا، فسوف أتقيأ هنا مباشرة فوق الفراش! ـ صرخت سوسانا.

لكونها طريحة كل هذا الوقت ومدللة هكذا من أمها في كل حين، كانت قد تعلمت ممارسة استبداد ناعم ومتقلب تطبقه الآن ضد فوركات وضد الوجبات المحترمة التي يعدها لها، الصينية المرعبة بالنسبة لها بكوب الحليب الضخم، والبيضة المسلوقة وقطع الخبز المحمص بالمربى.

ـ كلي البيضة على الأقل ـ قال فوركات ـ. سأقشرها لك، انظري.

ـ لا أريد المزيد من البيض. لقد سئمت البيض المسلوق!

كانت مناقشة كل يوم وظللت أنا مندهشًا بعض الشيء وأنا أنظر إلى الرقة النادرة لجبهتها التي يؤطرها الشعر الأسود، وفمها شبه المفتوح والمشرئب دائمًا، وامتلاء واكتمال الشفة العليا، فوبختني : ـ

ـ وأنت إلى ماذا تنظر، يا ولد؟!

ـ أتفضليه نيئًا في كوب من نبيذ ملقا؟

---

(١) القصيدة هي «المدينة»، لكونستانتين كفافي، في ترجمة حُرة وغير منشورة حتى الآن لآنخل جونثالث Ángel González ـ ملاحظة المؤلف.

اقترح فوركات ـ. أم تريدين أن أصنع لك عجة رائعة بالخرشوف أو الباذنجان؟

ـ خراء، خراء! لا أريد شيئًا!

ـ أنت تعرفين ما يقول الطبيب ـ أصر ـ. بيض كثير ولبن كثير... لبن كِتيل وبيد كِتيل، على رأي الأخوين تشاكون. يابنوته، كلي كتيل عسان تبقي حلوة، وسمينة، وأمُّوله...

غالبًا ما كان فوركات ينجح في جعلها تبتسم في النهاية، لكن ليس دائمًا في جعلها تأكل. جالسًا على الفراش بجوار الصينية، تابعت أصابعه المبقعة الجلد تقشير البيضة بينما هو يطرح بصبر جميع أنواع الحجج لإقناع سوسانا بأنها يجب أن تأكل.

المرة الأولى التي توقفت فيها عند يدي فوركات بفضول حقيقي لم تكن فقط لأن جلده ذا الألوان المتباينة يجذبني، بل لأنه كان، بطريقة لم تفاجئني بمعنى من المعاني، رغم اتضاح أنها خطأ فيما بعد، يضعهما بصورة متدفقة فوق ركبتي السنيورة أنيتا. كانت ظهيرة يوم أحد، وكنت بصحبة سوسانا وفي طريقي للذهاب لأن لدي موعدًا مع فينيتو لنصعد معًا إلى حديقة جويل بحثًا عن أوراق كافور للقدر ولنحضر بالمرة عشبة الرتم لتزيين القاعة. وفي الردهة، وأنا أمر أمام الباب المفتوح لغرفة نوم السنيورة أنيتا، رأيتهما بجوار المنضدة الليلية الصغيرة، فوركات جالسًا على كرسي وهي على حافة الفراش، حافية وساقاها متقاطعتان ظاهرتان من الرداء المفتوح، ويداه فوق الركبة الموضوعة فوق الأخرى. لم يتسع لي الوقت لأدقق، لكن حتى في هذه اللمحة الأولى والخاطفة لاحظت شيئًا في مظهر الاثنين لا

يتفق مع ما كنت أتخيله منذ بعض الوقت: فاليدان الضارعتان لفوركات لم يبد أنهما بالضبط يدا رجل يربت على ركبتين بديعتين، وكذلك سلوك السنيورة أنيتا، التي كانت تسوي أظافرها بمبرد، غير مبالية تمامًا بما تفعله اليدان، لم يبد أنه سلوك امرأة تستسلم للتربيت. لكن الانطباع كان مفرط السرعة. ظننت أنهما لم يرياني وواصلت طريقي، حين استوقفني صوتها :ـ

ـ دانييل، يا جميل، هل ستذهب الآن؟

ـ نعم، يا سنيورة.

ـ تعال لحظة، ممكن؟

رجعت حتى عتبة غرفة النوم. كانت الركبتان تلمعان لمعانًا خفيفًا في الغبش، وكانت يدا فوركات قد تباعدتا قليلاً وعادتا إليهما الآن بضراعة هادئة، بحماس غريب. ظننت أنني شممت في الغرفة رائحة خرشوف نيء دون أن يبرر هذا الإحساس شيء على الإطلاق. سألتني السنيورة أنيتا هل ما زال الأخوان تشاكون في الشارع، فقلت لها إنهما في انتظاري وعندئذ طلبت مني أن نصنع معروفًا بأن نحضر بعض الكافور، فقد نفد من عندها، فرددت أن سوسانا قد أخبرتني وأننا ذاهبون بالضبط إلى حديقة جويل لهذا الغرض.

ـ دانييل والأسود ـ ابتسمت لي بالغة الرضى ـ. لا أدري ماذا كنت أفعل بدونك.

لاحظت أن يدي فوركات لم تكونا في الحقيقة توشكان على لمس ركبة السنيورة أنيتا، فكأنه بتلك الإيماءة يود على الأرجح أن يحميها من شيء، من الضوء أو من الهواء أو من يدري؛ أو كأنما نفس اليدين الحاميتين،

البائستين، تبحثان عن نوع من الراحة بجوار الركبة العارية. وعلى أية حال، ومهما كان غرضها، فإن تلك الأيدي لم يبد أنها أداة أي تربيتة، ولو كانت كذلك، لكان معناها بالنسبة لي شيئًا جديدًا ومقلقًا، فلم تكن حتى تلمس الجلد. منحنيًا في كرسيه ومستغرقًا، واضعًا في مهمته أقصى انتباه، لم يدر فوركات عينيه نحوي ولا مرة واحدة. بلغت إلى حد التشوش بعض الشيء: فلم يكن ذلك ليتفق مع بعض المشاهد الملتهبة التي عبرت في خيالي، وكذلك في خيال المريضة بالتأكيد، أكثر من مرة، حين كان الاثنان يتركاننا أنا وسوسانا وحيدين في القاعة. بدا ذلك - كما شعرت في ذلك الحين بالميل إلى التفكير - شيئًا أسوأ.

- آه، وبالمرة أحضر لي ثلجًا ببيسيته ودمجانة خمر - أضافت -. الدمجانة والنقود على مائدة الطعام.

- سأتركها في الحانة وأستعيدها عند العودة.

- أنت ملاك، يا دانييل - وأدارت عينيها نحو فوركات دون أن تكف عن برد أظافرها -. أليس صحيحًا أن هذا الصبي كنز؟

لم يقل فوركات شيئًا. وحين هممت بالذهاب وضعت السنيورة أنيتا ركبتها بجوار الأخرى لكنه ظل يغطي نفس الركبة، اليسرى، بكلتا يديه صبورًا ومستغرقًا بحيث بدا مثل سنان سكاكين منكب على عمله اليدوي المتواضع، الذي ظللت بعدها بأيام أتساءل ماذا يكون، أهي تربيتة فريدة أم لعبة أم طقس سري، أم ربما كان ذلك كله دفعة واحدة.

هذا الأحد لم تذهب أم سوسانا إلى الموندِيال، فقد اتفقت مع عاملة التذاكر على تبديل فترة العمل وأصبح المساء حرًا بالنسبة لها. وحوالي

الخامسة، حين كنا سوسانا وأنا ننتظر فوركات في القاعة، سمعنا طرقعة كعب حذاء متعجل.

- سوسانيتا، سنخرج لبرهة - دخلت السنيورة أنيتا وقد شدت حول وسطها الحزام الأبيض العريض الذي يجعلها بالغة الرشاقة. وكانت ترتدي فستانًا أنيقًا مطبوعًا بأزرار بيضاء من أعلى إلى أسفل، وحذاءً أبيض بكعب عالٍ وعقدًا من المرجان،، تتباهى بجورب رقيق ذي خياطة عريضة، وكانت قد لونت شفتيها وتبدو جميلة جدًا بشعرها الأشقر المجعد. ظللت بعض الوقت مذهولاً أنظر إليها فابتسمت لي -: هل ستبقى في صحبة طفلتي حتى نعود؟

- نعم، يا سنيورة.

- إلى أين تذهبين؟ - قالت سوسانا.

- سأتمشى في الرملة والميناء، فيما أظن.

- وحدك؟

- طبعًا لا. مع السنيور فوركات.

- مع السنيور فوركات؟ وماذا عنا؟

- آه، آسفة جدًا. هذا المساء سيكرسه لي.

قبّلت الابنة، ومضت عبر الردهة وسرعان ما رأيناها تعبر بوابة الحديقة بصحبة فوركات، الذي كان يخفي عينيه خلف نظارة الشمس ويرتدي بذلة مهلهلة وثقيلة لا بد أنها تشعره بالحر. تعلقت السنيورة أنيتا بذراعه، ومستديرة بحيوية لتنظر من فوق كتفها، رفعت ساقها من الخلف وباليد الأخرى عدلت خياطة الجورب، ضاحكة. ساكنًا، وكيسًا، ووقورًا بعض الشيء، ترك فوركات لها ذراعه منتظرًا أن تفرغ من هذه اللمسة الأخيرة.

خلف زجاج القاعة، انطلقت سوسانا في الضحك وقالت إنهما يشكلان أكثر رفيقين رأتهما في حياتها إثارة للسخرية وقدمًا في مظهرهما.

كانت المرة الأولى التي يخرجان فيها إلى الشارع معًا. ولم يظهر الأخوان تشاكون طيلة المساء. احتضنت سوسانا قطها، متفكرة، وطلبت مني أن أذهب لأحضر قلم أحمر شفاه ذا غطاء مفضض من حمام أمها. وحين أحضرته طوحت القط القماش، ورفعت الغطاء وجلست على ركبتيها قافزة فوق الفراش، وكشفت لي أسنانها وهي تمسك قلم أحمر الشفاه بكلتا يديها ورأيت كيف أن فمها، الذي أصبح فجأة فم بالغة بعد اللمسات الأولى، كان يزداد اشتعالاً مع كل جرة قوية لقلم أحدر الشفاه. بعدها خفضت صوت الراديو، وعادت فدخلت بين الملاءات ونعست، وتعبت أنا من الرسم ومن التأمل دون الحصول إلا على القلق وعلى شيء لا طعم له فشرعت ألعب الورق وحدي على المنضدة الليلية الصغيرة.

عاد فوركات والسنيورة أنيتا عند حلول الليل وبديا شديدي المرح، ولم توبخ سوسانا لرؤية تلك الطبقة السميكة من أحمر الشفاه بلون الكريز على شفتيها، لكنها فحصت منديلها لترى إن كان يحتوي على أي بصاق، ثم ذهبت لتغير ثوبها وعادت بقدح نبيذ جرعته دفعة واحدة، ملأته من جديد وحملته إلى غرفتها مع وسادة التطريز. وفي هذه الأثناء، في المطبخ، كان فوركات يعد شيئًا للعشاء. وبعد برهة قصيرة ظهر في القاعة مبتسمًا، يداه في كمي الكيمونو الواسعين، وقال بغموض مقصود في صوت خفيض:

ـ سوسانا، خمني ماذا أحضرت لك.

ـ زجاجة كولونيا. لا، أيس كريم بالليمون.

جلس فوركات على الفراش.

- في الميناء زرنا سفينة بريد فرنسية كلها أبيض في أبيض، جميلة جدًا - قال -. القبطان صديق لي ولوالدك. وبينما كان أحد ضباط السفينة يطلع أمك على صالة الاحتفالات، أعطاني القبطان هذا لك.

- القبطان سو تزو؟ - سألت سوسانا.

- لا. قبطان آخر - ابتسم فوركات -: قبطاننا سو تزو يبحر قريبًا من سواحل تايوان. أتذكرين؟

- نعم... ما هذا؟

- افتحيه وستعرفين.

كان ظرفًا بنيًا دون أختام مكتوبًا عليه، بخط جعل عيني المريضة تضيئان فجأة، اسم سوسانا. وداخله بطاقة بريد تبدو فيها باجودا[1] صينية قديمة تتكون ألوانها من الأصفر، والأحمر، والأسود. وكان ظهرها يحمل الخط الدقيق والعصبي لكيم:

عزيزتي سوسانا، احفظي حلمك حيًا. حين أكتب لك هذه البطاقة، ستكون الساعة في برشلونة هي السادسة مساءً وهنا في شنغهاي الواحدة فجرًا. سيسعدني أن تفكري فيّ كل يوم، في تمام السادسة مساءً، وسأفكر فيك أنا أيضًا هنا في نفس هذه اللحظة. ألا يبدو لك ذلك مسليًا؟ هكذا، ستتحد أفكارنا عبر بحار وقارات انتظارًا لليوم الذي سيمكننا فيه أن نتمشى سويًا

(١) Pagoda : تعني في الفارسية والهندية بيت الإله. والمقصود معبد من معابد الشرق الأقصى على هيئة برج أو هرم كل طابق من طوابقه له سقف مائل تتجه أطرافه إلى أعلى - م.

في حديقة الأفراح. تذكري: في السادسة. تخيلي أباك جالسًا في هذه الساعة على منصة بار السيلك هات، أشيك كاباريه في شنغهاي، وفي يده قدح من الشمبانيا وهو يستمع إلى أغنية كانت تروق لأمك جدًا. ويشرب نخبك. أنا ما زلت متخفيًا في هذه المدينة الرائعة - لأسباب سأحكيها لك ذات يوم -، ولذا فإنني مؤقتًا أفضل ألا تكتبي لي. خذي ألف قبلة وكلي كثيرًا لكي تشفين سريعًا. أن مياس! (تعني بالصينية: أحلام سعيدة). أبوك الذي يحبك، كيم.

٣

رغبت سوسانا في خريطة جيدة لتتبع مسار النانتوكيت وذات يوم ظهر الأخوان تشاكون في البرج ومعهما أطلس جديد بشوكه، لم يستطيعا تفسير مصدره. فطلبت مني أن أرسم بقلم أحمر خط سير السفينة فوق الأزرق الغامق للبحر، من مرسيليا حتى شنغهاي، بعرض لوحتين ومتوقفًا في أهم موانئ المتوسط، والمحيط الهندي وبحار الصين. بعدها عرفنا أن فينيتو قد سرق الأطلس من تلميذ أعطاه حقيبته ليبقيها معه بينما يبحث هو عن أمه في سوق الباعة الجائلين، فألزمت سوسانا فينيتو بأن يعيد الأطلس؛ لكنه قبل أن يفعل قال أن هذه خسارة واقترح انتزاع اللوحتين اللتين تحملان طريق النانتوكيت. فكرت سوسانا في الأمر وأخيرًا قالت لا، أن الصبي سينتبه إلى أن هناك أوراقًا ناقصة، وحينئذ اقترحت أن أنسخ أنا لها المسار على ورق رسم، بالسواحل، والمدن، والجزر مستخدمًا ألوانًا

مختلفة. فعلت واحتفظت سوسانا بالخريطة في درج منضدتها الليلية الصغيرة مع برامج السينما والقصاصات، وفرشاة الشعر، ومرآة اليد وطلاء الأظافر العاجي.

وحين أرينا فوركات الخريطة، نبهني إلى خطأ مشيرًا أمام أنفي إلى الشاطئ الغربي للهند بإصبعه الطويل المبقع: فلم تكن النانتوكيت قد توقفت في بومباي. أوقعني قرب الإصبع ورائحته الشديدة الخصوصية في الحيرة من جديد : هذه المرة جعلني أفكر في النضارة اللاذعة لأوراق التين.

بعدها، حين توقف إلى جانبي ليلقي نظرة على الشخبطات التي تحاول تمثيل سوسانا في فراشها، أتيحت لي الفرصة لملاحظة يديه عن قرب شديد وخلال برهة طويلة، بينما يتحدث إلي : -

- لماذا لا تجرب إبراز الفراش، قبل أي شيء؟ أحقًا تحب الرسم، يا دانييل؟ أم أنك تفعله لإرضاء بلاي المخرف؟ - وأردف خافضًا صوته -: هل هذا ما تحب أن تكونه عندما تكبر، رسام؟

شجعتني ابتسامته الخفيفة على إيلائه الثقة.

- لا أدري... أكثر ما أحبه - قلت بسذاجة - هو أن أصبح عازف بيانو.

ندمت في الحال على أنني قلت ذلك، خجلاً من فكرة أن يستطيع تخمين مزاجي الرومانسي، انبهاري المشوش بصور معينة مليئة بالظلال لأنطون والبروك[١] وهو يعزف على البيانو كونشرتو وارسو وسط وميض القصف المدفعي والأضواء الكاشفة للطائرات.

---

(١) Anton Walbrook.

- عازف بيانو؟ مرحى، هذا رائع! - ظل فوركات لبرهة منتبهًا لحماقات قلمي وراني أتعذب المرة بعد الأخرى لأرسم غطاء السرير السماوي، المتدلي قليلاً من الفراش لأنه بدا لي أنه سيحقق على هذا النحو نوعًا من التأثير الجمالي؛ لكن الطيات ظلت تستعصي عليّ، وظللت بعناد أحاول نسخها من الواقع. وفجأة انتزعت يده مني القلم، وبخطوط بالغة السرعة وبسلاسة مذهلة، أظهر أمام عيني طيات طويلة ورائعة لا تشبه الأصل كثيرًا، لكنها أكسبت غطاء السرير في الرسم رشاقة موحية وملمسًا واقعيًا ومقنعًا بدرجة لم أكن قد تخيلتها أبدًا.

من المؤكد أن هذه كانت المرة الأولى والأخيرة التي رأيناه فيها يستعرض مهاراته مع القلم. دغدغني ومضى إلى المطبخ ليصنع لنفسه كوبًا من الشيكوريا وليعد وجبة سوسانا، لكن يده وهي تمسك بالقلم ظلت لبرهة طويلة أمام عيني على مسافة قريبة جدًا بحيث أحسست في وجهي بالتدفق الدافئ لدمه، بالنبض في عروقه النافرة الداكنة. والشيء الأهم هو أن الرائحة الناعمة للخرشوف التي التقطتها في غرفة نوم السينورة أنيتا قد تأكدت تمامًا؛ وفي الحقيقة، فإنني لم أنتبه أبدًا لرائحة الخرشوف النيء، ولا حتى أعرف إن كانت تلك الرائحة قوية، ومميزة، ولا تقبل الخلط بما يكفي لتمييزها عن غيرها من الروائح، وبالطبع فإنني لا أدري السبب في أن هاتين اليدين الوسيمتين لكن بجلد شديد العطب كانتا توحيان لي برائحة الخرشوف. الأمر يتعلق باقتناع متكيس في الذكرى، بولاء معين لحديقة الطفولة الخاصة بي. والمؤكد أن ثمة جوانب عديدة من شخصية ذلك الرجل ومن سلوكي إزاءه لم أعرف أبدًا كيف أفسرها لنفسي. فلم أعرف طوال حياتي أحدًا قادرًا على إثارة كل هذه التوقعات، وكل ذلك التواطؤ والرقة

تجاه أشكال شديدة التنوع من الإيحاء بمجرد وضع يده على كتفك والنظر في عينيك. وفور أن التقطت تلك الرائحة التي لا يمكنني تحديدها إلا على نحو بالغ الهشاشة، وعارض ومخلص، فإن اليد التي كانت تحرك القلم أمام أنفي بكل هذا الاقتدار كانت تبعث إليّ كذلك حرارة هادئة ومتصلة، تبعث فيضها الغريب، موجات رقيقة من احتراق نباتي بدا أنه يتغذى على نفس الجلد المبقع؛ كأنه عرَّض يده لفوره لحرارة المدفأة.

وفي وقت لاحق، مضطجعة بين كوم الوسائد وصوت الراديو بالغ الارتفاع، بدا أن سوسانا قد نعست وعلى حجرها مجلة مفتوحة، بجوار غصن الرتم الكبير الذي أحضره فينيتو وخوان في الصباح. كان العصر مشمسًا تهب فيه رياح شديدة، وفي الحديقة أخذت أغصان الصفصافة المشعثة تضرب الزجاج فانتهى الأمر بسوسانا إلى الاستيقاظ وتمددت جالسة في الفراش. كان علينا أن ننتظر فوركات وفي هذه الأثناء أخذت أتسلى بأن أبرز دون أنني اقتناع المدخنة الكلية الوجود ودخانها السام، الظل الشرير الذي يتهدد المريضة والذي كان عليه أن يثير تعاطف السلطات، وفق التوقعات المتفائلة للكابتن بلاي، وحين نفد صبرنا أنا وهي لأن فوركات قد تأخر هذا المساء في أعماله وبالتالي في إكمال حكايته، أصبحنا شاهدين على شيء لا أدري إن كنت أصيفه بأنه معجزة صغيرة أم بأنه خفة يد عادية.

فقد حدث أن عاد ضيف السنيورة أنيتا من المطبخ حاملاً بشكل احتفالي الصينية وعليها وجبة سوسانا. بحركات متمهلة ومحسوبة، ملتفًا في الكيمونو الحريري، وضع الصينية على الفراش وجلس إلى جوار سوسانا. مغمغمة ودون رغبة كحالها دائمًا واجهت الصبية الكوب الضخم من لبن البقر وساندويتش الخبز بالطماطم ولحم الخنزير، مغلوبة على أمرها

سلفًا. في هذه اللحظات كنت أشفق عليها حقًا؛ ففي الصباح كانا يجعلانها تبتلع كوبًا من لبن البقر أكبر من هذا وساندوتشًا ضخمًا آخر. والحقيقة أن شرائح الخبز بالطماطم كانت تبدو دائمًا بمظهر رائع وتصرخ قائلة كلوني، وكان فوركات يعدها بتدليل وهو خبير في هذه الأمور، أستطيع قول هذا لأنني دُعيت أكثر من مرة للأكل مع سوسانا؛ لكنها كانت بصورة لا تتغير تستقبل الصينية بتكشيرة قرف، كما أنها اليوم بدت بالغة التعب وأكثر قابلية للانزعاج من المعتاد، تتنفس بصعوبة وتنزلق بين الحين والحين في نعاس قلق. لم ترد أن تأكل ولا حتى جربت اللبن، رغم ضراعات فوركات. ظلت الصينية على الفراش وتفرغت سوسانا لتمشيط شعرها بالفرشاة، لكنها تركتها على الفور وبدأت تفتش في الراديو عن إذاعة أخرى تبث موسيقى. وجالساً على حافة الفراش، عاود فوركات الهجوم :

- إذا لم تأكلي، فلن تعرفي أبدًا كيف وصل أبوك إلى شنغهاي ولا لماذا طلب منه صديقه ليفي أن يسرق له كتابًا...

- لماذا طلب منه ذلك؟

- لن تتصوري. ستندهشين.

غضت سوسانا بصرها، متجهمةً. فكرت برهة ثم قالت:

- لماذا لم يأت إلى هنا أولاً، لنذهب سويًا؟ حينئذ كنت لا أزال قادرة على السفر رغم مرضي...

- لم تكوني تستطيعين. وقد انطلق هو في مهمة خاصة جدًا وخطيرة. كان عليه أن يذهب وحده.

- لم أسافر أبدًا في سفينة، لكن من المؤكد أنني لا أصاب بدوار البحر... مؤكد.

ـ سأحكي لك الباقي لو شربت اللبن وجربت أن تأكلي على شريحة خبز واحدة على الأقل، واحدة فقط. فلحم الخنزير غال جدًا وأمك لا تنال النقود هدية. هيا، كوني بنتًا طيبة...

حسنًا، بناقص حكاية ـ قاطعته سوسانا ـ أريد فقط أن أعرف شيئًا واحدًا.

ـ ماذا.

ـ هل أبي طويل؟

ـ ألا تتذكرين؟

ـ تلك الليلة التي جاء ليراني فيها كان مقرفصًا...

ـ كيم أميل إلى الطول.

ـ ماذا كان يلبس حين صعد إلى السفينة التي حملته إلى شنغهاي؟

أخفى فوركات يديه في كمي الكيمونو وأمال رأسه مبتسمًا:

ـ آها، يا بنية، هذا لا ينفع. ها هما شيئان تريدين معرفتهما. ويجب أن تدفعي. قضمة أو رشفة لبن، اختاري ـ واستدار نحوي ـ ألا تظن أنها يجب أن تدفع إذا أرادت إشباع فضولها، يا داني؟

ـ طبعًا ـ قلت ـ ستصبح بدينة جدًا، لكن فلتدفع. نعم، فلتدفع.

ـ اخرس أنت، يا أبا بربور، لنر إن كنت ستنتهي من هذا الرسم الخرا!

أمسكت المقص وشهرته نحوي، لكنها هدأت على الفور وشرعت تقص صورة من المجلة تظهر فيها جودي جارلاند[1] وهي تمضي في الطريق ذي البلاطات الصفراء. ثم ألقت المقص فوق الفراش، ونظرت إلى فوركات بعينين ثائرتين وصرخت : ـ

---

(١) Judy Garland.

ـ لا يهمني في شيء ذلك المركب المقرف ومن يسافرون فيه! هل تفترض أنني مجنونة بكل ما يتعلق بأبي؟! أتظن أننا لا نستطيع أن نعيش بدونه في هذا المنزل، هيه؟! ـ لم يقل فوركات شيئًا فأضافت ـ: بالنسبة لي لم يعد يهمني أن يمضي إلى حيث شاء، في سفينة، أو في طائرة، أو حتى على عوامة[1] فلست أحتاجه في شيء.

ـ اهدئي ـ قال هو ـ لماذا تتصرفين هكذا؟ أنت في العادة فتاة حلوة ومطيعة...

ـ لا أريد أن أكون فتاة حلوة ومطيعة، اللعنة على الفتيات الحلوات والمطيعات، أتفهم؟

ـ مفهوم.

صمتت سوسانا برهة، وأخذت تربت على قطها القماش ثم قالت : ـ

ـ وهل ذهبت إلى أماكن كثيرة مع أبي؟ وإلى شنغهاي أيضًا.

ـ ذهبت إلى هناك قبله بكثير. فقد كنت في شبابي طباخًا في سفينة وسافرت كثيرًا. وأعرف المدينة كراحة يدي.

نظرت سوسانا إليّ ثم نظرت إلى الصينية وفوقها الوجبة.

ـ إذا كنت لا تصدقينني ـ قال فوركات ـ اسألي أمك.

ـ لقد فعلت ـ غمغمت هي، وأردفت وقد أغلقت عينيها ـ : لكن اللبن والتغذية الزائدة تلك التي يقول عنها الدكتور بارجاو يمكن أن تضعها في مؤخرتك. فلو بلعت هذا الساندوتش، سأتقيأ، تصور.

(١) patinete : لعبة تصنع من لوح خشبى بعجلتين أو ثلاث ومقبض للتوجيه، كوضع القدم على اللوح وتدفعه القدم الأخرى بالضغط على الأرض إلى الوراء وباليدين يتم التحكم فى التجاه ـ م.

- لا تقولي حماقات. ستتقيئين ذات يوم في سفينة، نعم، و
أرى ذلك... إشربي اللبن على الأقل، بينما أحكي لك شيئًا سيثير
احتضنت سوسانا القط ولم تقل شيئًا، نظرت بإمعان إ
العاجية، وعدلت الوسادة خلف ظهرها وبعدها، بعدم رغبة و
شديد، مدت ذراعها وأمسكت بكوب اللبن. لكن اللبن كان قد
الكوب من جديد بتقطيبة لا أدري إن كانت غضبًا أم ارتياحًا.

- برررر... اللبن البارد يقرفني لأقصى حد.

- لنر.

عندئذ حدث. أمسك فوركات بالكوب وظل يحيطه بكلتا
شديدة، كأنه يخشى أن يتركه يسقط لكنه لا يريد في نفس الوقت
- كأن الكوب، على نقيض ما قالته سوسانا، يلسع - وظل ه
لدقيقتين أو ثلاث. تذكرت يداه وهما تحيطان بركبتي السنيورة
الحماس ونفس التركيز في الإيماءة، ونفس التوتر في جسده.

حين أعاد الكوب إلى سوسانا، كان اللبن ساخنًا. لم تصمد
ولا أنا أيضًا، حتى لمست الكوب. لقد خُدِعت مرات عديدة في حي
أقسم بأمي أنني لم أنخدع ذلك المساء: فقد وضعنا سوسانا وأ
في اللبن وتأكدنا من أنه يغلي كأنه قد رفع من على النار لتوه.

٤

كنا، على ما أذكر، في كابينة القبطان سو تزو في اللحظة
فيها كيم إلى الرف الكتاب ذا الغلاف الأصفر الذي ليس هو ما :
ويفتح الآخر ويرى في داخله التصاوير البديعة التي ذكرها له ليقي

انقشعت العاصفة وتبتعد سريعًا إلى ميمنة السفينة، تصفو السماء وتلتمع النجوم من جديد. يميل كيم إلى الكوة لمزيد من الضوء ويتصفح الكتاب؛ كما قال له ليفي بالضبط، في الصفحة الأولى، بجانب إهداء شخصي بالحبر الأحمر والحروف الصينية، ثمة بقعة من أحمر الشفاه. تمنعه الظلمة الخفيفة من رؤية البقعة بوضوح، لكنه يعرف أن الكتاب الذي في يديه هو ما يبحث عنه. عندئذ يعتقد أنه يسمع ضجة خلف ظهره ويتلفت؛ لا يرى أحدًا. باب الكابينة، الموارب، يخبط في إطاره بشكل متقطع، وعلى الجانب الآخر من الكوة، حَيث يختلج البحر برقة تحت ضوء القمر مثل جفن هائل مفضض، يتلاشى ظل متسلل.

يعود إلى قمرته بالكتاب وبعد قليل، مستلقيًا في سريره، يفتحه من جديد ويلاحظ بصمة أحمر الشفاه بمزيد من الانتباه. ليست بقعة واحدة في الحقيقة، بل اثنتين: إنها علامة شفتين نسائيتين، الطبعة المكتملة لفم ملون أودع هنا قبلة قرمزية، إلى جوار الإهداء والتوقيع. إلى من أهديت هذه القبلة، إلى ميشيل ليفي أم إلى القبطان سو تزو، وربما لا إلى هذا ولا إلى ذلك...؟ تبدو الشفاه باسمة وممتلئة، مفتوحة قليلاً ومحفورة، وكأنها تبرز من العدم، شبحية ومثيرة للهواجس. أما القوة والكمال النادر للطبعة فينقلان الحياة المكثفة والمشتعلة، الفورة واللهب الذي أشعل الفم خلال لحظة قصيرة ونقشه الفم في الصفحة، بنفس الطريقة التي ينقشه بها الآن في ذاكرة كيم: شبحيًا وذابلاً، طافرًا من سديم الورق الشاحب مثل جرح.

يلف الكتاب في بلوفر صوفي ويحفظه في حقيبته. يقول كيم إن بقية الرحلة عبر بحر الصين الجنوبي بدت له لا نهائية. وعند غروب الشمس،

ولكي يتسلى، يقيس في ساعته امتداد الغسق الساكن ليكتشف أنه يمتد لفترة تكاد تفوق الليل نفسه، ليختلط بالفجر. وخلال عدة أيام تهب ريح شرقية تلهب الجلد. وفي آخر ليلة على سطح السفينة، يدعوه القبطان سو تزو للعشاء في كابينته فيجده كيم أكثر تحفظًا من المعتاد، رغم أنه مهذب وودود كحاله دائمًا.

في الثامنة من صباح اليوم التالي تلمح النانتوكيت خليج هانججو وبعد قليل من الصعود في المياه الطينية والمنهكة لنهر الهوانج - بو تستعد للرسو في المرفأ مارة بين حشد من اللنشات والصنادل، من الصيادين والسفن الشراعية الصينية. وأمام سيارة باكار سوداء لامعة واقفة على المرسى، يقف آسيوي قصير وممتلئ في بذلة لا تشوبها شائبة منتظرًا كيم: إنه تشارلي وونج، شريك ليفي، وهو هجين فرنسي وهندي - صيني مبتسم وممتلئ بالحيوية كان قد أنهى إجراءات الجمارك قبل أن يهبط كيم من السفينة. وبينما هو متكئ على الحاجز منتظرًا انتهاء مناورة الرسو، تلتقط آذاننا لأول مرة الطنين الهائل لشنغهاي ولا يكاد كيم يصدق ما تراه عيناه. فتحت سماء داكنة الزرقة، يحف صف من ناطحات السحاب الفخمة بالمدينة الأسطورية.

- إنني شديد الامتنان لرعايتك - يودع القبطان سو تزو ويمد له يده - ربما أتيحت لنا الفرصة للإلتقاء مرة أخرى، يا قبطان، وعندها سيمكنني أن أشرح لك بعض الأشياء.

يبتسم سو تزو بأدب وينحني.

- الأصدقاء الجيدون كذابون سيئون - يقول - مثلما في شعر لي يان: فإن أشياء معينة تتبدى دون الحاجة إلى تسميتها.

- أنا مقتنع بهذا. يقولون إن الكذب يمكن أحيانًا أن يكون شكلاً من الاحترام. لقد تشرفت بمعرفتك، يا قبطان.

- حظًا سعيدًا، مسيو.

- أتمنى لك نفس الشيء.

في قلب الحركة المحمومة والنداءات المنغمة في المراسي، وقبل ثوان من ركوب السيارة التي جاءت لتحمله، يشعر كيم أنه واقع في أحبولة واحدة من تلك اللحظات السحرية التي يستشعر فيها القلب أشياء لا يصل العقل إلى فهمها، وفجأة يجتاحه يقين : إن ما ينتظره هنا وما يلتقطه هو في الهواء، ما ينضح من النهر الزنخ الرائحة ويطفو في الجو الرطب والخانق لشنغهاي، ليس ما جاء يبحث عنه، ليس اكتمال ثأر أو تسوية حسابات مع التاريخ، ليس الطلقة الصائبة التي يستحقها مجرم ولا التعاطف مع الصديق المقعد، ولا حتى اللهفة أو الأمل في إحضار سوسانا هنا ذات يوم ليس ببعيد، بل شيء أشد عمقًا ويائس بصورة خفية: إنه الرغبة غير المعترف بها، التوق المعذب لأن يمحو بتلك الطلقة كل أثر لماضٍ يكتسحه، أن يفلح في أن يختفي إلى الأبد أدنى أثر لهزيمة شخصية مهينة وبلا نهاية. أن يقتل نفسه عند قتله كروجر، لهذا جاء: طلقة واحدة لاثنين.

تستقبله تشن جينج فانج، زوجة ميشيل ليفي، في الشرفة ـ الحديقة لشقته الفاخرة، أحد الطوابق العليا لناطحة سحاب في البوند على مقربة من طريق نانكين رود. استقبالها مهذب، لكنه متحفظ؛ تراعي تعليمات زوجها، ستمنح كيم الضيافة وتتركه يحميها ليلاً ونهارًا، لكنها لا تشاركه قلقه ولا ترى ضرورة لحمايتها.

ـ أنا لا أحس أن أحدًا أو شيئًا يتهددني... أتسمعني، مسيو؟ ـ تضيف تشن جينج وقد رأته شاردًا.

ـ لا مؤاخذة ـ يقول ـ سأفعل كل ما يمكن حتى لا أسبب لك إزعاجًا في عملي، لكن زوجك لديه أسباب لفعل ما يفعل. الخطر حقيقي، يا مدام، وكل ما يمكن اتخاذه من الاحتياطات غير كاف.

زوجة ليفي صينية في الرابعة والعشرين ذات جمال فريد، كهنوتية بعض الشيء وشامخة. ترتدي تشيباو من الحرير السماوي بياقة مرتفعة، بدون أكمام ومفتوح عند الجانبين، وشعرها الفاحم السواد مضموم في كعكة تتخللها دبابيس من اليشب. ومثلما حدث له إزاء النظرة الأولى إلى مدينة شنغهاي من فوق سطح النانتوكيت، يشعر كيم الآن بغتة بضرورة تدعيم مفهومه الهش للقدر الذي أحضره حتى هنا، أمام هذه الصينية الحسناء. ببطء، كأنه يتعرف من جديد، وواحدة فواحدة على تقاطيع شخص يعتقد أنه رآه منذ سنوات طويلة أو ربما حلم به، يعجب كيم بالجبهة الجميلة العاجية، والحاجبين الدقيقين المرتفعين، والعينين العسليتين، والذقن البارز بنعومة، وقبل كل شيء، بالفم بطلائه الأحمر ففور أن رآه، عرف أن هذا الفم ذا الشفتين الممتلئتين هو نفس الفم الشبحي والغامض الذي يشتعل بحب بين صفحات الكتاب المسروق من النانتوكيت. لماذا كان خاتم هذا الفم مختطفًا في الكابينة النائية لسفينة شحن قذرة، تبحر دون توقف من بحر إلى آخر كأن أحدًا يحاول بذلك الحفاظ على لهبه القديم...؟

إزاء الاحتياطات التي ينصح كيم باتخاذها بشأن أمنها الشخصي، تبتسم تشن جينج بتحفظ، ربما مغلوبة على أمرها، لكنها ابتسامة باردة

وملغزة. ثم تعلن له أن غرفة الضيوف المخصصة له جاهزة وتنادي على خادم صيني عجوز يرد على ندائه باسم دنج. وفي المنزل كذلك خادمة سيامية، وطباخ، وآيي، وهي نوع من الخادمة الوصيفة في الخدمة الخاصة للسيدة، كما سيعرف كيم بعد قليل. وتتحدث تشن جينج فرنسية هادئة غير حلقية على الإطلاق برنين ناعم وصوت رشيق ومضيء. فقد تعلمت في الليسيه فرانسيه في شنغهاي وتنحدر من عائلة من التجار الأثرياء من تيانجين ازدهرت بسرعة خلال العشرينات عندما استقرت في قلب منطقة الامتيازات الفرنسية، في شارع رو دو كونسولاه[1]، وتاجرت في الأفيون.

وقبل أن تنسحب، تنبه تشن جينج كيم إلى أن التزاماتها الاجتماعية الكثيرة تضطرها للخروج كل ليلة تقريبًا. واليوم نفسه عليها أن تحضر حفل كوكتيل في فندق كاثاي هوتيل.

- أفترض أن حضرتك ستريد مصاحبتي - تردف موجهة نظرتها المقتصدة إلى البذلة المكرمشة تمامًا لضيفها - لكن لا شك أن ما تريده الآن هو الاستمتاع بحمام طيب والراحة بعض الوقت. سيهتم دنج بكل ما تحتاج إليه... إنني أرحب بك وأتمنى أن ترتاح في منزلي، مسيو فرانش.

- وأنا أرجو ألا أسبب لحضرتك إزعاجًا أكثر مما يجب، مدام.

في غرفته، وبينما يعد له دنج الحمام، يفرغ كيم حقيبته ويحرص يضع في مكان أمين كتاب ليفي المسروق. يكرر الاسم في ذهنه: تشن جينج فانج، ويقول لنفسه ما أجمل رنينه، إنه تربيته ناعمة في المسامع وفي الذكرى المتجهمة لما جاء به إلى هنا، حمايتها من أي خطر، جينج الهدوء،

---

(١) rue de Consolat.

وقانع النضارة. الغرفة رحبة ومشرقة ويطفر فيها عبق لذيذ وهادئ لأثاث وأشياء مدهونة بالورنيش. ومن الباب الزجاجي الضخم المنزلق المفتوح على الشرفة تنفذ أيضًا النضارة الرقيقة للأزهار، فيخرج كيم لتأمل النهر الذي يتلوى كالأفعى نحو شرق المدينة تحت ضباب مائل للزرقة.

## ٥

كلما تقدمت في رسم سوسانا أحسست في داخلي بإحساس من التبعية وبأنني يومًا بعد يوم أصبح أكثر فأكثر أسير ديكور فاسد وزائف، أسير مشهد مصطنع لا يبرر بأية حال التوقعات الهاذية للكابتن بلاي ولا الحكايات المشبوبة التي يقصها علينا فوركات عند الأصيل: فسوسانا التي ستخرج من بين يدي لن تكون أبدًا الشبح الشاحب للموت الذي يريده الكابتن ولا الدمية الرقيقة من الخزف والحرير التي تريد سوسانا نفسها إرسالها إلى والدها. لم أكن قادرًا حتى على أن أعكس الوسط المحيط؛ فقد صممت القاعة وكأنها صوبة نباتات، كما كنت أراها، لكن لا شيء كان يمكنه الإزهار في تلك الصوبة؛ حاولت أن أنسخ على الورق جبهة سوسانا الناعمة والوردة المخملية لوجنتيها التي تزداد اشتعالاً كل يوم، ولم أتوصل إلا إلى نسخة شاحبة لحمقاء لا حياة فيها. وقد تحدثت في ذلك مع الأخوين تشاكون: فيومًا بعد يوم، كان المرض يجعلها أجمل وأكثر صداقة، وأكثر قربًا منا، وأكثر ملاءمة للحمى التي تنتابنا؛ كانت تشع منها حسية معدية، رطبة ودافئة، كنت أحاول التقاطها بالقلم ولم أفلح بالطبع.

كان هذا هو الرسم من أجل الكابتن بلاي والذي كانت سوسانا تطلق عليه ساخرة «رسم المصدورة البائسة التافهة والمدخنة الحمقاء». أما

الآخر، الموجه إلى ابنيها، فلم أكد أضع خطوطه الأولية وبدا لي أصعب بكثير. وذات ليلة حلمت أنني مزقت ذلك الرسم إلى ألف قطعة وبدأت أخط بالحبر الصيني الخطوط المتثاقلة للنانتوكيت وهي تبحر صوب الشرق الأقصى حاملة سوسانا وأنا وقد تسللنا إلى ظهرها خلسة، ونحن مقرفصان في مخزن السفينة.

## ٦

ـ أتحب أن تسمع الخشخشات التي تصدرها رئتي المريضة؟ ـ قالت سوسانا.

ـ هل يمكن سماعها...؟

ـ طبعًا، يا جحش. تعال، اقترب، اجلس هنا، بجواري. لا تخف، يا رجل، فلن أعديك بميكروباتي...

طوحت رأسها إلى الوراء وأمرتني أن ألصق أذني بأعلى عظمة الصدر. ففعلت بكل الاحتياطات الممكنة. حبست نفسي. عندها أمسكت رأسي بكلتا يديها، وخفضتها قليلاً، وحركتها برقة في اتجاه دائري، بتمهل لا يفتقر إلى القوة، حتى ضغطتها فوق ثديها الأيسر.

ـ هل تسمع؟ ـ سألتني، بينما لم أستطع تجنب شهقة ـ ماذا جرى لك، يا عبيط، هل ستعطس...؟

ـ لا أدري، يبدو أنني أسمع شيئًا في الداخل، لكن لا أدري...

ـ نعم أم لا؟ ضع رأسك جيدًا، هكذا... يقولون إنه مثل طنين في كهف. أتسمعه...؟

ـ مثل طنين؟

الآن كنت أستطيع سماع قلبها.. وقلبي. أصررتُ : ـ

ـ هل قلت مثل طنين...؟

ـ نعم، هذا ما قلته. هل أنت أطرش، يا ولد؟

ـ حسنًا، ما أسمعه الآن... ليس مثل طنين. لنر، انتظري لحظة...

ـ أنا أقول لك أنه مثل طنين. ضع أذنك جيدًا، يا أحمق. هل سمعته أم لا؟ ـ حركت برقة رأسي المذهول بيديها، مركزة خدي فوق الثدي الذي كان يشتعل كالثلج ـ ماذا دهاك، هل في أذنك سدادات أم أنك أصم مثل جدار؟

صعدت إلى وجهي موجة من السخونة وتملكني قلق متصاعد، كأنما عبر ثدي سوسانا المنتصب تنقل إلى الرئة المتعفنة حماها الخبيثة وحنقها. أحسست في خدي بالصلابة الناعمة للنهد وبارتداد الحلَمة، فأغلقت عيني؛ لكن لم يبد أنها منتبهة لذلك، فلم تتجنب الملامسة ولا أبعدت رأسي، وكان صوتها باردًا ومترفعًا : ـ

ـ أتسمع شيئًا أم لا، يا ولد؟ هيا، يا ناصح. وهنا...؟ ـ عاودت يداها تحريك رأسي، وظلت الحلمة التي تزداد صلابة وانتصابًا ترتد تحت النسيج الرقيق لقميص النوم ـ أتسمعه الآن؟ وهنا...؟

ـ أسمع شيئًا، لكن... ليس بوضوح، لا. ليس بعد.

أطلقت شهقة أخرى فقالت : ـ

ـ ماذا تفعل، هل أنت نائم أم ماذا؟ ـ أمسكت يدي ورفعتها إلى جبهتها

ـ هل تلاحظ الحمى؟ دائمًا هذه الشرطات اللعينة... حسنًا، ماذا، ألا تسمع شيئًا؟

ـ نعم، أعتقد أنني الآن اسمع، نعم. انتظري...

ـ هيا، يا فالح، اذهب فتغرغر!

أزاحت رأسي بعنف وعندما رأت وجهي محمرًا، حين التقطت فيما أعتقد التهيج في عيني، انطلقت تضحك، واستعادت قطها القماشي، وأدارت لي ظهرها وأدارت الراديو على المنضدة الليلية الصغيرة.

بعدها نهضت لتسوّي الفراش قليلاً وتفرد اللحاف، وعدت أنا للجلوس فوق منضدة السرير.

ـ دانييل ـ قالت سوسانا بعد انقضاء برهة، وهي مستلقية في الفراش ـ. أتعرف ماذا فكرت؟

ـ ماذا؟

ـ فكرت أنني في الرسم الآخر، الجيد، أود أن أرتدي فستانًا مثل فستان تشن جينج لأعطي أبي مفاجأة... ذلك الفستان البالغ الوسامة، الضيق بفتحتين في تنورته. هكذا، أنظر... هل تنصت إليّ، أيها الغبي؟ ما هذا الصبي الشارد!

ـ لا مؤاخذة... وما اللون الذي تريدينه؟

ـ أخضر ـ قالت ـ. أو أسود، أسود تمامًا ومن الحرير الطبيعي... لا، أخضر، أخضر. دون أكمام وبياقة عالية. ما رأيك؟ هل تسمعني، يا ولد؟ أنت بهلول أم ماذا؟

كنت لا أزال أحس في خدّي بالصلابة المرنة والعذبة لثديها، ولم أستطع، لم أرد أن أفكر في شيء آخر. لم تلح هي وظلت ممددة في الفراش تفكر وبعد قليل بدا لي أنها تنعس والقط بين ذراعيها، لكنني في لحظة

معينة لاحظت عينيها شبه المغمضتين والساخرتين تنظران إلي من فوق أذني القط عند سطح اللحاف.

حين بدأ الجو في الحرارة، كف فوركات عن إشعال المدفأة، رغم أن القدر المليء بالماء والكافور والذي كان يغليه في المطبخ ظل يتصاعد منه البخار فوقها، وبذلك يحافظ على جو القاعة الرطب، كما نصح الدكتور بارجاو. وذات مساء وصلت فيه إلى البرج متأخرًا قابلت عند الباب السنيورة أنيتا التي كانت ذاهبة إلى العمل وقالت لي إن السنيورة كونشا مع سوسانا وأن فوركات ما زال ينام قيلولته. وحين أطللتُ على القاعة رأيت زوجة الكابتن تميل فوق سوسانا وتدعك ظهرها العاري بمنشفة تبللها من إناء مملوء بماء تم غليه مسبقًا مع زهر البيلسان. كانت البدينة بتيبو تقول إن هذه التدليكات جيدة جدًا لتقوية نسيج الرئة، وللدورة الدموية، وللجلد الرقيق للصبايا الجميلات. كان ظهرها لي ولم ترني أدخل، لكن سوسانا، الممددة على بطنها فوق الفراش وقميص النوم ساقط حتى وسطها، هي التي رأتني واقفًا عند العتبة، وظلت تنظر إليّ بعيون شريرة بينما استسلمت لفركْ ظهرها المحمر والرطب، وحين ضربتها فوق مؤخرتها قائلة "Ara el pitet, maca"[1]، ظلت هي تنظر إلي بنفس الوقاحة الساخرة بينما تستدير ببطء شديد لا تكاد تغطي ثدييها بذراعها، وأخرجت لي لسانها. ولا بد أن الدونيا كونشا قد لاحظت شيئًا عندئذ لأنها استدارت، لكنني لم أترك لها وقتًا لتراني لأنني تراجعت إلى الخلف وجلست أنتظر على مائدة الطعام.

---

(١) والآن، الصدر الصغير، يا صبية - م

ولما استطالت جلسة التدليك، فتحت حافظتي ورسمت من الذاكرة اسكتشًا للقط القماشي جالسًا بتصلب شديد فوق الفراش كأنه يحرس رأس المريضة المغمى عليها، وخرج من يدي جيدًا تمامًا، فيما عدا خطمه. بدأ الجو في الحرارة وزادت أعشاب البتيبو من اشتعال الجو. خرجت البدينة من القاعة، حاملة الوعاء إلى المطبخ ومرت بجانبي دون أن تراني، متأرجحة فوق ساقيها الثقيلتين وتاركة في الهواء عبيرًا مزعجًا، مزيجًا مشوشًا من العرق ومن الزهور المفروكة.

وحين ولجت القاعة، كانت سوسانا ممددة على ظهرها في الفراش، دون ملاءة، وقدماها عاريتان ومضمومتان، وعيناها مغلقتان ويداها متقاطعتان فوق صدرها. اقتربت من الفراش على أطراف أصابعي وقلت أهلاً، لكنها لم ترد، وظلت ساكنة تمامًا تتظاهر بأنها ميتة، بحيث أمكنني خلال برهة طويلة أن ألاحظ دون عقاب الثقل المقلق لقميص النوم الملتصق بفخذيها، كما تأملت في عنقها الأبيض الطويل، حيث تتحرك تفاحة آدم خلسة تحت الجلد. مع جفنيها المغلقين، بدا محجراها أشد عمقًا وبنفسجية وسقمها أشد بروزًا. وكان الفم شبه المفتوح يكشف عن بقعة حمراء على الأسنان العليا. وفوق صدرها، مشبوكة بين أصابع اليد، برزت ورقة من دفتر الملاحظات عليها رسالة لي مكتوبة بأحمر شفاه أمها :ـ

أيها الأمير الأحمق

أعطني قبلة

لأستيقظ

قرأتها مرتين، وعاودت النظر إلى الحسناء النائمة والأسنان ذات العلامة الدامية الخفيفة، الفم الذي يقدم رحيق الأحلام مختلطًا بإفراز السل، وحين حزمت أمري في النهاية كنت قد ضيعت ثوان حاسمة، لأن سوسانا فتحت عينيها فجأة ووجهت إلي تلك الابتسامة الملوية التي كنت أعرفها جيدًا. دست يدها تحت الوسادة وأخرجت منديلاً ملطخًا ببقع حمراء حركته بعنف أمام عيني. إلتقطت على الفور أريج ماء الكولونيا من المنديل وفوحًا آخر دهنيًا برائحة الفاكهة كان يجب أن أخمن مصدره، لكنني فقط نظرت بفزع إلى بصاق الدم الجنائزي وطوحت رأسي إلى الوراء بشكل غريزي. حدست الدعابة على الفور. لكن الوقت كان قد فات مرة أخرى وأخذت هي تضحك محركة منديلها المخادع أمام أنفي.

- ليس سوى أحمر شفاه، يا أحمق. عبيط. غبي.

# الفصل السادس

## ١

يكرس كيم ما بعد الظهر للتزود بالثياب من متاجر وينج أون الكبرى في طريق نانكين رود وللتجول في قلب وسط المدينة. مع حشد البائعين الجوالين في ذهاب وإياب محموم، تبدو الشوارع التجارية الرئيسية لشنغهاي أنهارًا من العنب النباتي، والنعناع والليمون، من الياقوت والذهب تنساب دون توقف. لم يكن قد رأى في حياته مثل هذه الحيوية المتعددة الألوان، مثل هذه الحركة المحمومة في المحال العامة، ومثل هذه الوفرة والتنوع للأصناف في المتاجر ومنصات الباعة الجائلين. وفي واجهة متجر فخمة وشاهقة الارتقاع، مزينة بشلال لا يتوقف من النجوم القرمزية، تعرض فساتين زفاف بلون وردي. وينقل حمالون[١] مسرعون بضائع زبائنهم وسط الزحام والمرور الكثيف بحس شيطاني بالاتجاه. وإلى الشمال، على مقربة من نهر سوجو[٢]، ما زالت هناك آثار للقصف الياباني منذ سبعة أعوام. تمر بجواره صفوف لا نهائية من العربات ذات الثلاث عجلات طافرة

---

(١) Coolies : بالإنجليزية فى الأصل، كما يُطلق عليهم هناك- م.

(٢) Suzhou.

بالأزهار مخلفة في الهواء الرطب نضارة بها مسحة من عفن. يطلب كيم خدمات سائق ريكشا(١) ويجعله يحمله إلى طريق شانتونج رود ليلقي نظرة على اليلو سكاي، النادي الليلي لكروجر. وهو مغلق في هذه الساعة. اسمه مكتوب بحروف صفراء على مصباح ضخم من الزجاج الأحمر معلق فوق الباب.

وعند الغروب، حينما تضاء أول أنوار المدينة، يكون كيم في غرفته يربط فوق القميص الأبيض الجديد الذي يلبسه لأول مرة أربطة جراب الإبط وبه البراونينج. يرفع ذراع أمان المسدس ثم يفحص خزانته. لا يريد مفاجآت. وبعدها بقليل، محشورًا في بذلة إسموكنج لا تشوبها شائبة، يقود الباكار السوداء التي يملكها ليفي في طريقه إلى كاثاي هوتيل(٢) عند التقاء طريق نانكين بالمرفأ. الرحلة قصيرة. تنعكس أضواء ممشى البوند في النهر. أرادت تشن جينج، الشديدة الأناقة في التشيباو الحريري الأسود، الجلوس إلى جواره ليتحدثا: أي خطر بالغ الفظاعة تتعرض له هي وزوجها، ومنذ متى، ولماذا؟ لم ينس كيم توصية ليفي له ألا يذكر كروجر/ عمر كي لا يزعج تشن جينج، فيرد بإجابات مراوغة.

- أنا صديق حميم لميشيل، وقد تقاسمنا مخاطر كثيرة وبعض المثل، ولهذا فإنني هنا - يقول كيم - لقد طلب مني أن آتي وأن أتحول إلى ظلك، وسأفعل. لكن لا تسأليني عن شيء آخر، مدام، لأنني لا أعرف أكثر من ذلك.

وراغبًا في تغيير الموضوع، يضيف أن المدينة تروقه جدًا وأنه ينوي

---

(١) rickshaw.

(٢) هامش لم يدون ( غير موجود بالبروفة).

البقاء والعيش هنا، عاملاً بالتأكيد في إحدى شركات ليفي، ويعرب عن رغبته في الحديث عن ذلك يومًا ما مع تشارلي وونج، شريك زوجها. لا يبدو أن تشن جينج مهتمة بالأمر. فقد أخرجت المرآة من حقيبة يدها وأخذت تنظر فيها، شاردة، وهي تصلح بالظفر الطويل المطلي لإصبعها الخنصر أحمر الشفاه عند زاويتي فمها. وحين تنتهي تعيد المرآة وتقول مبتسمة، وهي ناظرة إلى الأمام من خلال الزجاج الأمامي: «هكذا فإن حضرتك لا تفكر في تركي ولو للحظة واحدة». يلاحظ كيم خلسة جانب وجهها الرقيق وعينها المائلة والناعسة على نحو خادع تحت الثقل المتوتر والساكن لجفنها. «لم أقل ذلك». فتردف هي: «أفترض أنك ستتركني أذهب وحدي إلى دورة مياه السيدات».

يأخذ كيم في الضحك ويفكر: دلالة فكاهة غريبة أكثر مما ينبغي، لا تليق بصينية، لكن بالغة الشباب والجمال، يروق لها التدلل والمزاح ولا بد أنها تعلمت أن تفعل ذلك مع ميشيل... لكن تشن جينج لا تمزح ولا تدلل، كما ستتاح لنا الفرصة للتحقق من ذلك فيما بعد. وفجأة، عند وصولها إلى الهوتيل، تتذكر أن لديها خبرًا طيبًا لتبلغه إياه: فقد خابرها زوجها من باريس ليبلغها أنه تجاوز أمس بنجاح العملية الجراحية الأولى. يفرح كيم مخلصًا، لكنه التقط ضجرًا أُسيء إخفاؤه في صوت تشن جينج، فكأن لديها رغبة لا تقاوم في إلقاء الخبر بسرعة والانتقال إلى شيء آخر.

يُقام حفل كوكتيل الكاثاي بيلدينج، الذي ينظمه أقطاب الصناعة والمال في منطقة الامتياز الفرنسية، على شرف الدرك وسلطات القطاع، حيث من المؤكد أن الشرطة فاسدة حتى قمة رأسها ومن بيده الأمر في الحقيقة هو

رجل عصابات صيني عديم الضمير يُدعى دو يويشنج[1]، المشهور باسم دو جراند - أوريّ...[2] لكن ليس هذا وقت الحديث عنه. كنا نقول أن الحفل يجري في الصالون الأخضر الباذخ للطابق الثامن ويجمع زبدة المستعمرة الأجنبية في شنغهاي. يختلط عطر الياسمين القوي القادم من الشرفة بالعطور الراقية والبالغة التنوع للسيدات. وفي إحدى زوايا الصالون، فوق منصة وأمام الميكروفون، تغني فتاة صينية مكتسية تمامًا بالأخضر، وتمسك في يدها المكسوة بقفاز أخضر مبسمًا طويلاً أخضر بسيجارة خضراء، أغنية I Get a Kick out of you[3] بصوت مسنون ونظرة حولاء بعض الشيء، يصاحبها على البيانو زنجي في بذلة بيضاء. يقترب أمريكي شمالي بدين أفرط في الشراب مترنحًا من المغنية مقدمًا لها كأسًا من النعناع وسط الضحكات الصاخبة.

أما تشن جينج، التي يحبها ويعجب بها الجميع، فتجيب بود على من يسألون عن صحة زوجها، وفي بعض حلقات الأصدقاء، تقدم مرافقها على أنه خواكين فرانش، إسباني وصديق حميم لميشيل وصل لتوه من باريس. لكن كيم لا يود أن يثقل عليها بحضوره وسرعان ما يتركها في صحبة أصدقائها ويقترب من البار باحثًا عن شراب. وهناك يلتقي بوونج وتسنح له الفرصة لأن يطرح عليه بعض الأسئلة المتعلقة بمستقبل عمله في شركة النسيج. يجد أن وونج على علم بطموحاته إذ يلمح له بأن من الأفضل

(1) Du Yuesheng.
(2) Grandes - Oreilles : الآذان الكبيرة - م.
(3) إنك تصرعني - م.

انتظار عودة ليفي لدراسة المسألة سويًا. لن تكون هناك أدنى مشكلة، ويمكنه الاعتماد على عونه: «أخبرني ميشيل أن حضرتك قد درست الهندسة وأنك، فوق كل شيء بمثابة أخ بالنسبة له.»

وفي وقت لاحق، في إحدى لحظات هذه الليلة الخانقة من ليالي يوليو، وبعد أن حدد مكان تشن جينج عند الجانب الآخر من الصالون وهي تتحدث مع اثنين من كبار المسؤولين الشرقيين، ربما بعد الإعجاب بجمالها البارد والنائي من خلال الحشد وبينما يستمع إلى أغنية تذكره بأوقات سعيدة مع أمك، يمكننا عندئذ أن نفكر في أن كيم سيستأذن بالتأكيد من تشارلي وونج وسيخرج إلى الشرفة بكأس من الويسكي ليتأمل من أعلى البرج ممشى البوند والمدينة البديعة تحت الليل المرصع بالنجوم، ليتأمل المرفأ والنهر الساكن الذي تتعكس فيه أضواء النيون مثل ديدان وهج ملونة. يحس أسفل ذراعه بالضغط الخفيف لجراب الإبط بالمسدس، احتكاك مألوف يربطه بماض عنيف وبالتزام أخلاقي: قتل رجل لا يستحق الحياة وإعادة صياغة حياته هو في هذه المدينة النائية، منهيًا بذلك بطلقة واحدة وإلى الأبد الضغط عند إبطه وثقل الذكريات. يقول لنفسه لكي يبتهج، إن الفرصة طيبة، وهو يضغط على الكاس المثلج في يده ويتكئ بمرفقه على إفريز برج المراقبة الرائع للكاثاي، وقد حركت مشاعره الموسيقى وعطر الياسمين، أن الحال على ما يرام تمامًا هنا، يشعر المرء بأنه بالغ الشباب وما زال شديد الامتلاء بالحياة، بأنه شديد التوافق مع هذا الانعطاف الأخير لمصيره، وشديد الثقة بنصيبه وربما حتى شديد الحلاوة والوسامة في بذلته الاسموكينج، فرصة طيبة لإدارة البصر لحظةً إلى الوراء على طول الطريق،

يا كيم، طريقنا البائس من الآمال المزروع بالفخاخ والأكاذيب الذي التقيت في نهايته، من حسن حظك، بالرفيق القديم ميشيل ليفي: سترى عندئذ، إذا فكرت في الأمر، أن ما خلفته وراء ظهرك ليس فقط الهزيمة التي لا تنتهي وكل تلك الآمال الضائعة، ليس فقط الرفاق الموتى بل كذلك الذين ما زال عليهم أن يموتوا، فتيان مندفعون ومتهورون من تولوز ومن نقاط أخرى في جنوب فرنسا سيعاودون بشكل قدري عبور الحدود ممسكين بالأسلحة بنفس العزيمة المجنونة التي دفعتك ذات يوم، سترى الدم المسفوح الماضي والمستقبلي، الذي ما زال يشعل عروق رجالٍ آخرين، وستفكر بالتأكيد في دنيس وفي كارمن وهما يحاولان كذلك أن يصيرا سعداء في ركن من أركان فرنسا، وستتذكر نوالارت وبتيانكورت وكامبس وهم يتعفنون في السجن أو يعدمون، ستفكر في كل تلك التضحيات غير المجدية التي لن تسجل أبدًا في أي مكان، كل هذا الكرم وكل هذه الشجاعة التي لن تصلح شيئًا في نهاية الأمر ولن تفيد أحدًا، ومن يدري إن كان سيتذكرني أنا أيضًا ويتذكر تزييفاتي الصعبة، فوركات التعس ذاك بأصابعه الملطخة دائمًا بالحبر، هذا الميت العائد إلى مدينة الموتى... لكن ثمة، يقول لنفسه، من هم أشد يأسًا، هم أولئك الذين استسلموا فعلاً ولم يعودوا ينتظرون سوى أن يمر الزمن ويمحو وجوههم ويأتي يوم يبتلعهم فيه النسيان في النهاية هم وأبناءهم جميعًا إلى الأبد. إذ أنكما لو كنتما معتادين مثلي على قراءة عقل كيم، لعرفتما أنه يفكر الآن بشكل خاص فيمن بقوا هنا منتظرين فرصة: من الجانب الآخر للعالم، فإن ما يود قوله لنا هو ببساطة أننا لا يجب أن نترك أنفسنا للقنوط، للحظ السيء أو للمرض، ولا حتى للدخان

الأسود لهذه المدخنة. تصبح الحياة أحيانًا حملاً ثقيلاً، ومن المُستحب أن يخدع المرء نفسه قليلاً، أن يربي بشكل سري أملاً ما... في هذا كله يجول خاطر كيم في شرفة فندق كاثاي وبيده كأس الويسكي، وهو يطل على ليل شنغهاي، ويحس بالتنفس الرطب والحار للمدينة مثل فوح حيوان مستسلم وناعس، حين ينتبه إلى أنه لا يرى تشن جينج منذ برهة طويلة بالتأكيد.

لكن، يفكر، ليس من المحتمل أن يتجول كروجر هنا، ولو فعل، فلن يكون من الجنون بحيث يهاجمها وسط كل هؤلاء الناس.

تستقر يدٌ فوق كتفه وتلفت انتباهه بود: إنه لامبير[1] ، فرنسي طليّ الحديث، ومالك لمصانع حرير ومتاجر كبرى، كان قد تم تقديمه إليه قبل قليل ويأتي الآن للحديث معه؛ وعلى الفور ينضم إليهما أربعة مدعوين آخرين، في اللحظة التي يعلق فيها واحد منهم، كثير الكلام، بسخرية على الحظ الجهنمي لميشيل ليفي، المتزوج من صينيته الصغيرة ذات العيون الذهبية، المتمتعة بكل هذا الشباب والجاذبية، وعلاوة على ذلك قريبة الجنرال تشن يي، الذي يقال عنه إنه يتأهب للتقدم عبر منشوريا بقواته الشيوعية ليواصل طريقه بعد ذلك على طول نهر اليانج - تسي حتى يصل إلى شنغهاي... وكما يدرك كيم، بدأ كثيرون من الأجانب في الخوف على شركاتهم وأعمالهم في شنغهاي: إذ أن هزيمة الكومنتانج وانتصار الشيوعيين يمكن أن ينتهي بإلغاء الامتيازات الأجنبية. ورغم أن الموضوع يهمه جداً، فليس هذا هو ما يشد انتباهه، بل تعليق لا علاقة له بما يتحدثون فيه، أبداه على غير توقع أحد المتسامرين، الأمريكي الشمالي الذي أفرط

---

(١) Lambert.

في الشراب والذي كان قد داعب المغنية الصينية. كان الآن، محتقنًا وغارقًا في عرقه، يلكز بمرفقه المدعو الواقف بجواره، وهو رجل بشعر أسود مكوي وملامح مدببة، ويقول له بصوت أخنف وفم ملوي: -

- أراهن أن تلك العاهرة الصغيرة تشن جينج فانج، منتهزة فرصة أن ليفي في باريس ليرى إن كان بإمكانهم أن يصلبوا ظهره، وبالمرة - يردف بقهقهة - حمامته كذلك، ستبحث عن العزاء من جديد بين ذراعي ذلك القبطان البحري، ذلك الكانتوني الشيطاني، سو تزو أو كيفما كان يُدعى...

قطعت الفظاظة غير المتوقعة الحديث ويستعد كيم للرد عليه بصورة مناسبة حين يسبقه، على يمينه، الرجل ذو الشعر المكوي بالرنين القوي لصوته، ممسكًا باليانكي من ياقة الاسموكنج:

- ستابلتون[١] - يقول له - أنت مهرج وسكير، اسحب فورًا ما قلته لتوك عن تلك السيدة وإلا أقسم لك أنني سأجعلك تندم.

يظهر الخوف على ستابلتون، ويسارع بالهمهمة باعتذار ثم ينسحب من المجموعة مراقبًا كأس الويسكي في يده بسحنة هلع في الضوء الخافت، كأنه يرى في داخلها حشرة غريبة. وبعد قليل يفتر الحديث ويتفرق الجمع، ويبقى كيم من جديد وحيدًا مع مسيو لامبير وخلال برهة طويلة يشبع بأدب فضول لامبير بصدد الوضع السياسي الراهن في إسبانيا، لكن نميمة اليانكي السكران لا تفارق ذهنه. القبطان سو تزو وزوجة ليفي؟ هل كانت هذه العلاقة أمرًا شائعًا؟ هل كان ليفي يعرف؟ وبكل كياسة العالم، يستقصي كيم، فيقول الفرنسي أنه لا يدري إن كانت الشائعة ذات أساس

(١) Stapleton.

أم لا، لكنها قد انتشرت بالطبع في شنغهاي.

بعدها مباشرة يسأل لامبير من هو المدعو الذي انبرى بحماس للدفاع عن مدام تشن جينج، رغم أنه في قرارة قلبه، وقبل أن يجيبه الفرنسي، يعرف الإجابة فعلاً، بفضل واحدة من تلك التناغمات الغريبة لكيم مع الجانب الغامض للأشخاص:

- اسمه عمر ماينينجن، ألماني، مالك نادي اليلو سكاي كلوب وأرقى بيتي دعارة في شنغهاي - يقول لامبير، ويردف في لهجة تواطؤ ناعمة - يقال إنه شخص خطير قوي الشكيمة، يا مسيو، رغم أنه يقال أيضًا، خصوصًا من جانب السيدات، إنه رجل مهذب من قمة رأسه إلى إخمص قدمه. لكنني أعتقد أنه، في الحقيقة، شيوعي.

## ٢

لا أدري عند أي لحظة بدأت جولات وزيارات فوركات للميناء ولحي برشلونيتا تصبح أكثر تواترًا، بعض المرات في صحبة السنيورة أنيتا لكن بمفرده على الدوام تقريبًا، ولا أدري أي أناس كان يتعامل معهم ولا كيف كان يدبر أموره، لكنه لم يكن يعود أبدًا إلى البرج بدون بضع كيلوجرامات من الدقيق أو الأرز أو بضع لترات من الزيت المهرب.

وفي أوائل يوليو، بعد ثلاثة أشهر تقريبًا من وصول الضيف إلى البرج، أقلعت السنيورة أنيتا عن الشراب وعن التدخين. في البداية كانت تنزعج دون سبب وتتجادل مع سوسانا، وبدا لي حتى أنها تتجنب نظرة فوركات الحولاء لكن المتكتمة على الدوام، لكن طبعها تحسن بعد ذلك وصارت شديدة الحنان مع ابنتها، ومتفهمة ومراعية لفوركات وأخذت تتضاحك حتى

مع الأخوين تشاكون، اللذين كانت تسليها كثيرًا حيلهما مع بائعات الخضر في السوق من أجل الحصول على الطعام. ولن نتأخر في معرفة أن ذلك التحول كان راجعًا إلى التأثير الحميد لفوركات؛ فقد كانت قد صارت مؤخرًا مغرمة بنبيذ أبيض رخيص جدًا كانت تشتريه سائبًا من الحانة، سم فئران بالغ القوة، كما يقول فوركات، الذي رفض حتى أن يضيفه إلى بعض الطبخات الخاصة التي كان يعدها لسوسانا بين الحين والحين. لكن ذات يوم طيب وجدنا أن الدمجانة التي اعتادت أن تتصدر مائدة الطعام، والتي كانت ترسلنا أنا والأخوين تشاكون باستمرار لملئها من حانة شارع كاربونير، قد اختفت ولم نرها بعدها. وفي نفس الوقت، كان فوركات يساعدها في أعمال المنزل؛ كان يغير ملاءات فراش سوسانا، وينظف الرماد من المدفأة ويغسل الأطباق، ودهن بالجير جدران الحديقة، وحفزها أن تروي النباتات وتعتني بها وعلمها كيف تتسلى بطبخ بعض الأطباق البسيطة والرخيصة. كانت تبدو أكثر رضى وأكثر هدوءًا في نفس الوقت، كذلك اكتسبت بعض مظاهر سيدة محترمة، لمسة مميزة في الثياب وفي طريقة المشي؛ لكن ألسنة السوء في الحي ظلت تنهش في لحمها سواء رأوها منفلتة أم لا، ودار على الشفاه تعليق حاد منسوب إلى الدكتور بارجاو كان يروق كثيرًا للكابتن بلاي، ربما لأنه يثير ثورة الدونيا كونشا: «السيدة كفت عن الشراب، لكن العاهرة ما زالت تمص[1] مثلما كانت.»

وذات مساء، وصلت إلى البرج في وقت مبكر عن المعتاد، كانت

(١) mamar المصّ و tragar البلع : فى اللغة العامية كناية عن ممارسة الدعارة ـ م.

سوسانا تنام القيلولة ولم تكن أمها قد ارتدت ثيابها بعد لتذهب إلى العمل. وبعد أن تأكدت من القاعة أن فينيتو وخوان لم يصلا بعد إلى جوار البوابة، قالت لي السنيورة أنيتا:

- دانييل، حبوبي، أتصنع لي معروفًا؟ - رأيتها من العصبية بحيث ظننت أنها سترسلني إلى الحانة من وراء ظهر فوركات، الذي كان في غرفته - لقد نفد مني الأسبرين... والصيدلية ما زالت مغلقة. هل تود الذهاب إلى الحانة لترى إن كان لديهم أسبرين... ويمكن أن تحضر لي، بالمرة، ربع كونياك...؟ لا، لا، أريد أسبرينًا فقط.

حين عدت بما كلفتني به، كان فوركات في القاعة وكانت هي في ثياب الخروج، مرة أخرى على طريقتها اللامبالية والمستفزة بعض الشيء: حذاء بنفسجي بكعب عالٍ، وجورب أسود رقيق جدًا، وإحدى جونلاتها المكشكشة ذات الألوان الفاتحة التي تروقها جدًا، وبلوزة بيضاء بدون أكمام وحزام عريض من البلكسيجلاس بلون أخضر تفاحي. أما شعرها الأشقر القصير، المشعث قليلاً على الدوام، فقد أكد منظرها الشاب والتعبير الخبيث لجسدها. كان على خدها بعض رماد السجائر، على مقربة شديدة من الفم، وفكرت أنها كانت تدخن مستخفية وأن فوركات سيوبخها على ذلك؛ لكنه لم يقل شيئًا. قبلت جبهة ابنتها، والتقطت حقيبة اليد وقبل أن تذهب تناولت قرصي أسبرين وقدحًا من المياه الغازية.

- منذ كففت عن الشرب، يؤلمني رأسي - قالت -. لم تعد ركبتي تؤلمني، الآن الرأس. يا للشقاء! هل تكون المياه الغازية هي السبب؟

جالسًا على حافة الفراش، عند قدمي سوسانا المستيقظة الآن، نظر

إليها فوركات وهي تشرب المياه الغازية وهو يبتسم ابتسامة خفيفة. فوق ركبتيه المتقاطعتين، كانت تتدلى يداه الطويلتان المبقعتان خاملتين كأنهما يدي سجين مغلولتين بالأصفاد، لكنهما حتى في هذه الحالة لم تكونا تبدوان محايدتين أو مستسلمتين لنصيبهما. كان ثمة شيء يشتعل باستمرار في هاتين اليدين. انتظر حتى تنتهي من الشرب، وقال بنبرته المشجعة المألوفة:

- لا يبدو عليك أي أثر للصداع. ان رأسك يظن أن رأسك يؤلمك. هذا كل ما هناك.

أخذت سوسانا تضحك ثم سعلت. عندئذ تركت أمها، التي كانت على وشك الذهاب، الكوب وحقيبة اليد فوق المنضدة الصغيرة، وهمست: «أيها الملعون»، وعلى الفور خلعت حذاءها، وأزاحت سوسانا إلى الجانب من الفراش البعيد عن مكان جلوس فوركات وتمددت على ظهرها لكن القدمين عند رأس السرير ورقبتها مستندة على حجر فوركات؛ أمسكت بكلتا يديها يده اليمنى وأسندتها على جبهتها، باعدتها وأعادتها، عدة مرات، برقة، كأنها تضع كمادات ساخنة. أغلقت عينيها وتنهدت بارتياح، فتبادلنا النظرات أنا وسوسانا.

- أعتقد أنها ليست اللحظة المناسبة، يا أنيتا - قال فوركات.

- إذا لم أشعر بارتياح، فلن أستطيع الذهاب إلى العمل - قالت -. أنت لا تعرف كم يؤلمني.

- إنه لا يؤلمك، يا امرأة. - رفع يده قليلاً وأبقاها مفرودة فوق الجبهة ببضع سنتيمترات. ظلت هي تضغط تلك اليد بيديها، لكن فوركات حافظ على المسافة. فكرت بعدها مرات عديدة في أن فعالية العلاج ربما لا تكمن في التلامس المباشر ليديه بقدر ما تكمن في الفيض الذي ينبعث منهما،

الحرارة المحكومة أو التي لا أدري كيف يسمونها والتي يبعثها ذلك الجلد المستهلك، والتي تزيل الألم أو تخففه. استمر ذلك نحو عشر دقائق، وبدا أن السنيورة أنيتا قد نامت. فتحت حافظتي وفحصت أقلامي، أو بالأحرى تظاهرت بذلك؛ فلم أكن في الحقيقة أريد أن يفوتني أدنى تفصيل. لاحظت بالدرجة الأولى مسافة السنتيمترين أو الثلاثة تحت راحة يد فوركات فربما استطعت التقاط تدفق الفيض، أو ربما شررًا أو يعلم الله ماذا، فلا شك أنه، في هذه الفجوة الصغيرة بين اليد وبين الجبهة، تكمن المعجزة. ورفضت سوسانا بدورها النظر إلى أمها المتمددة وتظاهرت باللامبالاة، لكنها كانت في أعماقها تستهجن ما تفعله.

الأمر المؤكد هو أن السنيورة أنيتا نهضت كأنها امرأة جديدة تمامًا وغير مندهشة على الإطلاق مما حدث؛ لا يمكن أن تكون هذه هي المرة الأولى. «أترى؟ - قالت - ، هأنا أفضل بكثير.» سوّت شعرها، وارتدت حذاءها، وتناولت حقيبة يدها، ومبتسمة في سعادة، نكشت بيدها شعر ضيفها، بحركة سريعة وعفوية، ثم قبلت سوسانا من جديد، وتنهدت، وفجأة، واقفة هناك في وسط القاعة، وحقيبة اليد معلقة في كتفها وبصرها في الفراغ، شرعت تبكي في صمت، دون أن تكف عن الابتسام. لم أدر ساعتها ماذا دهاها، لكنني اليوم أعرف أن مشاعرها قد جاشت في واحدة من لحظات الامتلاء تلك التي لا بد أن الحياة قد منحتها إياها في مناسبات معدودة.

- لماذا تبكين، يا ماما؟ - قالت سوسانا وهي مقرفصة على الفراش، وبصوت مشروخ رجتها - : من فضلك، لا تبكي! من فضلك!

انتهى الأمر في الحال. قالت إلى اللقاء للجميع ومضت متعجلة. لكنها

لم تكن قد بلغت الردهة حين عادت، وأمسكت بيد فوركات وأجبرته على أن ينهض ويتبعها عابرة بسرعة غرفة الطعام ثم الردهة جريًا طول الوقت حتى باب البرج، حيث ستودعه حتى المساء - كما أفترض، كما راقني دائمًا أن أفترض - بقبلة. لم أر ذلك أبدًا، لكن ذكرى المشهد من الحيوية بحيث أنني دائمًا ما أنسى أنني لم أره أبدًا: الفمان، وهما يبحثان عن بعضهما ويلتقيان، واقفين كلاهما متعانقين بقوة في غبش المدخل.

وبعد ساعات، بعد أن كانت سوسانا قد تناولت كوب اللبن الضخم والساندويتش ووصل الأخوان تشاكون في زيارة وجيوبهما مليئة بالكافور وأكياسهما بالقصص المصورة والروايات المربوطة بالخيط، بدءًا من القاعة السحرية والساكنة التي أصبحت تضيؤها شمس الغروب سنعاود الرحيل ممسكين بأيدي بعضنا صوب الشرفة المضيئة في شقة تشن جينج فانج والمطلة على المرفأ وعلى نهر الهوانج - بو، تحت النظرة الحولاء لفوركات وبسحر تعويذة صوته.

## ٣

يكون كيم قد قضى ثلاثة أيام في شنغهاي حين يتصل ميشيل ليفي تليفونيًا من عيادة فوتران بباريس ويتحدث طويلاً مع زوجته. ثم يطلب أن يتحدث لحظة مع كيم فتأخذ هي التليفون إليه في الشرفة. كيم يتصفح الصحيفة جالسًا تحت مظلة، وينتظر أن تعود تشن جينج إلى الصالون ليتحدث مع ليفي : بونچور، يا صديقي، كيف حال معنوياتك، ممتازة، يقول ليفي، وأنت كيف حالك؟ بخير، لا جديد. لديّ أخبار رائعة، يا كيم نجحت العملية الأولى وأنا «مبسوط» جدًا؛ عليّ أن أعود إلى غرفة العمليات، فأمامي

الأصعب، لكن الحظ موات وأعرف أن كل شيء سيكون على ما يرام وأنني قريبًا جدًا سأكون قد عدت إلى منزلي. والآن قل لي: كيف يسير موضوعنا؟ هل فعلت ما طلبته منك؟

- جزئيًا فقط - يقول كيم -. لدي الكتاب الذي أردته، لكنني بالنسبة لكروجر لم أفعل سوى تحديد من هو، حتى الآن. هذا الموضوع لا يمكن تصفيته دون اتخاذ احتياطات كثيرة.

- يجب أن تسرع - يقول ليفي -. فكروجر ذكي ويمكن أن يشتم شيئًا.

- سأخاطر بذلك - يقول كيم، ويردف -: سأقول لك كيف أرى المشكلة، يا كابتن. الآن أكثر من أي وقت يجب أن أتصرف بطريقة نظيفة، في الظلام وبدون أن أترك أثرًا، لأنني فور تصفية هذا السفاح الجهنمي أريد أن أبقى هنا، كما قلت لك، وأن أعمل معك وأحضر زوجتي وابنتي... اتفقنا على ذلك، أتذكر؟ والأمر يختلف لو كنت بعد أن أعطي لكروجر ما يستحقه سآخذ طائرة ووداعًا يا شنغهاي، علي أن أنسى أنني رأيتك. لا أود المخاطرة بمستقبلي ومستقبل أسرتي. يجب أن أعد خطة وأبحث عن المناسبة وبعدها أكون بعيدًا عن أي شك، هل أوضحت ما أقصد؟

- يجب أن تكون حريصًا، لكن سريعًا كذلك - يقول ليفي -. فالأمر لا يحتمل الانتظار. ولا تترك تشن جينج تغيب عن بصرك، فأنا لا أثق في ابن العاهرة ذاك... سأطلبك مرة أخرى. إلى اللقاء وحظًا سعيدًا.

- أتمنى لك نفس الشيء، يا كابتن. حظًا سعيدًا.

وفور أن يضع التليفون، تخرج تشن جينج من جديد إلى الشرفة تتبعها خادمتها الوفية، التي تحمل صينية عليها مشروبات.

- هل تريد شايًا بالياسمين، مسيو فرانش؟ - تقول الصينية الشابة مبتسمة - أم تفضل المارتيني المركز؟ أنا أعرف كيف أعده جيدًا جدًا. يقول زوجي إن كؤوس المارتيني التي أعدها هي أفضل ما يمكن تناوله في شنغهاي... دون أن نحسب بالطبع المارتيني الخاص جدًا الذي يعده هو.

- من المؤكد أن ميشيل يفضل ما تعدينه أنت - يقول كيم -. وبالمناسبة، هل لديك أي ارتباط هذه الليلة؟ هل ستخرجين؟

- أخشى أن الإجابة بنعم، مسيو. أنا آسفة.

- لا تقولي هذا. يسعدني دائمًا أن أصحبك.

تبتسم عينا تشن جينغ الذهبيتان بتحفظ تحت وقع جفن كسول، على تردد وإيقاع محسوب، يكاد يكون آليًا. لكن هذا الإيقاع الذي لا يتغير، وهذه الحسية وحرير الجفنين اللذين يتحركان ببطء، تبهر كيم.

تحتل حماية تشن جينغ بالتأكيد وقتًا أكثر بكثير مما توقعه وخلال ما يربو قليلاً على أسبوعين يكون قد عرف الحياة الليلية والمتباهية لشنغهاي وكل أنواع الفضائل الشرقية والآسيوية الزاهية الألوان الممثلة فيها. تنقل أخبار المجتمع في صحيفتي نورث تشاينا ديلي وشنغهاي ميركوري بدقة حضور السنيورة تشن جينغ فانج والسنيور فرانش في الحفلات والاستقبالات. كذلك يروقها أن تتردد على الكباريهات العصرية وأن تلتقي بالأصدقاء في ملهى كازانوفا، وديل مونتي، وليتل كلوب أو سيروز. وأحيانًا يطلبها بالتليفون زوجان من الأصدقاء للعشاء سويًا ثم الذهاب إلى السينما أو الى الرقص، لكنها على الدوام تقريبًا تفضل الخروج وحدها، أي مصحوبة حتمًا بكيم، الذي اعتادت أن تمازحه حول هذا الاقتران الذي

أصبح يثير في شنغهاي من الشائعات أكثر مما كان يمكن أن يقبله زوجها لو كان موجودًا هنا.

وذات ليلة، في حفل استقبال حاشد على ضفاف بحيرة الغرب، في هانججو، يتسلى كيم بالدعابة مع تشارلي وونج وزوجته ويغفل لبرهة مراقبة تشن جينج، وفجأة، على بعد نحو خمسين مترًا، بين بحر من رؤوس المدعوين، يتبين كروجر وهو يتحدث معها تحت شجرة تنوب مضاءة. يشق كيم بعنف طريقًا بين المدعوين وقبل أن يصل إلى جوار تشن جينج ينتبه إلى أن كروجر هو الآخر قد رآه : وبدون عجلة، لكن مستجيبًا بوضوح ساطع لحافز مباغت، يودع الألماني الصينية الحسناء منحنيًا ليقبل يدها، وعلى الفور، يدور نصف دورة ويضيع في الزحام.

- أتعرفين هذا الرجل؟ - يقدم كيم سيجارة إلى تشن جينج، متظاهرًا بعدم الاهتمام ـ. يبدو شخصًا لطيفًا.

- من لا يعرف عمر في شنغهاي - تقول هي ـ. لكنني لم أكد أتعامل معه سوى مرتين. جاء ليحييني ويسأل عن زوجي... لماذا تسأل؟ هل تعرضت دون أن أدري لخطر بالغ؟ - تردف وفي عينيها شرارة ساخرة.

بدلاً من الوقوع في أحبولة التوضيحات، يفضل كيم الاعتذار.

- أنا آسف. لكنك تفهمين أنك، إذا كنت وحيدة، فإن أي شخص يقترب من حضرتك موضع شك بالنسبة لي...

- أتخشى أن تتركني وحيدة بين كل هؤلاء الناس، مسيو فرانش؟ - تبتسم الصينية الشابة ـ. لا يجب أن تقلق، فأنا محاطة بالأصدقاء... والآن هل تتفضل بالذهاب إلى البار لتحضر لي كأسًا من الشمبانيا؟

يرد كيم ابتسامتها ويلمس بلطف مرفقها يده.

- سيسعدني أن أصحبك إلى البار وأن أثير حسد جميع الرجال... انظري، ها هما وونج وسوو لين مع عائلة دوبريه.

- يا لها من تسلية - تتنهد تشن جينج مستسلمة -. لكن الأمر لك. إن هذه الصينية المفتقرة إلى الكياسة تقسم في خشوع ألا تبتعد ولو مترًا واحدًا عن حارسها... إلا إذا تجشمت مدام دوبريه عناء أن تحكي لي للمرة المليون حكاية سهرتها المجنونة الشهيرة في باريس مع جان جابان[1] والكلبة لولو.

- حضرتك امرأة شريرة - يبتسم كيم.

- هل تظن ذلك حقًّا؟ سأعتبر ذلك ثناء.

- ولماذا؟

- لأنني أردت دائمًا أن أكون امرأة شريرة.

في جولتها المعتادة في النوادي الليلية، لم تدرج تشن جينج ولا مرة واحدة اليلوسكاي المملوك لعمر، مما أسعد كيم؛ انه يريد معرفة ملاذ النازي السابق، لكن وحده بالطبع، حين تتاح له ليلة دون ارتباط.

تتاح له الفرصة ذات أحد شديد الحرارة، قبل أن يجلس في شرفة تشن جينج المطلة على البوند، حين يبلغه دنج أن المدام تعتذر عن مرافقته على العشاء: فقد أجبرها صداع نصفي قوي على اللجوء إلى الفراش ولا تفكر اليوم في الخروج، ولذا ترجو المسيو أن يستفيد بالليلة لنفسه على أفضل نحو يراه.

---

(١) Jean Gabin.

بعد العشاء، الذي قدمه الخادم الصيني بطريقة احتفالية، ينادي كيم سائق ريكشا ليحمله إلى اليلو سكاي كلوب، في طريق شانتونج رود. المكان شديد الازدحام، ضخم وفخم، مزين بالأصفر والأحمر، وبه منصة رقص متألقة وصالة قمار. عند البار يطلب كيم ويسكي ويراقب الزبائن، بينما تعزف الأوركسترا لحن سيبوني[1] ويرقص بعض الأزواج مسحورين. وعلى كل المناضد حول منصة الرقص يوجد مصباح صغير أحمر ووردة صفراء ذات عنق طويل موضوعة في إناء رشيق من الكريستال. كذلك تلفت انتباهه، على إحدى الموائد المجاورة لمنصة الرقص، شابة صينيّة شديدة الأناقة، ذات عينين ضيقتين وسيقان جميلة، تجلس وحدها: مكتسية تمامًا باللون الأحمر بثوب تشيباو ضيق ذي ياقة مرتفعة وفتحتين جانبيتين في الجونلة، تنظر بلا مبالاة إلى أظافرها الأرجوانية الحمراء وتدخن سيجارة من نفس اللون، وهي جالسة أمام كوب كبير من شراب العنب.

حينئذ يرى عمر عند حافة منصة الرقص وهو يحيي واقفًا، باسمًا وهادئًا، بعض الزبائن الجالسين. الآن يستطيع كيم ملاحظته بشكل أفضل مما في هوتيل كاثاي وفي سوجو. إنه في الثامنة والثلاثين أو الأربعين من عمره، والرجل الذي يسمى نفسه الآن عمر شديد الطول، أنفه حاد ومعقوف، شارد النظرة، ورغم ابتسامته البيضاء، فإن تقطيبة مرة تُصلِّب فمه الكبير الجيد التحديد. حركاته ناعمة وراقية. وعند مروره بجوار الصينية التي ترتدي الأحمر، يمسك عمر الوسيم بالوردة الصفراء التي تزين مائدتها ويشمها مبتسمًا للفتاة، يقبلها على خدها، ويعطيها الوردة ويودعها بتحية

---

(١) Siboney.

احترام، متجهًا على الفور، وهو ينظر في ساعته، نحو باب صغير أزرق عليه «حليات» من اللاكيه والعاج ويقع عند أحد طرفي البار. يفتحه، فتظهر الدرجات الأولى من سلم مضاء، ويعاود عمر إغلاق الباب خلفه.

يعتقد كيم أنه لم يره، أو لم يشأ أن يراه، لكنه دون شك يعرف جيدًا من هو؛ فبعد أن شوهد في صحبة تشن جينج في كل تلك الاستقبالات والأماكن العامة لشنغهاي، لا يمكن أن يكون قد غاب عنه قيامه بوظائف الحارس الشخصي.

يمضي نصف ساعة ونظرًا لأن عمر لا يعاود الظهور، يسأل كيم البارمان هل سيعود صاحب المكان، لأنه يرغب في الحديث معه عن صفقة هامة. فيجيبه البارمان، وهو صيني له وجه حزين مستدير وشارب متهدل، بأن صاحب المكان قد اعتكف في مسكنه وأمرهم ألا يزعجوه لأي سبب. مسكنه؟، يقول كيم، هل يسكن السيد عمر هنا في الكباريه؟ هنا بالضبط، مسيو، فشقته فوق الكلوب... عملي جدًا، يصرح كيم، لكنني أفترض أن له مدخلاً آخر على الشارع. بالطبع، مسيو: في كينج لوونج، وهي حارة خلفية. إن كأسك فارغ، مسيو، أتريد ويسكي آخر؟

يهم بالرد حين يسبقه من وراء ظهره صوت بود مصطنع:

- ربما يفضل المسيو الصحبة.

يستدير كيم ببطء ويرى صينيًا بدينًا وباسمًا في بذلة زرقاء فاتحة، وقميص أسود ورباط عنق أبيض.

- أفضل الويسكي - يقول كيم.

يقدم له البارمان الكأس بينما يصر القادم المجهول:

- اغفر لي إزعاجك. هل حضرتك صاحب الفخامة المسيو فرانش؟

- نعم.

- إن دو يويشنج، رئيسي، يود التحدث مع حضرتك وسيكون هذا شرفًا كبيرًا له أن تقبل تناول كأس على مائدته.

- فيم نتحدث؟ - يقول كيم -. أنا لا أعرفه.

- ألم يسمع المسيو باسم دو جراند - أوربي؟

- سمعت القليل - يقول كيم نافد الصبر -. حسنًا. ماذا يريد؟

دون أن يكف عن الابتسام، ينحني له الصيني.

- اتبعني، لو سمحت.

يدور حول منصة الرقص ويعبر صالة القمار، دائمًا في أعقاب الصيني. دو جراند - أوربي جالس على مائدة وظهره للحائط، في منطقة بين صالة القمار وبين بار آخر شديد الازدحام. يرتدي بذلة بيضاء لا تشوبها شائبة، وقبعة بيضاء ورباط عنق بلون بصلي. تتناقض وجنته البارزة، العدوانية، مع الهدوء الهازئ للجفنين الثقيلين والفم الذي ليس له شفتان. بين يديه قدح من الشمبانيا مغبش من فرط برودته. ويداه مثل كيسين من الماء الساخن. وجالسًا إلى جواره، وحافة القبعة تحجب نصف وجهه المبطط المتجهم، ينزع حارسه الفلبيني ببطء بتلات الوردة الصفراء التي تزين مركز المائدة. لا يحتاج كيم إلا إلى إلقاء نظرة ليدرك أنه توفاي(١) محترف، قاتل مأجور. يجلس الرسول على الجانب الآخر بجوار رئيسه ويظل كيم واقفًا، وفي يده كأس الويسكي.

---

(١) tufei.

- يشرفني أن أتعرف إليك، مسيو فرانش - يقول دو يويشنج -. ألا تود الجلوس إلى مائدة هذا الخادم المتواضع؟ حضرتك تبدو مرهقًا. ربما لم تنم كثيرًا مؤخرًا...

- ربما.

- أفهم أنك قدمت إلى شنغهاي بدعوة من المسيو ليفي وفي إحدى سفن شركته الملاحية - يبتسم دو جراند - أوريي متآملاً ويواصل حديثه -: الأمر يبدو غريبًا بعض الشيء، أليس كذلك؟ كان باستطاعتك القدوم بارتيا ح شديد في طائرة...

- الطائرة تصيبني بالدوار - يقول كيم.

- أحقًا، مسيو؟

- يمكنني أن أقسم على ذلك.

- هل كنت حضرتك تعرف أن بعض سفن شحن صديقك المحترم مسيو ليفي تهرب الأسلحة للشيوعيين الذين يريدون الاستيلاء على شنغهاي؟

- لا أدري عن ماذا تتحدث.

- أوه، أنا شديد الأسف. ربما أعبر عن نفسي بشكل سيء، ففرنسيتي أولية بعض الشيء - يقول رجل العصابات الصيني خافضًا عينيه. يحدس كيم أنه يخفي، وراء وسامته، وحركاته المهذبة، وجلده الرقيق الوردي، أعوامًا أكثر بكثير مما يبدو عليه -. لكن هذا أيضًا هو حال فرنسيتك، مسيو. فأنت لست فرنسيًا، كما قيل لي.

- لقد قيل لك الحقيقة. فأنا قطالوني وإسباني، وصدقني إن قلت لك إنني بدأت أسأم من كوني هذين الشيئين. لذا فإن صبري ضئيل، خصوصًا إزاء قاتل مأجور مثلك متنكر في زي سلحفاة عجوز. ماذا تريد مني؟

دون أن تغيض ابتسامته الخزفية، يحتسي دو يويشنج رشفة من الشمبانيا ويقول ـ

ـ لا تكن مندفعًا هكذا، يا صديقي العزيز. هل تسمح لي بسؤال؟ لماذا أتيت إلى شنغهاي؟

ـ لو قلت لك لشراء قبعة، كما قالت شنغهاي ليلي[1] عام ١٩٣٢، فلن تصدقني.

ـ حضرتك لديك حس دعابة غريب ـ يبتسم دو جراند أوريي ـ. يجب أن نفهم بعضنا. لنرى... لماذا لا يجلس صديقي المحترم إلى مائدتي ويقبل كأسًا من الشمبانيا؟

ـ أحب الشراب وحيدًا.

ـ لندع جانبًا افتقارك إلى اللياقة. على أية حال، أريد أن أقدم لك معروفًا.

ـ لنرى.

ـ علي أن أقترح عليك أن تغادر شنغهاي.

ـ لا تحلم بهذا.

ـ لم لا، مسيو؟ ما هذه الطريقة في الكلام؟ ـ يبتسم دو ابتسامة واسعة

ـ الحلم شيء حسن. أوصيك به.

ـ أنا لا أحلم أبدًا أحلام يقظة.

ـ لا أعتقد. ما كنت لتصل إلى شنغهاي ما لم تكن تفعل. حسنًا، على الأقل، أتحب أن تتعشى معي؟ لدينا حساء ثعابين، وجذور لوتس وجولاي[2]، أتعرف ما هو؟

---

(١) Shanghai Lily.

(٢) Ju lai.

- لسان الخنزير. لا، شكرًا.

- أرى أنك قد أحرزت تقدمًا كبيرًا في لغتي... في النهاية، هل ستقبل نصيحتي الطيبة، مسيو؟ - أصبح صوته الآن أكثر خشونة.

- لا تتعب نفسك.

- في هذه الحالة يجب أن أحذرك: ستقع في مشاكل، مسيو.

- ليس من عادتي الدخول في مشاكل - يقول كيم ببرود -، لكنني إذا فعلت، فاعلم أنني أمضي حتى النهاية.

الآن تعزف الأوركسترا[١] لحن أمابولا، وفجأة، من بين أرق طيات الذاكرة، يسترجع كيم لوهلة أمك وهي ترقص بين ذراعيه ببطء شديد وكأنها نائمة، ورأسها مستند باسترخاء على كتفه: إنها أغنيتها الأثيرة وكانت تدندن بها باستمرار، إنها نوع من التعويذة ضد معاكسة القدر والنذر السيئة. وفي هذه الأثناء، يراقب دو جراند - أوربي سحنة كيم بانتباه ويردف بصوت رقيق:

- سأقول لك ماذا ستفعل، مسيو فرانش. ستأخذ طائرة وتعود إلى فرنسا غدًا دون تأخير، عن طريق اليابان.

- قلت لك إن الطائرات تصيبني بالدوار.

- إذن اذهب في مركب. ثمة ألف طريق لمغادرة شنغهاي، مسيو، والمهم أن يفعل المرء ذلك بقدميه بدل أن يكون عليهم أن... يدفعوه - يعاود الابتسام وتكاد عيناه تنغلقان تمامًا - أتفهم؟

- لم كل هذا الاهتمام بأن أذهب، يا دو؟

---

(١) Amapola.

- لنقل إن في شنغهاي أكثر مما يجب من الشيوعيين.

- هل هذا ما يعتقده عمر؟

- لا أدري ماذا يعتقد هذا الجنتلمان المحترم - يقول دو، وتتلاشى ابتسامته .. فليس صديقي.

- حقًا؟

- يمكن أن تسأله.

- إذن، فمعلوماتي غير صحيحة.

- فعلاً - يقول دو .. حسنًا، مسيو، ما ردك؟ هل ستضع نصيحتي في اعتبارك؟

- لدي خطط أخرى. ولا يدخل فيها إضاعة وقتي مع أمثالك

- يقول كيم. ويردف .: جيا اكسي جن زو[١]

وهو تعبير يُقال في الصين حين يحاول أحد خداعك من خلال كوميديا.

- تشانج شو[٢] - يرد عليه دو .. حياة مديدة، مسيو.

يلقي كيم نظرة أخيرة على التابعين اللذين يحميان دو يويشنج، ويستدير نصف دورة ويعود إلى البار عابرًا صالة القمار ومحاذيًا منصة الرقص، متذوقًا آخر ألحان أمابولا والعطر الفواح الذي لا يذبل لشعر أمك الأشقر. يدفع ثمن الويسكي ثم يغادر اليلو سكاي كلوب.

يقرر العودة إلى المنزل سيرًا على الأقدام وحين يصل تكون الساعة قد بلغت زهاء الثانية والنصف. كانت تشن جينج قد أعطته قبلها مفتاحًا، حتى

(١) Jiaxi zhen zu.

(٢) Chang shou.

لا يحتاج إلى إيقاظ دنج، الذي ترك أنوار الصالون والشرفة مضاءة، مثل كل ليلة. وفي غرفته، وبينما يخلع ملابسه، يفكر كيم في دو جراند - أوريي: ماذا وراء تهديده؟ وأي مصالح يخدم، ولصالح من؟

الجو شديد الحرارة وقبل أن يأوى إلى فراشه يدخل تحت الدش، ثم يعبر الصالون ملتفاً في برنس ويخرج إلى الشرفة ليدخن سيجارة. يسمع ضجيجًا خلف ظهره وحين يلتفت يجد دنج، يقف في احترام وصمت، مترددًا خلال بضع ثوان.

- هل يحتاج المسيو إلى شيء...؟ - يقول الخادم الوفي أخيرًا.

يراقبه كيم بانتباه. يسأله عن السيدة، فيخفض دنج عينيه ويقول إنها نائمة منذ انصرف المسيو.

- هل تعشت؟ - يسأل كيم.

- لا، مسيو، لم تشأ أن تأكل شيئًا.

يظل دنج موجهًا بصره إلى الأرض، متفكرًا. يبدو أنه يريد أن يضيف شيئًا، لكنه ينسحب أخيرًا.

ينام كيم نومًا سيئًا وينهض عند الفجر. من النافذة يرى شمسًا حمراء كبيرة تبزغ من البحر. وبعد أن يتناول شايًا في المطبخ يظن أنه نسي السجائر ليلة البارحة في الشرفة ويذهب للبحث عنها، لكنها ليست هناك؛ يعود إلى غرفته ولا يجدها هناك أيضًا. في هذا الذهاب والإياب يعبر الصالون الفسيح أربع مرات، وفي كل مرة، يتوقف بضع ثوان ناظرًا إلى كل ما حوله: الأرائك المنجدة والمساند الحريرية، البيانو الضخم، الصوان الضخم وبه المراوح وتماثيل اليُشب والزجاج، النباتات ذات الأوراق اللامعة

الخضراء والستائر العالية؛ يفعل ذلك بإحساس غامض بحضور جديد، بعاطفة نافرة كامنة عن قرب لكنه ما زال لا ينجح في تبينها، بالإحساس الحي بأنه إزاء شيء لم يكن موجودًا في الصالون من قبل. البيانو مفتوح ولوحة مفاتيحه عارية، وصامتة وفي نفس الوقت بليغة إلى حد أنها تبدو وكأنها ترغب في إعلان ذلك...

يحس كيم أن قلبه ينبهه قبل عقله. لم يتبين بعد موضوع قلقه، لكنه يحدس أنه الآن حقًا سيلتقط الإشارة، ربما لأنها هذه المرة أكثر من إشارة أو إنذار بالخطر، إنها تعبير عن عاطفة وها هي ذي، فوق البيانو بالضبط: الوردة الصفراء ذات العنق الطويل التي لم تكن موجودة حين وصل البارحة والآن، وقد ذوت قليلاً، وصارت على وشك فقدان تلك النضارة وذاك اللون الشديد الحيوية اللذين كانا بالأمس ينبعثان منها على إحدى موائد اليلو سكاي كلوب، تميل في كأس مستدق من الزجاج وكأنها تريد النظر إلى نفسها في السطح اللامع للبيانو الضخم، يتساقط منها العبق الأخير والغموض الأخير.

٤

كان الليل وعطر الوردة قد اخترقا القاعة دون أن ندري ونهضت لأضيء النور. لم تكن زهرة النسيان الزرقاء، أيها الغلامان، وليتها كانت؛ بل كانت زهرة خيبة الأمل الصفراء... وهنا توقف فوركات عن حكايته كأن الضوء الكهربائي قد قطع فجأة خيط ذكرياته ونهض من على حافة الفراش، ومشى بضع خطوات جيئة وذهوبًا مطرق الرأس بشكله الشبيه بفومانشو، ويداه مختفيتان في كميه وملتصقتان ببطنه، ثم ربت رأس سوسانا وخرج إلى الحديقة.

عاد بعد برهة، لكنه قبل أن يدخل، من عند الباب ويداه خلف ظهره، أمرني بأن أطفئ النور. فعلت فدخل ويداه مرفوعتان، مظهرًا راحتين مكسوتين تمامًا بالنور، تلتمعان معلقتين في الظلام كأنهما راحتا شخص آخر.

- وأنا كمان! - قالت سوسانا متحمسة - وأنا كمان!

- افتحي يدك. - وضع فوركات في يدها بعناية ثلاثًا من ديدان الوهج -. أتريدين أن تصبحي شبحًا في الظلام؟ ادعكيها برقة شديدة على وجهك، وهكذا، ستصيرين شبحًا لبرهة.

- لبرهة فقط؟ - قالت هي.

- الأشياء الجيدة لا تدوم طويلاً، أنت تعرفين.

برز وجه سوسانا من الظلمات كأنه قناع مضيء، عندئذ مضى فوركات إلى المطبخ وتركنا وحيدين؛ تلك الليلة كان يود مفاجأة السنيورة أنيتا، التي كانت على وشك العودة من السينما، بطبق آخر من أطباقه الخاصة.

- تعال - قالت سوسانا بصوت خافت، مقرفصة على الفراش -، قرب وجه العبيط هذا. هيا، لا تخف، اجلس إلى جواري...

جلست على الفراش ودلكت هي ديدان الوهج في وجهي وصدري بحركات سريعة، فاتحة أزرار قميصي، كانت الديدان باردة وتثير الدغدغة، ثم فكت سوسانا أزرار قميص نومها وأدخلت الأصابع الغريبة الملتمعة بالفوسفور عند مستوى قلبها تاركة على الجلد ومضات عابرة من الضوء. ودون أن تدير بصرها عني، اقتربت مني أكثر زاحفة على ركبتيها فوق الفراش، وظهرها مقوس إلى الخلف، ومتوتر، وتلكأت يدها المشتعلة تحت

قماش قميص النوم لتدعك ثديها. كان وجهي قريبًا جدًا من وجهها، الذي أخذ وميضه الفوسفوري الشبحي يخبو بسرعة ويحثني على التصرف منتهزًا فرصة نوع لا أدريه من التَقَنُّع، والمجهولية أو الإفلات من العقاب. وشعرت بتنفسها المضطرب وبتنفسي كذلك، لكنني كنت مبهورًا بالدرجة الأولى بالثدي النوراني الذي يكشف عن الإبط وسمعت بالكاد وشوشة صوتها : -

- هل تحب أن تقبلني...؟ إذا لم تفكر كثيرًا في ميكروباتي، أمكنك أن تقبلني. نعم تحب، يا عبيط. لكن قبلة عميقة، هيه؟ ردا جحش وأكثر من جحش!

عشت من جديد ألف مرة ذلك الوميض الفوسفوري وذاك التوقد في الظلام، ذاك المزيج المريض من الجنس المقنع والمرض العضال والخجل، ودائمًا ما تجتاحني نفس الحسرة، نفس الشك: فلست أدري إن كانت سوسانا هي التي سمحت لي بمجرد لمس شفتيها أم أنني أنا الذي لم أرد الذهاب إلى أبعد من ذلك.

بالطبع كنت أشتهي أن أقبلها، وأن أخلع ملابسها وأريت على نهديها وفخذيها المحمومين، وكنت مستعدًا، ما دام لا مفر من ذلك، أن ألتقط العدوى من ريقها ومن نفسها وأن أنال نصيبي من الميكروبات... لكنني بالتفكير في ذلك فقدت مرة أخرى بضع ثوان ثمينة، وتخشبت، فلاحظت هي ذلك وأبعدتني بيديها.

- حسنًا - قالت -. الآن اذهب - وعاودت الاستلقاء بين الملاءات. كانت بقايا من ضوء لا تزال في وجهها وفي يديها، انطفأت تمامًا على الفور.

- ما أقل ما تدوم - قلت لكي أقول شيئًا، وأنا تعيس.

- نعم، قليلاً جدًا.

- غدًا، إذا أردتِ، بحثت لك عن المزيد من ديدان الوهج في الحديقة لنلون بها أنفسنا مرة أخرى...

- نعم، غدًا - قاطعتني -. لكن الآن أضئ النور واذهب.

## ٥

ذات مناسبة، سمعت الكابتن بلاي يحكي في أحلام يقظته عن مهنته الأصلية المحبطة، مهنة النشال الراقي، مهنة أولئك الذين يحركون «مناقيرهم» في عربات الترام والمترو بكل الحذر وكل البراعة اللذين يجعلان من المهنة فنًا حقيقيًا. قال لي إن يده ما زالت تحتفظ بذاكرة لمسية معينة، بحنين غاف لحافظات النقود الجلدية المبطنة بالساتان الساخن، لأنه في صدر الشباب قام بتدريبات وتلقى دروسًا نظرية من الخطيب الأول للدونيا كونشا، وهو رجل بارع من مورثيا[1] سكن بعض الزمن في الحي، وانتهى الأمر بالكابتن إلى أن سرق منه ليس حافظ نقوده، بل خطيبته...

حسنًا، لم أصدق الحكاية تمامًا، مثلما في العديد من المناسبات، لكن ذات صباح وأنا أتبعه متثاقلاً في نواحي كان كومبت[2] وريح دافئة تضرب ظهري وحافظة التوقيعات تحت إبطي، أتيحت لي الفرص للإعجاب بشكل عابر بمهاراته. ذلك اليوم، كان الكابتن يفتتح ضمادات نظيفة وكان رأسه المدبب المرتفع، بشعره النافر عند شوشته، يبدو كجزرة بيضاء. ولا أدري لماذا، ربما

---

(١) murcia مَرْسِيَّة عند الأندلسيين، تقع فى إقليم أليكانتى جنوب شرقى إسبانيا - م.

(٢) Can Compte.

لإضفاء لمسة رومانسية على تنكره المهلهل في هيئة من أصيب في حادث، كان منذ يومين يربط ذراعه بكوفية رمادية قديمة معلقة في رقبته.

كنا قد بلغنا الجزء الأخير من شارع ليجاليداد، حيث كانت المصابيح مكسورة بإلقاء الحصى عليها ولوحة اسم الشارع غير قابلة للقراءة، انتظرني الكابتن حتى لحقت به، وأسند يده على كتفي وظل ساكنًا لبرهة ينصت إلى وشيش الريح في أشجار النخيل. حينئذ فرملت سيارة بعنف إلى جوارنا، وأخرج السائق رأسه من نافذتها، وبعد أن تأمل، بالغ الاندهاش، هيئة الكابتن، سأله إن كان شارع ليجاليداد قريبًا. كان رجلاً ممتلئًا، ذا أنف أفطس، وشفاه غليظة وشعر أسود ناعم مدهون بالبريانتين. كان يرتدي سترة رياضية أنيقة زرقاء شديدة الشبه بسترة عسكرية، بكتافيات عالية وأزرار ضخمة، مفتوحة عند الصدر الكثيف الشعر وتظهر منها مجموعة من أقلام الحبر الرائعة مشبوكة في الجيب الداخلي. أجابه الكابتن إننا بالضبط في الشارع الذي يبحث عنه، وأدهشني أن يفعل ذلك بالقطالونية. إنها المرة الأولى التي أسمعه فيها يتكلم بلغته :

- Justament ens trobem en el carrer que busca, senyor, es aquest...(١)

قاطعه الرجل بجفاف:

ـ أنا لا أفهم لغة الكلاب، يا هذا. كلمني باللغة المسيحية.

- Que diu, senyor?(٢)

---

(١) أنت بالضبط فى الشارع الذى تبحث عنه، يا سيدى، إنه هذا...

(٢) ماذا تقول يا سيدى؟

- أجب بالإسبانية، حين تُسأل! - ولاحظ الذراع المربوط للكابتن، والبيجاما المخططة والمعطف، والضمادة والنظارة، وأردف متهكمًا -: من أين خرجت بحق الشياطين بهذه الهيئة؟ هل هربت من غرفة عمليات جراحية أم من مستشفى مجانين؟

- No n'has de fotre res, gamarus. (١)

فهم الكابتن، وأنا أيضًا، أننا إزاء شخص لا يعرف ولا يريد أن يعرف كلمة واحدة من القطالونية. ترك الرجل فرملة اليد وبحركة نشطة أكمل فتح زجاج النافذة، مصممًا : -

- حدثني بالإسبانية، أقول لك، يا أحمق! أو أقسم لك أنني سأجعلك تفهم! لنرى، أين يقع شارع ليجاليداد اللعين ذاك؟!

افتر ثغر الكابتن بلاي عن ابتسامة ودية بين الضمادات وانحنى باحترام أمام نافذة السائق الحانق، وفي هذه اللحظة عرفت أن الحماقة قد بدأت. كنت قد تأخرت في التقاط إشارات الخطر: لازمة عصبية، والرأس المائل قليلاً، ونحنحة من المعتاد أن تسبق تأملاً عميقًا، وتوترًا عضليًا أو خشخشة للعظام تعتقد حواسي أحيانًا أنها تلتقطها، فكأن العجوز المجنون حين يفرد ظهره تنبهني طقطقة فقراته إلى الحماقة الجديدة الوشيكة. وفي الحقيقة، لم يكن واضحًا لدي أبدًا ولم يهمني كثيرًا إن كان ما يحرك الكابتن، خصوصًا في المواقف المعاكسة، هو دافع لاعقلي بالمعنى المحدد، ذلك الشيطان الذي يحمله داخله، أم أنها عادات عقلية ملازمة للهزيمة، نوبة الغضب الأخيرة لروح منتقمة ضالة خارت قواها. في تلك

---

(١) ليس هذا من شأنك، يا أحمق.

المواقف، كنت أكتفي بالبقاء واقفًا إلى جواره، صامتًا ومتوقعًا. الآن حدقت عيناه المحتميتان خلف النظارة الداكنة في هدفها في صدر السائق: ولا بد أنه فكر، إذا كانت الأقلام في هذا الجيب، فالمحفظة في الآخر.

ـ نعم، يا سيدي، لا مؤاخذة، قال الكابتن بأكثر الأصوات خضوعًا ـ. إنني أتكلمها بشكل سيء جدًا. ولا يتعلق الأمر باللهجة، لا، فالمرء لا يحاول حتى أن يقارن نفسه بسيد من مدريث.(١) إنه بناء الجملة، أتعرف؟، التدفق الطبيعي للغة...! أما أنني حمار! لا تلتفت إليّ...!

ـ خلاص، اللعنة، لننته من الأمر! قل لي بحق جهنم أين شارع ليجاليداد مرة وخلصني، إن كنت تعرف، أيها العجوز الخرف، ثم اذهب إلى الجحيم!

ـ طبعًا أعرف! انظر، خذ سيادتك أول شارع على اليمين فترى على الفور ميدانًا، هناك استدر مرة أخرى إلى اليمين وسوف تصل إلى طريق الخنراليسيمو،(٢) دياجونال سابقًا، ثم استمر سعادتك إلى اليمين طوالي وسوف ترى تمثال القس سينتو فرداجير، وهو شاعر عامي وانفصالي مشكوك في موهبته، كما تعرف حضرتك...

ـ هيا، هيا، لا تضيع عليّ المزيد من الوقت!

ـ حسنًا، ثم من هناك على طول ولا تتوقف حتى تتجاوز بيدرالبيس، ومن هناك سترى حضرتك يافطة تقول سان باوديليو، أو بالأحرى سانت بوي، واصل مسافة كيلومترين آخرين وستجد نفسك في شارع ليجاليراد، لا يمكن أن تتوه...

---

(١) العاصمة مدريد كما تنطق بلهجة أهلها ـ م.

(٢) لقب الجنرال فرانكو ـ م.

بينما يتحدث، أسند الكابتن ذراعه المربوط على النافذة واليد الأخرى على سقف العربة. وفي لحظة معينة نقر بأصابعه على الصاج. كان الصوت مثل صوت قطرات المطر فرفع السائق المنزعج بصره لثوان. كانت كافية. تحركت اليد الخاملة المعلقة بالرباط بسرعة خاطفة نحو الجنب الأيمن للسائق، بالسبابة والوسطي مفتوحين على هيئة منقار، وبسرعة البرق، انتقلت محفظة منتفخة من الجلد البني من هناك إلى الجيب العميق لمعطف الكابتن، حين كان يردف:

- حقيقي أنك لا يمكن أن تتوه.

- أترى، كيف أنكم تعرفون كيف تتحدثون كما يأمر الرب؟ - ابتسم الرجل هازئًا وهو يدير مفتاح التشغيل.- الموضوع هو أنكم لا تريدون، من وضاعة أصلكم، اللعنة.

- أنا شديد الشرود، اعذرني - اعتذر الكابتن، آسفًا - منذ لا يريد الحديث بلغة الامبراطورية؟ وأنا بالذات تروقني اللغات، الإنجليزية، الفرنسية...

- يكفينا ويزيد لغة واحدة! - لم يستطع إدارة المحرك.- إنك ما زلت تتحدث ككلب، لكن ستزول اللكنة منك مع الزمن.

- مع الزمن، نعم يا سيدي، هذا ما أرجوه - هز الكابتن رأسه بخضوع .- إننا نفعل ما نستطيع، نعم يا سيدي. مع الزمن. لا تنس: طوالي حتى سانت بوي. لن تتوه.

- اسمع، أنت دمك خفيف، يا جد. قبل أن أذهب أريدك أن تصنع لي معروفًا آخر - نظر إلى الكابتن بعينين ساخرتين ومشفقتين .- حقيقي أنني استلطفتك، يا أحمق. لنر، كرر معي: dieciseis jueces comen higado[1]

كيف تقول هذا؟ قله بسرعة.

---

(١) القصد هو التهكم على عدم قدرته على النطق الصحيح لحروف س وث كثيرة وقريبة من بعضها. مثلما تقول في العامية المصرية: قميص نفيسة نشف، لسه مانشفشي - م.

ـ إنه بيت شعر وطني لجوان ماراجال.

ـ لم أكن أعرف. هيا. قله.

ـ إنه يفقد الكثير بالترجمة. وهو يشير إلى رجل علقوه مشنوقًا في جبل مونتسيرات، أنت تعرف، حيث المورينيتا...

ينفد صبر الرجل، وهو يضحك. أخيرًا دار المحرك.

ـ ترجمه لي، هيا، يا مهرج!

ـ نعم، يا سيدي، تحت أمرك. ستة عشر قاضيًا يأكلون كبد مشنوق. وله بيت آخر جميل جدًا بدوره، هذا الشاعر ماراجال:

elastics blaus suats fan fastic

وهو مُهدى إلى الجيش الألماني المجيد.

ـ ترجمه إلى المسيحية، يا أهبل.

ـ أحزمة زرقاء غارقة في العرق رائعـ...ـعة.

ـ أنت شخص ظريف، رغم كونك قطالونيًا. هيا، عسى أن تنال الكثير من الصدقات، أيها العجوز المخبول.

ـ أطلق ضحكة مخشخشة، كما أطلق قدمه من فوق الفرامل فانطلقت السيارة بعنف. وقبل أن نراه يترك شارع ليجاليداد وينعطف عند الناصية، جذبني الكابتن من يدي وتسللنا في الاتجاه المضاد. قال، أرسلناه إلى سابع أرض.

كان في المحفظة مائة وخمسون بيسيته. أعطاني الكابتن الخمسين، وحظر عليّ إنفاقها في السينما وفي البلياردو. «اشتر ورق رسم لكي ترسم» قال، «والباقي لأمك، فهي في أشد الحاجة إليه».

في الليل حكيت الأمر لأمي فأشفقت على الكابتن، وقالت لي إنها سترجو السيدة العذراء أن تمنح العجوز صحة جيدة، ووضوحًا في ذهنه، وعمرًا مديدًا؛ وأن ما فعلناه ليس طيبًا. أن نرسل ذلك الرجل المسكين إلى مسافة بعيدة هكذا، يا للفظاعة. لكنها احتفظت بالنقود عن طيب خاطر.

# الفصل السابع

## ١

ظلت تعذبني ذكرى ديدان الوهج المدعوكة في جسدها وبقعة أحمر الشفاه على أسنانها، وزهرة فمها السامة وهي تتفتح ذاك اليوم الذي تظاهرت فيه بأنها ميتة، وأحسست بأن شعورًا بالخجل والحزن ينمو في داخلي.

وبعد ذلك بأسبوعين سنحت لي الفرصة للحصول على العفو.

لن تتجاوز أيام الأحد التي خرج فيها فوركات من البرج ذاك الصيف خمسة أو ستة أيام، دائمًا بصحبة السنيورة أنيتا ودائمًا، فيما عدا المرة الأولى، في الصباح؛ وفي مرات خروجه الأخرى كان يذهب وحيدًا ويحضر أشياء للطعام. إذا كان اليوم يوم أحد، كانا يذهبان معًا إلى الحفلة الصباحية لسينما روكسي وفي عدد من المرات، في وسط الأسبوع، إلى الحمامات الشرقية في شاطئ برشلونيتا. كانا يعودان حاملين بطيخة أو كيلو جراماً أو إثنين من بلح البحر أو الشعرية المبططة[1] وكان فوركات

---

(١) عجينة مثل الشعرية يصنعها الفلاحون بجعل العجينة مبططة ثم تقطيعها إلى شرائح رفيعة - م.

يصنع المايونيز ثم يدخل شديد الوقار والاحتفال إلى القاعة مقدمًا لسوسانا صحفة كبيرة من بلح البحر المطهى على البخار، وعندها تنادي سوسانا الأخوين تشاكون عبر الحديقة ونأكل جميعًا حول الفراش.

لم تعد أمها تتركها وحيدة في المنزل أبدًا، فلم يكن فوركات يوافق على ذلك. كانا يخطراني بخروجهما في المساء السابق فأبقى لمصاحبتها، بعد أن أُبلغ الكابتن بلاي.

وذات أحد كنا فيه وحدنا، وبعد أن مزقت مرة أخرى رسمي لأنه لا يعجبها، قرفصت سوسانا في الفراش واقترحت أن نقوم بزيارة تفتيش إلى غرفة نوم الضيف.

- لا يجب أن تمشي حافية - قلت لها بينما نصعد إلى الطابق الأول في السلم الحلزوني.

كانت غرفة فوركات ضيقة ومظلمة، وبدت في نظافة ونظام دقيق. كان هو نفسه يرتب الفراش ويمسح غرفة الحمام الصغيرة، التي كان بابها مفتوحًا. على المنضدة الليلية الصغيرة كان هناك كوب ماء مغطى بطبق قهوة صغير، وحبات أسبرين، وطفاية سجائر نظيفة وعلبة سجائر ماركة إيديال. لم نكن قد رأينا فوركات أبدًا يدخن في البرج، ولا حتى في الحديقة، ولا بالطبع في القاعة أمام سوسانا. وكانت حقيبة الكرتون القديمة تحت السرير.

- هل نفتحها، لنرى ما بداخلها؟ - قالت سوسانا.

جذبت مقبض الحقيبة وفتحتها سوسانا، المقرفصة إلى جواري، فانبعث منها عطر فاغم وبري، هو الرائحة التي لا تخطئ ليدي فوركات. كان

بداخلها خليط من قصاصات الصحف الفرنسية، وخرائط وكراسات دعاية لوكالات سفر، وكراسات أغاني من ذات الخمسة ملاليم، وكتاب دون غلاف تصفحته الأيدي عنوانه الحملة من أجل الخبز، وأغلفة اسطوانات أجنبية عليها أغنيات بالإنجليزية والفرنسية وفي ركن الحقيبة، ملفوفًا في بلوفر أسود قديم يلف بدوره قطعة جلد شمواه صفراء شديدة النظافة، ظهر مسدس صغير ذو ماسورة قصيرة، لا يلمع ومن الجدة بحيث بدا غير حقيقي.

- هل هو لعبة - قالت سوسانا.

- ماذا تقولين - وزنته في يدي -. أيكون محشوًا؟

انتزعته مني سوسانا، ولفته بسرعة في جلد الشمواه وفي البلوفر ووضعته من جديد في الحقيبة، وانتقلت إلى فحص قصاصات الصحف. كان أغلبها أخبارًا صادرة من باريس ومن شنغهاي، وجميعها بالفرنسية، وكان ثمة صورة لمتسابق دراجات كبير الأنف، هو فاوستو كوبي[١]، على قمة ممر جبلي تغطيه العاصفة الثلجية وعلى صدره يتقاطع إطارا دراجة ووجهه يكسوه الطين، مثل شبح في وسط الجليد. وتحت كوفية متآكلة وجدنا جواز سفر عليه صورة فوركات لكنه صادر باسم خوسيه كاربوه بالأجير، وداخل جواز السفر، ورقة مطوية عليها ملاحظة لكيم مع توقيعه، تقول: «أنا مدين لصديقي ف. فوركات بمبلغ هائل هو مائة وخمسون فرنك (١٥٠ف)، وكاسٍ من الكونياك وشلوت في مؤخرته لإقراضه النقود لشخص قليل الحياء مثلي: جواكيم فرانش. تولوز، مايو ١٩٤١» كذلك وجدنا جراب أقلام قديم

(١) Fausto Coppi.

ملطخ بالحبر يحتوي على بعض العملات الأجنبية وتذكرة لمترو باريس. لا رسالة، ولا صورة، باستثناء صورة متسابق الدراجات المجتهد... أصابتنا خيبة الأمل والارتباك. ألم يقل فوركات إنه لم يمسك مسدسًا أبدًا؟ هل هذا هو متاع رجل ارتحل ورأى نصف العالم، رجل مثقف ودارس، فوركات المغامر العابر للأطلنطي، كما وصفه الكابتن بلاي؟ فقط يحمل كتابًا يبدو من زمان غابر.

أما أكثر ما استرعى انتباهنا فهو ثلاث قوارير فيرموت موضوعة في ركن الحقيبة، بسدادات فلين ومملوءة بسائل عكر، له خضرة خفيفة. نزعت سوسانا سدادة إحدى القوارير وشممنا محتواها وخدانا ملتصقان، عندئذ اختلط العبق الدافئ لشعرها ونفسها المحموم بالرائحة الفريدة ليدي فوركات.

ـ ماذا يكون ذلك؟ ـ قالت سوسانا بتقطيبة نفور، وسارعت بإغلاق القارورة. كنت بتأثير دافع مفاجئ، قد طوقت خصرها بذراعي، وحين أدارت وجهها لتنظر إلي، توقفت عند شيء خلفي لم تكن قد رأته من قبل وتغير تعبير وجهها: كان الباب المفتوح لغرفة الحمام يظهر الثوب البنفسجي ذا الشرائط الحريرية، معلقًا على الحائط، بجوار الكيمونو الأسود وبيجاما فوركات.

ظلت لبضع ثوان ساكنة تنظر إلى ثوب أمها.

ـ اتركي هذا ولننصرف ـ قلت قاصدًا القوارير، التي ظلت إحداها في يدها ـ لن يتأخرا في العودة وسوف يضبطاننا...

ـ وماذا يعني هذا ـ قالت ـ الأمر سواء بالنسبة لي.

حينئذ... استجابت وحركت قاع الحقيبة لتترك القارورة بجانب الأخريين. أطلقت صرخة وسحبت يدها بعنف وكأن حشرة مختبئة هناك قد قرصتها. انبثق الدم أحمرًا كثيفًا من طرف إصبعها الخنصر.

ـ مُصدري ... ـ قلت وأنا أفحص قاع الحقيبة. وجدت سكين حلاقة كان قد برز من جرابه ـ. انظري. إنه هذا. سأضع لك كحولاً.

ـ لماذا. ابتغي أموت نزفًا وأستريح ـ قالت سوسانا وهي تضغط إصبعها كما لو كانت تريد عصره ـ. يا ليت.

ـ لا تقولي هذا ـ لففت الإصبع مؤقتًا في ذيل قميص نومها، وظللنا كلانا مقرفصين على الأرض بجوار السرير وعيناها تبحثان من جديد عن ثوب أمها البنفسجي في غرفة الحمام. طفر الدم من نسيج قميص النوم فأمسكت يدها، وكشفت الأصبع، ورفعته إلى فمي دون أن أتيح لها وقتًا لرد الفعل وأخذت أمص. كانت مجرد لحظة: نظرت إلي مندهشة، وبينما كنت أمص، كانت أصابع يدها الأربعة الأخرى المرتجفة والملتهبة تتحسس برفق وجنتي من أعلى إلى أسفل في إيماءة راق لي أن أفسرها على أنها تربيتة. جعلني الذعر من العدوى والعاطفة نفسها أغلق عيني، لكن الدم الدبق بدأ بحرارة يتملك حلقي ويافوخي: لم يكن يهمني أن أموت مصدورًا بينما تنظر هي إلي على هذا النحو وأصابعها الحارقة تنزلق فوق جلدي. لكنها على الفور أبعدت يدها وقالت:

ـ ماذا تفعل، يا ولد؟ أتريد أن تصيبك العدوى؟

ـ لا يهمني.

ـ يا نصاب.

- أقسم لك.

- أنا يهمني... - نهضت وخرجت مُتعجِّلة من غرفة النوم. أغلقت الحقيبة، ودفعتها تحت السرير وتبعت سوسانا هابطًا الدرج بينما أحس بأن دمها الدافئ والحلو يذوب في فمي، بالحمى الخبيثة للرغبة، واحتياجها للرقة وفزعي ومخاوفي الخاصة.

## ٢

مستلقية على ظهرها في الفراش، ذراعها اليمنى مثنية تحت رقبتها، والوجه البالغ الشحوب ملتفت نحوي وناظر إلي بلا مبالاة، نائية وتحت عينيها هالتان داكنتان، وفي شعرها قرنفلة صفراء والقط القماشي جالس شديد التصلب يرقبها خلف رأسها، واللحاف السماوي متدل بإهمال رومانسي ومحسوب من حافة الفراش حتى يلمس أقدام المدفأة الحديدية التي تحمل القدر الذي تتصاعد منه أبخرة الكافور، وخلف كل هذا النافذة الزجاجية الضخمة ووراءها الصفصافة الباكية في الحديقة، وفي الخلفية إلى أعلى، المدخنة القاتلة، مشرفة على مشهد متهدم ومبطط، تتقيأ دخانها الكريه الأسود الخانق فوق البيت الزجاجي حيث ترقد الطفلة المريضة...

ساذجًا ومرعبًا على هذا النحو كان الرسم الذي فرغت أخيرًا من تلوينه ووافق عليه فوركات بعد أن نصحني ببعض اللمسات؛ تحولت القرنفلة من الأصفر إلى الأحمر، واكتسبت الجبهة المحتضرة، والوجنتان الذابلتان، والقدمان العاريتان لسوسانا وميضًا عاجيًا خفيفًا. لم أتمكن من وضع الخوف في تلك العينين الجميلتين، الشديدتي المرح أحيانًا، وهنأت نفسي على ذلك. وبالكاد وجهت إليه سوسانا نظرة احتقار.

وبالمقابل، أظهر الكابتن الرضا وسارع بالاحتفاظ به في حافظته مع رسالة الاستنكار والتوقيعات. أربعة عشر توقيعًا كانت هي كل ما حققناه حتى لحظتها، لكنه كان واثقًا من أن الرسم الذي يمثل المصدورة المسكينة في معاناتها سيصل إلى قلب المواطنين ملتمسًا تضامنهم.

شرعت على الفور في العمل في الرسم الآخر وفكرت أن أجعله شديد الشبه بالأول في كل شيء باستثناء شكل سوسانا المستلقية في الفراش؛ فقد كانت هي تريد أن تظهر في هيئة حالمة ومرتدية تشيباو أخضر ضيق جدًا. لكن لا الوضع الناعس ولا الرداء الغرائبي طاوعا أصابعي؛ كنت أبدأ الرسم ثم أمزقه المرة بعد المرة، يومًا لأنه لا يعجبها واليوم الآخر لأنه لا يعجبني أنا. ورغم ذلك، فإن سوسانا، في ذلك الثوب الحريري الذي ما زال سيء الخطوط وبلا ألوان تقريبًا، المغلق حتى العنق وشبه المجعد، بدأت تبدو مثل صينية حقيقية وكان في الرسم شيء لا يمكن تحديده يروقني حقًا، ويرجع بالطبع إلى توليفة عرضية للألوان أكثر مما يرجع إلى مواهبي في الملاحظة وبراعة يدي: الآن بدا ان الدوامة ذات الفقاقيع التي تنتشر من فوهة المدخنة، الدخان الأخضر المسود المعلق فوق الرأس المستلقي لسوسانا، يهدد فعلاً أحلام المسافات البعيدة والحراير الشرقية التي يوحي بها وضع الصبية المصدورة وفستانها. وفي تلك الأيام بالضبط قالت لي هي أن فوركات على علم بسفينة بريد إنجليزية، هي منشكين ستار(١)، تبحر مرتين في العام من ليفربول نحو شنغهاي وتتوقف في برشلونة في أكتوبر وفي أبريل.

---

(١) Munchkin Star.

- حواف الجونلة ليست هكذا - احتجت مرة أخرى عندما عرضت عليهاالرسم - أنت تخترع الفستان، يا ولد. هاتان الفتحتان يجب أن تكون حوافهما مستديرة...

- لا شيء من هذا - قلت - لقد رأيته في الأفلام والحواف هكذا. اسألي فوركات.

قذفت اللوحة على رأسي، وبللت منديلها بماء الكولونيا ودلكت صدرها ووجهها، ثم أمسكت أوراق اللعب وبدأت تلعب دورًا منفردًا فوق لوحة السلم والثعبان على حجرها.

- إلى متى يتأخر - قالت بعد برهة - كلما ازداد الحر، كلما أطال القيلولة. ألا تظن أن من الواجب إيقاظه؟ لماذا لا تصعد لترى؟

- سيغضب يومًا ما.

- دع هذه الأقلام واصعد لتحضره، هيا - أصرت سوسانا - الوقت متأخر جدًا، لا بد أنه راح في النوم... من فضلك، يا داني.

لم أصادف أبدًا باب غرفته مغلقًا، لكنني كنت أطرق بأصابعي وأنتظر في الردهة. أحيانًا يكون نائمًا على ظهره مرتديًا سروالاً داخليًا، ويداه الغامضتان مشتبكتين في هدوء فوق بطنه، وأحيانًا أخرى كنت أجده واقفًا وقد خرج لتوه من الدش، ملتفًا في الكيمونو الرائع الأسود ولابسًا صندله ذا النعل الخشبي، ممررًا ببطء فرشاة على شعره المكوي وناظرًا إلى نفسه برضا في مرآة الدولاب.

- ظننا أنك ما زلت نائمًا...

- من الذي ظن ذلك؟ - قال - سوسانا أم أنت؟

ـ حسنًا... كلانا.

ـ حسنًا.

ألقى الفرشاة فوق الفراش، استدار مبتسمًا ووضع يده الضخمة والدافئة فوق كتفي موجهًا إياي نحو السلم الحلزوني لنهبط معًا، وأنا في المقدمة، ثم لنعبر الردهة المظلمة باتجاه القاعة المشمسة. وحين دخلنا، كانت سوسانا مضطجعة تسوي حاجبيها بملقاط في مرآة اليد. في هذه اللحظة دقت ساعة غرفةِ الطعام أول دقة فتمالكت في الفراش كأن زنبركًا يدفعها، طوحت بالملقاط والمرآة ونظرت إلى أبيها في الصورة على المنضدة الصغيرة. وقبل أن يعيدنا فوركات إلى الفجر المشبوب الذي يصبغ بالدم نهر الهوانج ـ بو وزجاج واجهات البوند، ويُشعل وردة صغيرة صفراء في صالون تشن جينج فانج، أغلقت سوسانا عينيها وظلت ساكنة تمامًا خلال بضع ثوان أمام صورة كيم. وبينما تنتهي لتوها الدقات الست، أخذ الراوية الأحول، الجالس الآن على حافة الفراش، يتنحنح ليجلو صوته ويتأمل بجهامة، هو أيضًا، في الوردة.

## ٣

واقفا بجانب البيانو، يمسك كيم الوردة وينظر إليها نظرة وسواسية كأنه سيحل مفتاح اللغز في بتلاتها المتراخية بفعل الحرارة وفي ضوئها الأصفر الخامد. ليلة البارحة كانت هذه الوردة تزين إحدى موائد اليلو سكاي كلوب، وحين تركت هنا، في هذا الكوب، كان هو قد نام بالتأكيد.

يستجوب الخادمة آيي ولا يستخلص منها شيئًا واضحًا. يتظاهر دنج، بدوره، بأنه لا يعرف شيئًا كذلك، لكنه لا يصمد أمام نظرة كيم ويقول بخجل وبدون اقتناع إنه ربما كانت الخادمة السيامية... بعنف يجر كيم الخادم من خناقه.

ـ دنج، أنصت إلي جيدًا. أنا مسؤول عن الأمن الشخصي لمدام تشن وسأقوم بعملي برغمك وبرغم أي شخص كان، بما في ذلك هي. من أجل صالح سيدتك قل لي ما تعرفه أو ألقي بك إلى التماسيح، أيها الصيني الملعون... أنا لا أهزل. البارحة أوت المدام إلى فراشها بصداع نصفي وقالت إنها لن تخرج. لكنها خرجت. أليس كذلك؟ رد!

يؤمن دنج على ذلك، مرعوبًا:

ـ نعم. بعد ساعة تقريبًا من خروج حضرتك... أجرت مكالمة تليفونية، وارتدت ملابسها ومضت. وجعلتني أعد بألا أقول للمسيو...

ـ في أي ساعة عادت؟

ـ متأخرًا جدًا. بعد الخامسة...

يقول إنه استطاع أن يراها عند وصولها لأنه لم يستطع مصالحة النوم، وأن الخوف من أن يحدث شيء سيء للسيدة قد أخرجه من فراشه، في تلك الساعة. أنه كان قد فهم من أول يوم أن المسيو فرانش، قد جاء من فرنسا مبعوثًا من مسيو ليفي لحماية مدام تشن من خطر ما، وأنه لا يرغب في شيء سوى المعاونة، لكن المدام أمرته البارحة بالتزام الصمت بصدد خروجها وكان عليه أن يطيع، رغم أنه ندم بعدها. وأنه عندما وجد أن الوقت قد تأخر إلى هذا الحد انزعج وكان على وشك أن يوقظ المسيو ويقص عليه

ما حدث، حين وصلت المدام، عند عبوره الصالون، وفي يدها وردة وطلبت منه كوب ماء، وضعت فيه الوردة ووضعته فوق البيانو؛ أنه تنفس الصعداء عند رؤية المدام، وأنه ما كان ليغفر لنفسه أبدًا لو كان قد حدث لها البارحة شيء سيء.

يوضح كيم لدنج الضرورة المطلقة، قبل أي اعتبار آخر، للسهر على أمن مدام تشن: كل تحركاتها، خصوصًا تلك التي تريد هي إخفاءها، يجب إبلاغها له في الحال.

- لن يتكرر هذا، أعدك - يقول الخادم -. لكن من فضلك لا تقل للمدام أنني قلت لك...

- اتفقنا، يا دنج، يمكنك الذهاب.

تذبل الوردة فوق البيانو ويظل كيم ناظرًا إليها بضع ثوان. لا يروقه ما حدث على الإطلاق ويقرر الانتقال إلى الفعل. لكن خلال ثلاث ليال متوالية، لا تخرج تشن جينج من المنزل. تستقبل زيارة إحدى صديقاتها وبالليل، حبيسة غرفتها، تدخل في محادثات طويلة بالتليفون مع باريس. خلال الصباح تشغل نفسها بعناية فائقة بالأمور المنزلية مع الخدم وفي المساء تقضي ساعات طويلة وهي تقرأ في الشرفة.

وعند معرفة أن كيم يود الحصول على زوج من الكيمونو الحريري، يظهر تشارلي وونج ذات مساء مستعدًا لمصاحبته إلى متجر زوجته في شنغهاي القديمة، بالقرب من مسرح جريت وورلد. تقول له تشن جينج إنها اليوم أيضاً لا تفكر في الخروج، ورغم ذلك يعطي كيم تعليمات دقيقة لدنج: «إذا خرجت السيدة، فاطلبني في متجر مدام وونج.»

تعاونه سوو لين، زوجة وونج، على اختيار أثواب الكيمونو وتتقاضى ثمنها سعيدة وباسمة دون أن تمنحه أدنى تخفيض، لكنها تهديه واحدًا آخر - سيهديه كيم فيما بعد إلي، هو هذا الذي أرتديه -. وعند الخروج من المتجر يُلمّح وونج لكيم، بطريقة لبقة وغير مباشرة، ألا يتردد في القول إذا أحس ذات مرة بأنه وحيد في شنغهاي ويريد الاسترخاء مع غليون من الأفيون والتمتع بصحبة أنثوية في جو لطيف... يشكر كيم العرض ويرفضه، لكن في نفس هذه اللحظة، والاثنان متوقفان عند تقاطع كثيف المرور، يرى كروجر وهو يترجل من سيارة بيضاء مكشوفة ويدلف في باب يتدلى فوقه فانوس ضخم من الزجاج وأكاليل حمراء من ورق الحرير.

يشير كيم إليه ليراه وونج :

- أليس هذا الجنتلمان الشديد الأناقة هو عمر الشهير؟

- بالضبط - يقول تشارلي وونج - لقد دخل هناك لتوه باحثًا دون شك عن إحدى تلك التسليات اللطيفة التي اقترحتها عليك للتو، يا صديقي العزيز

- هل هو أحد بيوت الدعارة التي يديرها؟

- لا. إنه مكان لتدخين الأفيون، رغم أنه أيضًا...

- انتظر - قاطعه كيم متوقفًا مرة أخرى على الرصيف -. هل حضرتك وهذا الرجل تتعاملان؟

- حسنًا... بين الحين والحين - يبتسم وونج بشقاوة - إنه شخص ممتاز ومفيد بمعانٍ كثيرة.

- وهل المكان ملكه؟

- أعتقد ذلك. أتود الدخول لنلقي نظرة؟

- يسعدني أن أتعرف بعمر. هل يمكنك تقديمي إليه؟

- بالطبع - يقول وونج.

مكان تدخين الأفيون هو نوع من خلية نحل مضاءة بشموع ملونة يبدو فيها كل شيء، الأرائك والستائر المنزلقة ذات الرسوم الملونة، والغلايين والصينيات وعليها أطقم الشاي، والخدم الذين يتحركون في سرية والمدخنون المضطجعون، كأنه يطفو في جو مغبش ومعطر يربت على الأصداغ والجفون مثل الأصابع الدافئة والماهرة لامرأة. يستقبلهما صيني عجوز عارضًا عليهما ركنًا مريحًا وغليونًا، لكن وونج يقول له أنهما يرغبان أولاً في الحديث مع السيد عمر وربما رغبا في شاي بعدها... وفي هذه الأثناء، يتقدم كيم. بعض الزبائن، منطرحين على جنوبهم فوق نسيج خشن أو واضعين أيديهم على رقبتهم، يستمتعون بحلم عميق، بينما يتناول آخرون الشاي أو أقداح الخمر الساخنة.

يضطجع عمر ماينينجن على مرفقه فوق أريكته، ويده على خده ويراقب بما يشبه الضجر كيف تقوم شابة صينية مقرفصة عند قدميه بإعداد الغليون وتُدفئه فوق لهب الشمعة.

يلحق وونج بكيم ويقدمه إلى عمر، الذي يمد له يده بأدب لكنه لا ينهض.

- إذا رغبتما في أي خدمة خاصة - يقول عمر ناظرًا إلى وونج -، فما عليكما سوى طلبها...

- هذا لطف منك - يقول كيم -. أردت فقط أن أحييك. لقد قيل لي إنه لا يمكن معرفة شنغهاي حقًا بدون معرفة الهر[1] ما ينينجن.

---

(١) herr : السيد بالألمانية - م.

- وأنا كذلك كنت أود معرفتك، يا سنيور فرانش - يفاجئ عمر كيم بالحديث بإسبانية سليمة إلى أبعد مدى - كما ترى، فإنني أتكلم لغتك.

- أعرف أنك عشت في أمريكا الجنوبية عدة أعوام.

- مؤكد. وماذا تعرف عني أكثر، يا سنيور؟ يبتسم الألماني -. هل تعرف مثلاً أنني أحسدك، فحضرتك رجل اليوم، أو بالأحرى، رجل الليل. فمنذ وصلت إلى شنغهاي تشاهد في كل مكان بصحبة السيدة تشن جينج فانج. لن تقول لي إن هذا ليس امتيازًا نادرًا، ليس هدية من ربة الحظ.

- الحقيقة أنني لا أستحق كل هذا الحظ - يقول كيم وهو يرد ابتسامته -. هناك ببساطة صداقة قديمة مع زوجها. أفترض أن حضرتك تعرف.

ينظر إليه عمر مليًا بضع ثوان ثم يمسك الغليون الذي تقدمه إليه الصينية الشابة بكلتا يديه.

- في هذه الحالة - يقول دون أن ينظر إليه -، فإن صديقنا ليفي رجل محظوظ مرتين. وبالمناسبة، يا وونج، متى سنذهب إلى هانجو لصيد البط؟

- حين تشاء.

- هل تحب الصيد، سنيور فرانش؟

- البط ليس نقطة ضعفي - يقول كيم، ويراقب رهافة ودقة يدي الألماني وهما تمسكان بغليون الأفيون -. رغم أن الأمر يستوي لدي، في ساعة الصيد. أعتقد أن هناك مثل صيني يقول: لا يهم أن يكون القط أسود أو أبيض، المهم أن يصطاد عصفور الكناريا.

يستريح عمر في أريكته ويبتسم ابتسامة خفيفة:

ـ إن قط المثل لا يصطاد عصفور كناريا، سنيور فرانش، بل فأرًا. فأرًا عاديًا. والآن، يا سادتي، أرجو المعذرة... أتمنى أن أراك ذات ليلة في ناديّ الليلي، سنيور فرانش، سيكون من دواعي سروري الشديد أن أدعوك إلى بعض الكؤوس.

ـ لن أتخلف.

بعد خمسة أيام بلياليها لم تتحرك فيها من المنزل، تقرر تشن جينج، في يوم جمعة حار، عند انتهاء العشاء، الذهاب إلى سينما متروبول فيرافقها كيم. يشاهدان فيلمًا صينيًا مصورًا في شنغهاي بممثلين صينيين وعنوانه سبرينج ريفر فلوز إيست[1]، شيء من قبيل نهر الربيع ينساب شرقًا. لم يفهم كيم شيئًا مما يدور على الشاشة، لكنه التقط هارمونية النظرات وعطرًا معينًا للعواطف. وعند الخروج من السينما، تقترح هي تناول شيء في السيلك هات[2]، النادي الليلي الأنيق حيث يمكن الرقص تحت النجوم وحيث تأمل في الالتقاء بسوو لين مع زوجها وأصدقاء آخرين.

وبعد نصف ساعة، وبينما تستقر تشن جينج على إحدى موائد السيلك هات مع زوجة ونج يحوطها معجبون دون تحفظ، يقتاد أحد أصدقاء المجموعة كيم إلى البار ويقدمه إلى مهندس إسباني قضى اثني عشر عامًا في الصين يعمل في شركة إنجليزية للأقمشة القطنية ولها مصانع في هونج كونج وفي شنغهاي. اسمه استيبان كليمنت كوماس، وهو رجل ودود مليء بالحيوية، وله نفس عمر كيم وتنتاب الاثنين دهشة فائقة عند تقديمهما إلى

---

(١) Spring River Flows East.

(٢) Silk hat.

بعضهما: فقد درسا كلاهما في مدرسة هندسة النسيج في تيراسا في نفس الدفعة. يود كيم الاحتفال بهذا اللقاء ويدعوه إلى كأس، يحتسي كليمنت المارتيني وقد بلغ الكأس الثالث، ويطلب هو ويسكي بالصودا ويسترجعان أيام المدرسة، بعدها يشير كيم إلى صداقته مع ميشيل ليفي وآماله بالعمل في شنغهاي.

تجتذب تشن جينج، الجالسة مع أصدقائها على مائدة قريبة من البار، أنظار كليمنت.

ـ يا لها من امرأة غير عادية، ويا له من مزاج ـ يقول معجبًا ـ. هل كنت تعرف أنها في سن السادسة عشرة اغتصبها اليابانيون واحتجزوها في بيت دعارة في سوجو من أجل المتعة الخاصة للقوات؟ حين عرفتها، منذ عامين، كانت مجنونة بقبطان بحرية تجارية يعمل الآن عند زوجها...

ـ القبطان سو تزو ـ يقول كيم ـ لقد أحضرتني سفينته إلى شنغهاي.

ـ حكاية غريبة. لقد انتزعها صديقك ليفي حرفيًا من بين ذراعي ذلك البحار وتزوجها. وقد تساءلت دائمًا كيف بحق الشيطان استطاع ذلك.

بعد نصف ساعة، تقترب تشن جينج من البار وتقترح على كيم، ما دامت هذه ليلة خاصة بالنسبة له، حيث التقى بأحد مواطنيه ويقضي وقته على خير حال، لماذا لا يبقى ما شاء من الوقت ويتركها تذهب مع عائلة وونج في سيارتها...؟

وقبل أن تنتهي من الحديث، كان كيم قد استشف تلك الشرارة المحيرة في عينيها العسليتين واتخذ قراره بسرعة: ـ

ـ أتريدين الذهاب الآن؟

- نعم، أنا متعبة - تقول تشن جينج - سيتركني تشارلي أمام باب المنزل.

- عديني بأن تذهبي إلى الفراش مباشرة.

- أعدك - تبتسم بتقطيبة استسلام ناظرة إلى صديق كيم - يعتقد السنيور فرانش أن سلوك هذه الصينية المسكينة الوحيدة الملولة لا يليق بامرأة متعقلة... إنه أسوأ من زوج غيور!

تودعهما ضاحكة وبعد قليل تغادر الكباريه في صحبة تشارلي وونج وسوو لين. يطلب كيم من البارمان الويسكي الثاني ومارتيني آخر، ويشعل سيجارة كليمنت وسيجارته وينظر في ساعته: من الضروري انتظار مرور ساعتين قبل الشروع في العمل.

يقدم له استيبان كليمنت، الذي يبدو أنه مطلع جيدًا على الحياة الاجتماعية للأجانب في شنغهاي، ملخصًا لمغامرته الشخصية: في عام ١٩٣٣ ترك منصبه في مصنع نسيج أبيه في سابادبل وذهب إلى إنجلترا بعقد مع شركة في مانشستر مهتمة بنوع من المكوك كان هو قد طوره، ولم يتأخر الإنجليز في إرساله إلى الشرق الأقصى لتجديد آلات النسيج في مصانعها؛ ذهب أولاً إلى اليابان ثم إلى هونج كونج، وفي أغسطس ١٩٣٧، حين كان اليابانيون يقصفون شنغهاي، كان هو يتخذ إجراءات إقامته هنا. كان في فندق بيس هوتيل(١) وما زال يتذكر أن الأوركسترا كانت تعزف لحن لاكوكاراتشا(٢) حين سقطت القنابل الأولى... يقول، كانت أوقاتًا صعبة، لكن الأوقات القادمة الآن ليست أفضل، يا صديقي: فحين ينفتح الطريق أمام

---

(١) Peace Hotel.

(٢) la cucaracha : لحن راقص شائع فى إسبانيا - م.

القوات الشيوعية للجنرال تشن يي حتى نهر اليانج - تسي وتتقدم على طول النهر، ستكون الصين الوطنية قد خسرت الحرب في الشمال، ورغم الوقت الذي قد تتأخر فيه المعركة النهائية، فإن نهاية الامتيازات قادمة. وقد بدأ الأقطاب الأجانب في شنغهاي يرتجفون...

- انظر حولك - يواصل كليمنت -، انظر إلى هؤلاء الناس الذين يمرحون بجنون حتى الفجر، هؤلاء الأشخاص الذين يترنحون في ضوء القمر منقوعين في الشمبانيا ومشروبات الكوكتيل المتفجرة، لاحظ منصة الرقص المزدحمة بأمريكيين وأوربيين لا يكفون عن الدوران والمزيد من الدوران وعن الشراب مثل اسفنجات كي لا يفكروا في كل ما سيفقدونه لو لم يصلح الرب وتشانج كاي - شيك الأمور. تخيل، يوجد هنا يانكيون وفرنسيون أبحروا في يخوتهم الرائعة في نهر اليانج - تسي حاملين في ضيافتهم ت. ف. سوونج، أهم مصرفي في آسيا وشقيق مدام تشانج كاي - شيك... لن يفيدهم ذلك في شيء. انظر إليهم جيدًا، يا صديقي فرانش، تأمل هؤلاء الأزواج الأنيقين الذين يرقصون مبتهجين، قصيري النظر ومتكبرين في سحابة أحلام يقظتهم، إنه مشهد فريد ورائع ربما لن يعود يُرى أبدًا في شنغهاي.

- إنه يسبب الدوار قليلاً - يعلق كيم بابتسامة.

لكن رؤيته تستحق العناء. فتحت الضوء المُعشي للأبصار للأضواء الكاشفة، تحولت منصة الرقص إلى شعلة مختلجة. وأمام الأوركسترا تغني المغنية الصينية الجميلة والهشة أغنية جودباي ليتل دريم، جودباي[1] بصوت متراخ لطفلة مزكومة. لا مباليًا في البداية، لكن انبهاره يتزايد رويدًا، وعيناه

(١) Goodbye Little Dream, Goodbye. وداعاً حلمي الصغير، وداعاً - م.

منقوشتان خلف دخان السيجارة، يجول كيم ببصره في هذا المشهد البراق وغير الواقعي، الحديقة المضاءة تحت الليل المرصع بالنجوم والخانق، والنضارة اللاذعة لأعشاب السياج وهي تشتعل، مرسلة سهامًا فضية إلى السماء، أزواج العشاق الذين يطوقون خصور بعضهم ويتبادلون القبلات سائرين ببطء في الضوء الخافت والسادة الوسيمون والوحيدون الواقفون فوق العشب في بذلات الاسموكنج البيضاء وفي يدهم الكأس، منذهلين للحظة وسط الضوء الرصاصي القريب، ساكنين مثل تماثيل من الجص تتأمل هجرانها في موضع منسي. لكن نظرة كيم ليست متواطئة، وبؤبؤه لا يكاد يتأثر بالانطباع: فهذا البهاء المختلط، وهذا الضوء وهذه الموسيقى تخفي القصة المعروفة دومًا، التاريخ المكرور للهجرانات، والخيانات، والوداعات. لم يكن في كل هذا شيء لم يكن قد رآه هنا معنا قبل الحرب، لا شيء على الإطلاق يستحق الحفاظ عليه من الإعصار الثوري الذي يقترب؛ باستثناء الحب والصداقة وحقائق القلب الأبدية. واللحظة قصيرة، تكشف لكيم الآن أيضًا مستقبل محطم، عالم ما بعد الموت. وبين الأعشاب يلمع فتات زجاج كأس مكسور، أو ربما مكعبات ثلج يذوب، مثل نجوم صغيرة مكسورة.

ـ لكنك أنت ـ يردف مواطن سابادیل مقاطعًا تأملات كيم ـ ليس لديك ما تخشاه ولا ما تفقده.

ـ هكذا؟ لماذا؟

ـ لأن زوجة كيم ليفي قريبة للجنرال الأحمر تشن يي، وحين يستولي هذا على شنغهاي، فالمؤكد أن صديقك سيستخدم نفوذه للحصول على امتيازات معينة. فرانش، أقسم لك أن أجرك مؤكد، على الأقل خلال بضع سنوات.

- يرشف كيم رشفة من الويسكي ويفكر. ثم يقول : -

- هل تعرف عمر ماينينجن، صاحب اليلو سكاي؟

- ليس كثيرًا.

- ماذا تعرف عنه؟

- إنه رجل سمعته مشكوك فيها. لكن هذا لا يعني شيئًا في شنغهاي. وقد أكد لي البعض أنه كان ضابطًا لامعًا في الفيرماخت[1] عرف كيف يتقاعد في الوقت المناسب.

يسأله كيم إن كان يعتقد أن ميشيل ليفي يُهرِّب الأسلحة في خدمة الشيوعيين. فيسلم كليمنت باحتمال ذلك:

- لقد حدثتك عن علاقته بالجنرال تشن يي.

- وماذا تقول عن تلك الدمية التي يدعونها دو جراند - أوربي؟

- حذار من تلك الدمية. إنه أحد زعماء عصابات الثالوث. أتعرف ما يعني هذا؟

- أتخيل. نوع من المافيا.

- إنه زعيم عصابة الكوينج بانج، إحدى أقوى الجمعيات السرية وأكثرها نفوذًا. رغم أنني أفترض أنه هو الآخر قد انتهى الترف بالنسبة له... سيكتسح الشيوعيون كل هذا الخراء، فيما أرجو.

- هل تعتقد أنه يعمل لحساب عمر؟

- لا أعتقد. لقد أدار دو يويشنج طائفته في خدمة صناعيين وماليين معروفين جيدًا، زبدة الامتيازات الأجنبية، مقابل تسامح معين. إنه يسيطر

---

(١) Wehrmacht : آلة الحرب. اسم الجيش الهتلري - م.

علي تهريب المخدرات، بمباركة الشرطة وبالتأكيد بدولارات صديقك ليفي... انظر، لا تدخل في هذه الفوضى، هذه نصيحتي لك. أما عن عمر ماينينجن فهو قناص، لا منتم[1] يبحث عن مصلحته. سمعت أنه يفكر في تصفية أعماله هنا والانتقال إلى ماليزيا ليتاجر في الكاوتشوك.

يشرب كليمنت كؤوس المارتيني الواحد تلو الآخر بتعجل محسوب، وفق رد فعل عصبي يجعله ينظر في ساعته بين الحين والحين. وفي الثانية والنصف، وبشكل غير متوقع وبعد أن وضع نفسه تحت أمر كيم في كل ما يحتاجه، يودعه بحرارة متمنيًا له حظًا سعيدًا.

يتعجل كيم الانتهاء من كأس الويسكي بهدوء وبعدها بقليل يسير وحيدًا في بكين رود ثم في كوكين رود. سبب له الحديث مع استيبان كليمنت كآبة شديدة؛ يحس من حوله بمجهولية المدينة ومجهولية الغد، لكنه في هذه الليلة، على الأقل، يعرف أين يذهب وماذا ينتظره. يمشي مسرعًا وبعد وقت قصير يستعيد ثقته في نفسه، ليس لأنه قد شرب أكثر من المعتاد قليلاً ولا لأنه قد قرر الانتقال إلى الفعل، بل بدافع رغبة حميمة في تجاوز القنوط الذي عبر عنه كليمنت: لم يكن يستطيع، لم يكن يريد تصديق تنبؤاته المشؤومة. تلك الأحلام الآخذة في الغرق لن تجذبه معها في سقوطها.

في كانتون رود، وعلى ضوء مصباح، يتأكد من خزانة البراونينج - يلاحظ المقبض الأبرد من المعتاد - ويشعل سيجارة. ينعطف في شانتونج رود. تحلق إعلانات النيون شبحية وسط الليل. يدخل كيم اليلو سكاي كلوب.

---

(١) outsider . دخيل، لامنتمٍ بالإنجليزية في الأصل - م.

## ٤

في مناسبة واحدة فقط، استطعت عبور خدعة دولاب الملابس الأسود والوصول إلى المخبأ الذي أحيانًا ما يلجأ إليه الكابتن، على فترات متباعدة الآن، للتخلص من زوجته فيما أعتقد وليس لتغذية شياطينه الخاصة. إنه كرار صغير كان غرفة حمام وهو الآن مزدحم بالأصص والصناديق الخشبية المزروعة بالجيرانيوم والقرنفل، وبه سرير نقالي، وكرسي، ومنضدة ليلية صغيرة فوقها جهاز من الخشب بكابلات وأسلاك وبطاريات متكسدة، بدا حيوانًا خطرًا، لكنه لم يكن سوى البقايا المتهاكلة تمامًا لجهاز راديو نقال. وفي قاعدة المرحاض وفي الشطافة، غير المستعملين كليهما، والمسدودين بالطين، كانت تنمو أغصان مشتبكة وارفة من أخضر زاه، ومن الحوض المتشقق يتدلى حتى الأرض نسيج مطرز من نبتة صريمة الجدي المزهرة. كانت تظهر في كل هذه الزينة النباتية المتعجلة اليد السمينة والمرهفة للبتيبو. كانت شمس حامية لكنها متقطعة، حين تفسح لها السحب طريقًا، تدخل من نافذة صغيرة تطل على خرائب شارع ثردينيا، ويمكن منها رؤية أسطح الحي، وأبراج كنيسة العائلة المقدسة على البعد، وأبعد منها، البحر.

دخلت ذلك اليوم ملاذ الكابتن لأن زوجته طلبت مني ذلك، لأعاون العجوز على إخراج السرير النقال الذي أصبح غير مستخدم بألواحه التي غزاها القمل، والتي يجب تطهيرها. وجدت الكابتن جالسًا على الكرسي يتحدث في ميكروفون ضخم عتيق في يده كأنه حوض غسيل بدون سلك ولا يتصل بشيء. لم يندهش لرؤيتي لكنه سكت ووضع تلك التحفة على المنضدة. أخذنا، حسب تعليمات الدونيا كونشا التي توجهها لنا من غرفة

الطعام، على الجانب الآخر من الدولاب الذي أفرغته هي من الملابس، نخرج السرير أنا والكابتن ثم نهز الألواح في الشرفة حتى يقفز القمل كله، الذي تحرقه البتيبو بعناية بورق جرائد. أنهك المجهود الكابتن وراودني الأمل في أنه سيمتنع هذا الصباح عن جولاته بحثًا عن التوقيعات، لكن لا.

حين خرجنا إلى الشارع، متأخرًا عن بقية الأيام، كانت السماء قد تلبدت وتساقط الرذاذ وسط حرارة خانقة. لم أستطع إقناع العجوز بالعودة إلى المنزل. وبعد محاولتين فاشلتين لطلب التوقيعات بين سكان شارع كونجوست، أشفق الكابتن علي ودعاني إلى تناول كوب من المياه الغازية في حانة كان جهاز الراديو فيها مفتوحًا فوق منصة البار. ـ صباح الخير، يا سادة ـ قال عند دخوله ـ.

هل يمكن أن تكونوا قد استمعتم بالصدفة إلى التعليق السياسي المثير للاهتمام، والجيد التوثيق، والذي جاء في حينه والذي أذيع للتو على موجة EAJ 15 راديو لاسالود المستقل؟

كان هناك أربعة زبائن، ثلاثة عند المنصة وواحد جالس بجوار براميل النبيذ، أجابوا على صباح الخير وليس على السؤال. كرر الكابتن السؤال، ممتدحًا المعلق الإذاعي.

ـ نعم، يا بلاي ـ قال أحد الزبائن ـ لقد سمعناه جميعنا.

ـ وما رأيكم، أيها السادة؟ إنها خطبة عصماء، حسب علمي المتواضع.

ـ إنها خراء.

ـ لسمع، يا هذا، لقد أعجبتني ـ قال شخص مهذار ـ. هذا المعلق ذرب اللسان.

ـ هيا، لا ترخوا له الحبل ـ نصح صاحب الحانة خافضًا صوته.

ـ هذا المعلق أحمر النزعة، يا كابتن، لكن ما أجمل حديثه.

ـ يسعدني أنه أعجبكم ـ قال الكابتن.

ـ كما قلت لك، يا بلاي، إنه خراء ـ أصر الأول.

أقترح عليك أن تعيد النظر في رأيك ـ قال الكابتن متمهلاً ـ، لأن الأمر يتعلق بتحليل واضح وجسور للوضع المحلي والدولي. ولن تجد في أي إذاعة أخرى، ولا بالطبع في أي جهاز من أجهزة صحافتنا المكممة، تعليقًا أشمل، وأدق، وأشجع حول الوضع الراهن السياسي والعسكري لأوربا المحطمة...

ـ حقًا، يا بلاي ـ حرك المحاور الآخر الدعابة بسحنة ملولة ـ ماذا يعرف هؤلاء.

ـ اقترح صاحب الحانة تغيير الموضوع، فقد كان الهوس الإذاعي للكابتن يجعله عصبيًا. وظللت أشرب كوب المياه الغازية. كانت الحانة عشًا للظلال، وقرب البراميل، كانت تفوح رائحة زعفران خفيفة.

تقدم رجل ضئيل كان ينتصب بهشاشة أمام كاس النبيذ الأحمر، محدقًا النظر فيه، وأمسك حافة المنصة بيديه الصغيرتين المحمرتي المفاصل وقال : ـ

ـ ما يعجبني أنا هو برنامج تاكسي كي. Taxi Key.

ـ أنا لا أدري لم الشكوى، يا بلاي، اللعنة ـ تدخل الجالس بطريقته السمجة، وهو يغمز بعينه لصاحب الحانة ـ. ففي الحقيقة لم يتوفر أبدًا كل هذا السلام وكل هذه الرفاهية في هذا البلد.

هز الرجل الضئيل رأسه متفكرًا وبرطم : ـ

ـ الرفاهية. آه، نعم، الرفاهية ـ قال ذلك كأن الأمر يتعلق بنبيذ معتق رفيع القدر، تذكر لتوه مذاقه وعبقه بأعين مغلقة ـ نعم حقًا. هذا السيد، ذو الرأس المعصوب، معه حق.

ـ وأنت ما أدراك، مع كل النبيذ الأحمر الذي تحمله في جوفك ـ قال السمين.

ـ حسنًا، وأنت... أنا أشرب نبيذًا بالصودا، يا سيدي.

ـ أنت تسخر مني.

ـ أيها السادة، من فضلكم ـ انتزع مني الكابتن الحافظة وتوجه إلى الرجل الضئيل، الذي أفرغ لتوه كأسه دفعة واحدة ـ حضرتك جديد هنا. هل يمكنني أن أطلب منك توقيعًا صغيرًا على هذه الوثيقة الهامة التي تستهدف إصلاح ظلم؟

لسبب ما شعر ذلك الرجل بالفخر والتميز ووقع، لاويًا رقبته وناظرًا إلى السمين من فوق كتفه. دفع الكابتن ثمن مياهي الغازية ونبيذه الأبيض وعدنا إلى الشارع تاركين الزبائن في الداخل يرغون ويزبدون من جديد، أو لعلهم يتجادلون فيما يتجادلون فيه دومًا بنفس الكلمات المستهلكة دومًا.

كان يدفع الكابتن ذلك اليوم شيء غير محدد، إلحاح أعمى، وابتعدنا كثيرًا عن المنزل عابرين خرائب من تربة رمادية ومتكلسة، وأكوام من القمامة التي يتصاعد منها الدخان. تركنا وراءنا ميدان مصارعة الثيران وفجأة، وسط قفر، ومائلة ميلاً خفيفًا فوق بركة سوداء، رأينا عربة سكة حديد صدئة وجوانبها ممزقة ومثقوبة برصاص الرشاشات. كانت قطعتا القضبان اللتان ما زالتا تمسكانها، واللتان لم تعودا قادرتين على حملها

إلى أي مكان، هما بقايا السكة الحديدية القديمة التي كانت ذات حين تخترق هذا السهل المُترب الذي تتناثر فيه الأعشاب والرتم الجاف. كانت عربة درجة ثالثة عتيقة بمقاعد ذات ألواح خشبية وبعض الزجاج السليم في النوافذ. بدأت تمطر بقوة فاقترح الكابتن أن نلوذ بالعربة. على السلم المتهالك كانت تنمو الأشواك والحلْفاء، وفي الداخل، كان صعلوك ذو عينين صافيتين وجلد مسود يجلس بجوار نافذة ويسند جبهته على الزجاج وذقنه في كفه. كان يمكن أن يكون نائمًا أو ميتًا، وبدا أنه هنا منذ الأزل، يراقب من حوله دورة أرض مذبوحة وخربة.

- ألى أين يتجه هذا القطار، أيها الرجل الطيب؟ - سأل الكابتن بلاي، فلم يكلف الصعلوك نفسه حتى بالنظر إلينا. تأملت في شفتيه الفتيتين المرسومتين بوضوح، والمزمومتين وسط قذارة الوجه. وكالعادة، لم يكن الكابتن ليتخلى عن المحادثة بسهولة؛ ربت بود على ركبته وأردف: أقسم أنه نفس القطار الذي كان في السابق يذهب إلى تولوز عن طريق بورت - بو. إذا كان هو، فنحن ماضون في طريق طيبة، يمكن أن تنام في هدوء...

انتهت زخة المطر ولمعت الشمس من جديد، أخذت أستحث الكابتن على الذهاب من هناك حين أظلمت العربة بغتة، بدا أنها قد دخلت نفقًا، ومالت قليلاً فوق البركة، وهي تطقطق. قلت للكابتن أننا قد وصلنا فتبعني دون أن ينبس، منطويًا على نفسه وبالغ التعب. انتابني الخوف.

- هذا الرجل يبدو ميتًا - قلت حين ابتعدنا عن هناك.

- وماذا يهم - قال الكابتن -. إن الموتى يتعلمون كيف يحيون على الفور، أفضل مما نفعل.

- لنعد، يا كابتن. لقد مضينا بعيدًا جدًا.

ظل برهة صامتًا، متفكرًا، ثم قال : -

- المسألة أنه جائع. لنر هل تتبين الأمور جيدًا.

في شارع أرختنونا توقف، طلب مني الحافظة وفحص قائمة الموقعين المحتملين. مضينا في طريقنا، لكن الكابتن لم يعد إلى الحافظة، وحملها تحت إبطه. وعند ناصية شارع سورس مع لاوريل بدأ يشكو من وهن وألم في ركبتيه.

- لا أدري ماذا دهاني اليوم - زام وهو يستند على كتفي. أحس أن مفاصلي مثل أسلاك شائكة ورأسي يدور. ما كان أثقل ذلك السرير اللعين، لقد هدّني... سيكون من الأفضل أن ندخل هذه الحانة.

كنت مشغولاً بشواغلي وقد أذهب الحر عقلي.

- وفضلاً عن ذلك - أردف الكابتن، لدي من جديد شعور بأن هذه المدينة قد شيدت فوق أراض مفرغة وملغومة، وأننا جميعًا سنتطاير في الهواء من لحظة إلى أخرى... وهكذا فإنني بخير والحمدلله[1]، هذا الصباح، اللعنة.

- أعتقد أننا يجب أن نعود إلى المنزل، يا كابتن - قلت له حين كنا ندخل إلى الحانة. فأنت لا تبدو على ما يرام.

- لا بد أنها الشيخوخة المبكرة. - توقف بجوار سكير وحيد جالس على مائدة وواصل حديثه -: أترى حضرتك، يعتقد الكثيرون أنني عجوز قبل الأوان. نعم، أنا محطم، لكن ليس هذا هو الأمر. لقد كنت دائمًا سابقًا لأواني. والمسألة هي أن الشيخوخة المبكرة قد اقترنت لدي مؤخرًا مع الصبا المتأخر، وانظر، ثمة أيام لا أُصلح فيها لشيء. وعلاوة على ذلك، لم يعد لدي من يحك لي ظهري.

---

(١) بمعنى . لا يُحمد على مكروهٍ سواه - م.

استرحنا برهة في الحانة، أشعل الكابتن نصف سيجارة واحتسى كأسًا من النبيذ الأحمر. ولم أرد أنا شيئًا. وعند خروجنا عبرنا الشارع بحثًا عن ظل أشجار الأكاسيا وجلس الكابتن على حافة الرصيف المقابل، بجانب بالوعة، ليربط الرباط الذي يضم حذاءه الممزق. عندئذ انتبه إلى أنه قد نسي في الحانة الحافظة بالتوقيعات والرسم، فطلب مني الذهاب لإحضارها. تركته جالسًا هناك وذهبت لأحضر الحافظة، لكنها لم تكن على منصة البار، ولا رآها صاحب الحانة ولا الزبون الوحيد في تلك الساعة. وأكد صاحب الحانة أن العجوز المجنون لم يكن يحمل أي حافظة حين دخل. ظللت أفكر، وطلبت كوب ماء لو سمحت وتلكأت برهة، مهنئًا نفسي على ضياع الحافظة اللعينة: لم يعد علي أن أطرق المزيد من الأبواب، لم يعد علي أن أمضي صاعدًا وهابطًا السلالم وممثلاً دور الأحمق أمام غرباء وأنا أقرأ بصوت مرتفع رسالة الاحتجاج الهائلة...

خرجت إلى الشارع من جديد ورأيته جالسًا في نفس الموضع، ورأسه مائل، وساقط بين ركبتيه، وأصابع يده اليمنى مشتبكة في الرباط الذي فكه من الحذاء. كان خيط متعرج من الماء القذر برغوة الصابون ينساب بجوار قدميه حتى فم البالوعة، التي كان يبرز منها عفن كالح وأشعث من الوردات البيضاء. قبل أن أصل إلى جواره كنت قد عرفت أن الكابتن قد مات؛ حدست ذلك بغتة حين لاحظت، كلما اقتربت، يده الخاملة المشتبكة في أحبولة الرباط والخصلة النافرة من شعره الأبيض تحركها نسمة خفيفة. هي راحة مفاجئة أو شبح خرافي للهواء الذي لم يعد لا جلده ولا قلبه يحسان به.

جريت لأبلغ صاحب الحانة، الذي خرج ودخل من جديد وطلب الصليب الأحمر بالتليفون. إلى جانب الحانة كانت مدرسة دينية للطفلات اليتيمات

واقتربت راهبتان، رسمت إحداهما علامة الصليب على جبهة الكابتن أما الأخرى، البالغة الصبا، فقالت ربما لم يكن قد مات بعد، لكنني كنت أعرف أنه قد مات. ناظرًا إليه هناك منكفئًا على نفسه ورأسه مائل بعناية فوق البالوعة، كأنه يلتقط وسمعه مرهف ذلك الانتشار الدفين والصامت للغاز، نفس الغاز الشبحي والقاتل الذي غزا جمجمته ذات يوم عند ضفاف الإبرو، بدا مستغرقًا أكثر من أي وقت مضى في تأملاته ويتشمم في نفس الوقت العطر العفن للأزهار والمجاري، رائحة ورود ذابلة وموت لا شك أنها كانت ستدفعه إلى استنكار مظالم وإساءات فهم جديدة. ففي نهاية المطاف، وأنا اليوم أعرف ذلك، لم يكن بين ذلك الغاز الشبحي الذي يخرج من البالوعات ليغرقنا في السبات وبين اقتناعه الشجاع بالوجود الواقعي لذلك الغاز، سوى سوء فهم بسيط. ذات مناسبة قال لي إن كل الشطحات التي يلومونه عليها وأشكال الجنون العديدة التي ارتكبها في هذه الحياة لم تكن سوى تدريبات وتنويعات لجنون واحد ووحيد... لم ينجح أبدًا في ارتكابه، لأنه لم يعرف بالضبط أين يكمن.

كالعادة، لم أدر ماذا أفعل فجلست إلى جواره وأنهيتُ ربطَ رباطِ حذائه. بعدها وصلت عربة الإسعاف، فمددوه على نقالة وحملوه إلى المستشفى بينما جريت أنا لأبلغ الدونيا كونشا.

أما الحافظة الضائعة، فلم تظهر أبدًا. ولو كان الكابتن قد عاش ليعرف ذلك، فالمؤكد أنه كان سيظن أنهم سرقوها منه وكان سيحدث فضيحة بجلاجل. وأنا أعتقد أنه فقدها في الشارع، وأنه إذا كان أحد قد التقطها وفتحها، فلن يبذل هذا الأحد بالكاد سوى ابتسامة مشفقة على عريضةَ الاحتجاج، وعلى التوقيعات القليلة المتضامنة وعلى رسمي الساذج، قبل أن يلقي هذا كله من جديد.

لكن شيئًا لم يضع. فعلى نحو ما، بعد كل هذا الدوران في شوارع الحي معًا وبعد احتمال خطبه المملة، ورغم خجلي وشعوري بالخزي وموتي من الرغبة الدائمة في تركه ملطوعًا والفرار جريًا إلى البرج، إلى حضن الأحلام، استطاع العجوز المخبول أن يعديني بنفحة من ذلك الفيروس الذي كان يفترس ذهنه، وأحيانًا ما كان يخيل إلي أنا أيضًا أنني أشم عفن الغاز في البالوعات وأبتلع الخراء الأسود الذي تبقبقه المدخنة والذي يصلِّب رئتي سوسانا، ولهذا السبب بالتحديد، خلال الأسبوعين الأخرين اللذين قضيتهما معه نجوب الشوارع، شاركت على قدر طاقتي في المعركة الخاسرة للعجوز الممتلئ حماسًا.

هكذا، مع مرور الزمن ودون أن أنتبه تقريبًا، أخذ المشهد الحيوي لطفولتي يتحول شيئًا فشيئًا إلى مشهد أخلاقي، وعلى هذا النحو ظل منقوشًا في ذاكرتي إلى الأبد.

## ٥

حضرت الجنازة بعض الأشباح الشاحبة التي كنت أعرفها جيدًا، ظلال حانات بائسة، هم أولئك المحاورون الصامتون للكابتن الذين تحملوا بصبر رواقي خطبه المضجرة وهم يجرعون نبيذًا لاذعًا مستندين على المنصات وعلى البراميل العتيقة لكثير من حانات جراثيا، ولاسالود، والجيناردو. كذلك شوهد فوركات في الكنيسة، بصحبة السنيورة أنيتا، وحضر هناك أيضًا الأخوان تشاكون وبعض جيران الدونيا كونشا[1]، التي كانت أمي تعاونها. وتولي أمر الإجراءات في المستشفى وعند الحانوتي وكذلك رعاية الدونيا كونشا في كل لحظة، خبير علاج أقدام من إكسترامادورا عرفته أمي من

(١) إقليم فى غرب إسبانيا ـ م.

المستشفى، وهو شخص يُدعى براوليو، كانت قد دعته للعشاء في المنزل ذات مرة؛ وقد شكرت له أمي ذلك كثيرًا ومنذ ذلك اليوم أظهرت له إعزازًا خاصًا.

وذات ليلة عند وصولي إلى المنزل لم تكن أمي موجودة ووجدت بجانب العشاء قصاصة تقول لي فيها إنها في سينما روكسي مع براوليو ومع شارل بوابيه(١)، وضحكت من المصادفة، لكنني لست واثقًا من أنني قد فرحت. في تلك الفترة كان يزعجني قليلاً ميل أمي إلى تجريد الماضي والمستقبل من المعنى، مستبدلة إياه بالانشغال بالحاضر، وشعور ديني أكثر بروزًا باستمرار، والحرارة العابرة لبعض الصداقات في الحي أو مع براوليو هذا. أدرت الراديو، وجلست أتعشى وتذكرت الكابتن بلاي مائلاً على حافة الرصيف في شارع لاوريل، والريح تهز عرفه الأشيب فوق الرأس المتدلي، وقلت لنفسي إنه ربما في اللحظة الأخيرة نال حظ أن يفكر، ولو خلال ثانية عابرة، لا في منزله الذي كان سجنًا ولا في كونشاه الصبورة والمنهكة، ولا كذلك في الابنين الميتين اللذين لم يكونا لينتهيا من السقوط ولا من الموت في شبحهما المتواتر الرجوع بجوار ضباب الإبرو، بل في الشيء الوحيد الذي كان يملكه حقًا ويدركه حقًا على أنه يخصه دون جدال، في الحافظة المهترئة التي كان يرجو استعادتها والتي كان يعتقد أنها شهادة بليغة ضد العار وضد الاستسلام والتي لم تكن سوى متنفس لحنقه، فقدان للذاكرة، الوعي المحطم بخزي آخر يفضل الكثيرون نسيانه.

---

(١) Charles Boyer.

# الفصل الثامن

## ١

يتأهب كيم لمواجهة قدره.

فور دخوله الليلو سكاي كلوب يتسلل دون أن يلفت الانتباه إلى طرف البار ويظل واقفًا هناك برهة، في الظلام، ظهره مستند إلى التنين الأصفر الملتف حول العمود وعلى مقربة شديدة من الباب الأزرق المؤدي إلى المسكن الخاص لعمر. المكان يعج بالحركة وما من مكان على البار، ولا هو يبحث عن مكان، إذ يفضل ألا يراه البارمان. يلاحظ ساقيًا يحمل صينية مشروبات ويتجه نحو الباب الأزرق، يراه يدفع الباب بمرفقه ثم يختفي صاعدًا الدرج، فيأخذ مكانًا إلى جوار الباب وينتظر. على الجانب الآخر من منصة الرقص المزدحمة الغارقة في الأضواء الحمراء تنتهي الأوركسترا من عزف لحن قبلني كثيرًا[1] وتبدأ على الفور في عزف كونتيننتال[2]، وفجأة، من جديد، من بين الانعطافات المرحة للحن الذي انطوى، ذات يوم صار بعيدًا، على الكثير من الأحلام له ولانيتا، على الكثير من الآمال بالامتلاء في الحب

(١) Bésame mucho.

(٢) Continental.

وفي المغامرة، تنبعث ذكرى كباريه آخر، ذكرى ملهى - راقص يقع في رملة قطالونيا ويسمى بالضبط شنغهاي، في برشلونة الشتائية لعام ١٩٣٨ تحت القنابل؛ هناك، ذات ليلة نال فيها كيم تصريح خروج من المعسكر، اشترى من غجرية ساحرة ونصابة، كانت تمضي من مائدة إلى أخرى تقرأ الطالع، شالاً حريريًا مطرزًا زائفًا لأنيتا واستبدل سترته العسكرية الجلدية الجديدة تمامًا بعقد ذي حبات زجاجية... ظن أنه ثمين القيمة.

يظهر الساقي من جديد بالصينية فارغة فيدلف كيم من الباب الصغير ويصعد دون صوت الدرج الشديد الميل المفروش بالسجاد، تحت ضوء بنفسجي خافت. يدهشه ألا يصادف أحدًا في طريقه، ألا تكون هناك حراسة. يبلغ بسطة ذات بابين، أحدهما مغلق؛ والآخر يؤدي إلى صالة صغيرة متقشفة ووراءها إلى سلسلة من الأركان الصغيرة المزينة بالأزرق الباهت والمكدسة بلوحات الحفر، والحفر على الخشب، والرقاق واللوحات المشغولة بالحرير وعليها أشكال بالحبر الصيني والألوان الرقيقة، وبالكتب المكومة دون نظام، وتماثيل العاج واليشب، والستائر المنزلقة والأرائك... يسمع غير بعيد خشخشة متواصلة، كأنها خشخشة المكوكات التي تصنع التطريز والتي أبهجت ألعاب طفولته المنفردة في حديقة جدته في ساباديل، لكنها أكثر رقة وخفة. وعند نهاية طريقه، وقد أصبحت يده داخل طيات الجاكتة وأصابعه تلمس مقبض البراونينج، يصل إلى صالون تغمره الظلال بملحق وردي تحميه ستارة من الغاب مرسوم عليها رأس نمر يكشف عن أنيابه. يلتقط كيم الرائحة الهادئة للأفيون ويتقدم الآن مخترقًا نفثات من الدخان الأزرق المعلق في الهواء مثل غازات معطرة، تتحرك شرائط الغاب في الستارة برقة بفعل مروحة

وتخشخش وتبدو رأس النمر وقد اكتسبت حياة، يتقدم نحوها بخطوات مطاطية وحازمة حتى تظهر، بغتة، يد متقلصة وسط رأس النمر وتقسمها إلى نصفين ويبدو خلفها عمر مرتديًا كيمونو، حافيًا وشعره منكوش وهو ينظر إلى كيم بمزيج من الغضب المكبوت والمفاجأة غير الكاملة.

وخلفه، ينهض شخص بحذر وسط الغبش المائل للاحمرار لعش من الوسائد الناعمة، والملاءات المنكوشة وحلقات الدخان البطيئة، شخص يعرف كيم، قبل أن يراه، من يكون: تشن جينج فانج.

## ٢

لست أدري إن كنت أقص جيدًا. هذه هي الأحداث وهذه هي القدرية التي حركتها، المشاعر والجو اللذان دفعا المغامرة، أما وجهة النظر والتفاصيل الصغيرة، فمن يدري. كانت لفوركات موهبة جَعْلِنا نرى ما يرويه، لكن حكايته لم تكن موجهة إلى العقل، بل إلى القلب. وبدءًا من الشهادة الأصلية والمتعجلة بالتأكيد التي التقطها من شفتي كيم نفسه والتي لا بد أنه أعاد خلقها لنفسه من يدري كم مرة، أولاً في ملاذه الموحش والمريرة تولوز وبعدها هنا، كي يستطيع أن يهدي إلى سوسانا يومًا بعد يوم طبعته الحزينة منها بكل هذه الصرامة الجغرافية وكل هذه الدقة المحببة في الأسماء، والأجواء والعواطف، هذه المكيدة التي جرت بالصدفة والتي حملت كيم من ملاذه في جنوب فرنسا إلى مخدع دافئ ملتهب بالأفيون وبالخيانة قد قطعت رحلة بالغة الطول ومليئة بالمصادفات بحيث يكون من المستحيل ألا يعدى الخيال الذاكرة، مازجًا التقلبات المعاشة بالتقلبات الحلمية.

لذا فإن الكلمة، اليوم مثل الأمس، لفوركات.

# ٣

حدثني عن حنقه لرؤيتهما معًا وعن عزمه على الإجهاز على العاشقين في موضعهما، لكنني أعرف جيدًا أنه يبالغ، أنه استسلم لدافع غير تأملي: فكيم ليس قاتلاً. إنه يريد أن يوضح تمامًا سبب أفعاله، لماذا أتى وباسم من، ثم يتصرف وفقًا لذلك. وفضلاً عن ذلك، فإن السلوك الهادئ للألماني ونظرته، المتعالية والمستسلمة في نفس الوقت، كأنما كان يعرف أنه سيأتي هذه الليلة وكان بانتظاره، دفعاه إلى أن يكون أكثر من حذر. تشن جينج خلف عمر، ما زالت تنهض؛ تلف حول جسدها كيمونو مرسوما عليه أزهار لوتس وفمها الذي صار الآن شاحبًا ينفتح مثل جرح في الظلام، كأنه سيعاود البروز من بين صفحات الكتاب.

- حسن جدًا - يقول عمر بمرارة هادئة. الآن يمكنك إبلاغ ليفي.

- ليس بعد، يا كروجر. أولاً...

- أنا لا أدعي كروجر.

- أولاً يجب أن أنهي عملاً بدأته في فرنسا المحتلة في أبريل عام ثلاثة وأربعين. في ليون بالتحديد.

يفك أزرار الجاكتة، وبإيماءة ليست سوى انعكاس لأخرى، يرفع يده حتى إبطه، لكن ليس للإمساك بالمسدس. على أية حال، يعتقد عمر أنه فهم: -

- عمل يتلخص في القتل.

- لم يكن أمامنا غيره خلال السنوات العشر الأخيرة - يقول كيم -. مثل حضرتك، يا كولونيل.

- عن أي كولونيل تحدثني..؟ لماذا تدعوني هكذا؟

تقف تشن جينج فجأة بين الاثنين، ملقية نفسها على عمر كأنها تود حمايته بجسدها. تنظر إلى كيم بعينين فزعتين وتقول: ـ

ـ إلى ماذا تلمح؟ من هو كروجر؟

ـ ليقل لك هو ـ يرد كيم ـ هيا، يا كولونيل. تشجع.

ـ لا أدري عم تحدثني ـ يقول عمر.

لا يحول كيم نظرته عن تشن جينج.

ـ اسأليه من هو، يا مدام.

تنظر الصينية الشابة إلى عمر ثم تعود لتنظر إلى كيم: ـ

ـ أنا أسألك أنت، مسيو فرانش. من هو كروجر؟

يخمن كيم أن ثمة شيئًا لا يتلاءم هنا؛ أنها ربما كانت ساعة الخيانة، لكن، خيانة من؟ يجيب بصوت رتيب، ليس فيه أدنى انفعال: ـ

ـ إنه الرجل الذي عذب زوجك. هيلموت كروجر، كولونيل الجستابو. ارتكب فظاعات في قبو بميدان بلكور، في ليون، حيث كان مركز قيادته. هناك لم يستطع القضاء على ميشيل ويبدو أنه يحاول ذلك الآن...

ـ أنت مجنون ـ يقاطعه عمر ـ من أين جئت بمثل هذه الفرية؟

لكن كيم لا ينظر إليه، بل إلى تشن جينج: ينتظر تكذيبها أو إهانتها، بينما ينقبض فمه في إيماءة تفكير. إنه متوتر، لكنه يريد أن يظل رأسه باردًا. يتبين عمر هذا المزيج المؤقت من الصلابة والشك في هيئة كيم، ويتفحص عينيه قبل أن يحدثه بإسبانيته ذات اللهجة الأرجنتينية الناعمة: ـ

ـ ليس لي ماضٍ شديد النظافة، يا سنيور، إذا كان هذا ما تود معرفته: وقليلون جدًا من لهم مثل هذا الماضي إذ أننا خارجون من حرب. لكنني أؤكد

لك أنني لست الشخص الذي تدعيه. اسمي هو هانز ماينينجن، لم أخفه أبدًا ويهذا يشهد جواز سفري الأرجنتيني. لكنني معروف في شنغهاي باسم عمر. وفي عام ثلاثة وأربعين كنت جنديًا في الفيرماخت وكنت في وارسو، ولا أريد أن أحكي لك ما كانت القيادة الألمانية تجبرنا على فعله هناك... وقد نقلت إلى الدار البيضاء مع الحرس الشخصي لأحد الكولونيلات، لكنني كنت قد رأيت ما يكفيني وفررت. أنا هارب، يا صديقي، ولم أكن في فرنسا أبدًا. عشت عامين في بونيوس آيريس ثم في تشيلي، قبل أن أجيء إلى هنا. أنا لست الرجل الذي تبحث عنه. إنك تخلط بيني وبين آخر، وترتكب خطأً فادحًا...

- ليس ثمة أي خطأ، يا حبيبي - تقول تشن جينج، وتلتصق به. ثم تبحث عيناها الضارعتان عن عيني كيم - لقد افترضنا أن زوجي قد بعثك لتراقب خطواتي، لكنني لم أعلق أهمية على ذلك... الآن أفهم أن قصده لم يكن ذلك فقط، أن ما يتسلط عليه هو شيء أكثر من نوبة غيرة، شيء أشد فظاعة بكثير... قال لك ميشيل أن عمر هو ذلك السفاح البغيض، وهكذا برر موته. لكن عمر ليس هو الكولونيل كروجر، مسيو، إنه عشيقي فقط، وكان زوجي يعرف هذا جيدًا حين طلب منك أن تقتله، قائلاً لك إنه بمثابة تهديد لي... قتل عمر، لا كروجر، هو ما أراده، إلى هذه الدرجة من الوحشية حملته الغيرة. هل تفهم الآن؟

من أسفل يصل الصدى المكتوم للأوركسترا والصوت النحيل والأخنف للمغنية الصينية. وبون أن يستطيع تحويل عينيه عن الوجه الشاحب لتشن جينج، مُدركًا في الصلاة الهادئة لصوتها الحب والتكريس للرجل الماثل إلى جوارها والذي تلقي بنفسها عليه راغبة في حمايته، يلتزم كيم الصمت برهة

ثم يدور ببطء، يبدو أنه يفتش بعينيه عن شيء، ربما منفضة سجائر، لأنه قد أخرج علبة السجائر وأشعل سيجارة. هيئته تثير الارتباك لأنه يبدو بارداً ومقتصداً، كأن لا شيء مما قالاه له علاقة به، بينما في الواقع يجتاحه العنف سرًا. يحاول أن يستحضر من جديد في مرآة عقله وميض اليأس في النظرة المراوغة لليفي خلال حديثهما في تلك الغرفة البيضاء والتي لا تشوبها شائبة في عيادة فوتران، يحاول أن يلبس رفيقه قناع الخيانة، لكنه لا يرى سوى مقعد في كرسي بعجل يعذبه الألم وتطارده الوحدة والخوف من الموت.

- ولنفس السبب - تواصل تشن جينج - طلب منك الاستيلاء خفية على كتاب كنت قد أهديته إلى القبطان سو تزو عند نهاية علاقتي معه، قبل زواجي... أنا أعرف أنك حصلت على الكتاب لأن القبطان قد أخبرني. في هذا الكتاب إهداء خاص جدًا إلى سو تزو، وهو أكثر من إهداء غرامي، يا مسيو، إنه جياش وشديد الجسارة - تعترف الصينية الشاب بنوع من الكبرياء -. أراد زوجي دائمًا امتلاك هذا الكتاب، كانت هذه فكرة تعذبه... كل هذا شديد الحزن وساخراً نوعًا ما، لكن الأمر على هذا النحو. ليس ميشيل مريضًا في جسده فقط، بل إنه مريض في روحه. أنا أعرف أنه كان وطنيًا شجاعًا ومثاليًا، رجلاً شريفًا في بلاده، وكان بالنسبة لي، في بداية زواجنا، زوجًا كريمًا ورقيقًا، لكن تدهوره البدني، والانطراح في الفراش والغيرة، وقبل كل شيء الذكرى الوسواسية بالنسبة له لعار عانيت منه في مراهقتي، أخذت جميعها تسمم عقله شيئًا فشيئًا... أتفهم، يا مسيو؟

يُمسكها عمر برقة من كتفيها ويجبرها أن تجلس وأن تهدأ. ثم يستدير الألماني نحو كيم ويقول: -

- كذلك لا يجب أن تخطئ فهم نواياي. لقد اشتريت مزرعة مطاط في ماليزيا وأريد أن آخذ تشن جينج معي. لا شيء يبقينا هنا، فسوف يتغير كل شيء خلال وقت قصير ولا نريد لا هي ولا أنا أن نرى هذا التغيير. شنغهاي الغد ليست لنا.

لكن نظرة كيم الفاحصة تظل مثبتة في تشن جينج، وتواجه هي تلك النظرة دون أن يطرف لها جفن. ثم يدير لها ظهره بعنف، أو بالأحرى، يستدير نحو نفسه متسائلاً عن ظل غرير من الماضي، عن شبح ولاء اسمه كيم فرانش أحضره من بعيد جداً إلى هنا ويتنصل الآن من حسن نيته اللعين. هكذا إذن، فإن ذلك الرجل الذي كان هو يعجب به ويحترمه، كان يستخدمه لأغراض إجرامية ولفائدته الشخصية ليضع قناعاً على مشكلة عاطفية ومنزلية، هي في جوهرها مسألة لعينة البساطة: شقاؤه من خيانة زوجية. لا يدري هل ينطلق في الضحك أم ينخرط في البكاء. أما أشد ما يؤلمه فهو أن ليفي، سواء فقد صوابه أم لا، قد فعل ذلك تحت غطاء ذلك المثل الأعلى الذي وحّد بينهما متضامنين في النضال من أجل الحرية والعدالة، ذلك الحلم الذي رافق كيم طيلة حياته وملأ بالمعنى كل فعل من أفعاله، والذي حمله حتى شنغهاي مهدداً مستقبله بطريقة مرعبة ومخاطراً بحياته، ليتركه في النهاية ملقى على عتبة فخ في مواجهة عاشقين غير تقليديين على الإطلاق، مصممين وآملين، وثلاثتهم يلاحقهم المخطط المسعور لليفي...

فلنتوقف، مرة أخرى، أيها الشابان، أمام كيم ولنتأمل في أسلوبه في مواجهة الظروف المعاكسة، ولنلاحظ إيماءاته البسيطة والقاسية أمام

الهزيمة، طريقته المحبطة في إدارة ظهره لسرابات الحياة ولمقالب المثل الأعلى. فعن اقتناع بأن الكلمات لم تعد تجدي، وخصوصًا كلماته، يرفع بسبابته حافة القبعة قليلاً فوق جبهته، كأنه يتخلص من محاكاة زائفة لا شخصية، ثم يميل مستغرقًا على منفضة السجائر فوق المنضدة الصغيرة المدهونة، يسحق السيجارة بعناية فائقة، وينظر إلى العاشقين بابتسامة يشوبها شيء من عدم التصديق، ليست موجهة إليهما، بل إلى نفسه بالتأكيد، ومستديرًا نصف دورة يمضي من حيث أتى.

وما زالت الليلة تخفي له مفاجأة أخرى. فبعد أربعين دقيقة، حين يدخل الصالون المضاء والمهجور لمنزل تشن جينج، سيدق جرس التليفون. ستكون المكالمة من عيادة فوتران على مشارف باريس، حيث الساعة هناك الآن السابعة مساء، والرسالة بالغة الإيجاز: «نأسف لإبلاغكم أن مسيو ليفي قد توفي في غرفة العمليات خلال إجراء جراحة دقيقة...».

لكنه الآن، بينما يوغل في الليل الخانق عبر كيوكيانج رود في طريق عودته إلى المنزل، لا يعرف كيم ذلك بعد وتفكيره بعيد جدًا عن باريس وعن احتضار صديقه المكيافيللي. يصل دون تعجل إلى ممشى البوند ويتوقف لينظر إلى الانسياب البطيء والساكن للهوانج - بو وهو متكئ بمرفقه على السياج فوق المرفأ المعتم. لا يرى ما ينظر إليه، إن كان ينظر إلى شيء. لا يرى تحت أنفه في هذا الموضع بالضبط، الدوامة التي تنفتح مثل عين مسهدة في وسط المياه القذرة النائمة، دوامة صغيرة يحدثها تيار عميق وعنيف للنهر، تبتلع بصورة تسبب الدوار كل ما يطفو منجرفًا حولها. على نحو مشوش، يحس كيم بأنه لم يعد هناك وقت لأي شيء تقريبًا، ربما

باستثناء العودة إلى المنزل... لكن، أي منزل؟ ما هو منزلي، أين منزلي؟ من المرفأ يصل إليه رذاذ متواصل ومتعب وعطر مائع لمخلفات زيتية ولأزهار متعفنة، لمشاغل النهار المنصرمة. تنزلق ثعابين لامعة من الضوء فوق سطح النهر وتنعكس متماوجة على الجوانب المشحمة للزوارق، بينما في عمق المياه، تتوالى أمام كيم، الواحد وراء الآخر، يحملها التيار غير المحسوس والطيني، وجوه الرفاق الذين ماتوا أو فقدوا في الدوامة الدامي لسنوات عشر، ويعاود قراءة أسمائهم في اللوحة المغمورة للذاكرة ويحس في دمه من جديد بذلك الدوار من الوعود التي همستها الحياة لكل واحد منهم ذات يوم ليس ببعيد، والتي لن تتحقق أبدًا. يتصاعد من النهر صمت غرقى ثقيل ويحاول هو متضامنًا للمرة الأخيرة أن ينظر في المياه العكرة، أن يمتزج معهم وأن يغرق ويختفي هو أيضًا، لكنه لا يحس بشيء؛ ربما لم يعد هناك وقت حتى للتأمل. طوال كل منفاه المحموم تأمل كيم نفسه في مرآة الماضي بطريقة متواطئة، حتى قرّر ذات يوم أن يحطم تلك المرآة وينظر في مرآة المستقبل معك، ومع أمك ومع زوج من الأغنيات لا تفارق الذاكرة، لكنه الآن يعتقد أن الوقت قد فات...

حينئذ يبدأ المطر في التساقط بقوة فوق المرفأ وتنضح أشجار البوند الوارفة عطرًا كثيفًا يمتزج بعطن الهوانج - بو. وقبل أن يواصل كيم طريقه، يرفع يده إلى قلبه وإلى المسدس في جراب الإبط، من يدري إن كان ينتوي أن يطوح بالاثنين إلى مياه النهر الداكنة، رغم أنني أقسم أنه يود فقط أن يتخلص من المسدس، فاهدئي إذن، يا طفلتي، فالحكاية لا تنتهي هنا، مازح فوركات غامزًا سوسانا بعينه الحولاء وممسكًا يدها بحب...

# الفصل الثـــامن

## ١

من الشارع أو من الحديقة، أو ربما من مكان أقرب، من يدري ربما من قلب الربيع ذاته الذي صارت سوسانا تلمحه في أحلامها، أو ربما من المغامرة التي كنا لا نزال مشتبكين في أحبولتها في المدينة النائية والخيالية، المؤكد أن رائحة مباغتة لأرض مبتلة قد اخترقت القاعة فسكت فوركات. كان أصيل يوم أربعاء، آخر أيام أغسطس، وكانت غريبة تلك الرائحة لأن السماء لم تكن قد أمطرت ولا بدأت السنيورة أنيتا في ري الحديقة؛ فقد كانت مشغولة في المطبخ حين دق جرس الباب.

لم نكن قد رأينا أحدًا يعبر بوابة الحديقة لأن شيش النوافذ كان مسدلاً. من باب المدخل بلغنا صوت رجل يتحدث مع السنيورة أنيتا، وعند سماعه، شحب فوركات بشكل ملحوظ، وأفلت يد سوسانا ونهض من على حافة الفراش ليجلس على المنضدة الصغيرة، حيث بقي شديد السكون ناظرًا إلى رسمي الذي أصبح مكتملاً تقريبًا. كنت جالسا على الجانب الآخر من الفراش ونهضت أنا أيضًا، رغم أنني لا أدري ما دفعني إلى ذلك.

- هنا رجل يبدو أنه يعرفك - أعلنت السنيورة أنيتا من غرفة الطعام، وهي تتقدم الزائر. لم يرفع فوركات بصره عن الرسم وأضافت هي بصوت يشوبه بعض الحذر -: يقول إن اسمه لويس دينيسو وأنه قادم من فرنسا ...

لم يكن قد دخل القاعة بعد حين خفض فوركات رأسه ووضع يديه ببطء شديد فوق المنضدة الصغيرة حاجبًا بهما رسمي، كأنه يود أن يتشبث به في وجه لفحة ريح متوقعة أو ربما أن يخفيه عن نظر الدخيل، أن يحميه من الكراهية واليأس اللذين أحضراه إلى هنا واللذين أدركهما هو فور سماع صوته.

- أهلاً، يا فوركات - باليد اليسرى في جيب الجاكتة، ومتحركًا بسلاسة مدروسة، اقترب قائمقام كيم في تولوز وربت على ظهره.

بعدها مباشرة حيا سوسانا وسأل عن صحتها بود، قرص ذقنها وقال لها إنها جميلة جدًا وأنه يعرف ذلك بالفعل من والدها . حركت سوسانا الهواء بالمروحة الحريرية ونظرت بوقاحة وفضول إلى القادم الجديد، الذي لم يكد يتوقف أمام حضوري. صديق لابنتي، قالت السنيورة أنيتا، التي كانت قد بدأت ترفع الشيش بتعجل وبشيء من العصبية. وفي الحديقة تباطأت شمس أغسطس الأخيرة.

أول ما لفت نظري في دنيس كان أنه لا يبتسم بفمه، بل بعينيه؛ كان في عينيه وميض عكر، مرضي، وكانتا على نحو ما تصنعان علاقة ماكرة وشديدة الحسية مع الفم المتألم الضخم، المرسوم جيدًا . أعتقد أنني لم ألتقط تمامًا في ذلك اليوم تفاصيل شخصه تلك، التي هي أشد التفاصيل دفئًا في هيئة باردة ومتباعدة لا يمكن أن تكون قد غابت عن اهتمام

سوسانا، بل فيما بعد، حينما صارت الدراما الحميمة التي أتت به إلى البرج مسألة شائعة؛ كانت تلك عيون وفم رجل يتملكه هاجس، تتملكه حمى تنهشه. منذ حدثنا فوركات عنه سوسانا وأنا، جاعلاً إيانا نرى على نحو بالغ الحيوية عرجه الأنيق وحركاته المرهفة عند وداعه لكيم في تولوز، بعد تشحيم مسدسه وتمنى حظ سعيد له، ظلت الشخصية الأنيقة ولقبها في وعينا يحدثان فينا انبهارًا غريبًا.

كان يرتدي بذلة بلون أزرق داكن ذات جاكتة بمربعات ورباط عنق داكن يحاكي جلد الثعبان، وكان أصغر سنًا مما كنت قد تخيلته، أو يبدو هكذا، مليحًا، بهالات تحت عينيه، رشيقًا، وأنيقًا أناقة من يريد أن ينال الإعجاب، متكلفة ومرحة.

حافظ فوركات على صمته الغريب وتوقف دنيس أمام الكيمونو الصيني ذي الأكمام الواسعة والنقوش على الظهر.

- مرحى لفنان برشلونيتا التافه - قال -. كم أصبحت مرفهًا. قيل لي إنك هنا، تتطفل كالمعتاد، لكنني لم أحسبك قد وطدت مركزك هكذا وبكل هذه الرفاهية.

- وأنت...؟ - قاطعه فوركات دون أن ينظر إليه، وصوته محتبس في البلغم. تنحنح، وبعد فترة توقف، وكأنه قرر فجأة الحديث عن شيء آخر، أردف -: متى وصلت؟

- منذ أسبوعين - بكلتا يديه في جيوب البنطلون، أسند دنيس ظهره على النافذة الزجاجية وفتش عن نظرة السنيورة أنيتا، التي كانت قد جلست على حافة الفراش، لكن ما أردفه بدا موجهًا إلى فوركات -: هل يدهشك

ذلك...؟ حسنًا، لندخل في المهم. ماذا تعرف عن العرص كيم؟ هل بلغتك أخبار عنه، أنت أو العائلة؟

نظرت السنيورة أنيتا وابنتها إلى فوركات في انتظار إجابة أو على الأقل علامة استغراب. لكن فوركات لم يرد، عندئذ غرست سوسانا عينيها اللامعتين في دنيس، وطوحت المروحة على الفراش، واحتضنت القط القماشي إلى صدرها وقالت بأشد الأصوات غضبًا: ـ

ـ لماذا تتحدث عن أبي على هذا النحو؟ ألا تعرف أنه بعيد جدًا...؟

ـ طبعًا. بعيد جدًا. لكن أين.

قبل أن تجيب سوسانا، نظرت إليه بشك، نظرة ملية:

ـ إنه في شنغهاي.

ـ حقًا؟ ـ تظاهر دنيس بالدهشة وفتح عينيه عن آخرهما ـ اللعنة، إنه بعيد حقًا! نعم بعيد! ولماذا لا يكون في بكين، أو في بغداد، أو في داهية؟ من الذي حكى لك هذه الحكاية، يا أمورة؟ ـ عاد ليتفحص متهكمًا صمت فوركات ثم نظر إلى أم سوسانا ـ. وأنت ماذا تقولين، يا سنيورة؟ أتعتقدين أنت أيضًا أن ابن القحبة هذا قد ذهب ليختبئ في مكان بعيد هكذا؟ الحقيقة، أقسم أن كارمن... ـ عند هذه النقطة انشرخ صوته وبدا أن هذا قد ضايقه، فقد ثقته وتحسس رأسه وتنحنح بقوة غير ضرورية ـ. حسنًا، إنها لا تكاد تعرف القراءة والكتابة وأعتقد أنها لا تستطيع تحديد هذا المكان على الخريطة، لكنها تعرف أنه بعيد جدًا، على الجانب الآخر من العالم، وأظنها لا تريد العيش بعيدًا جدًا هكذا... لا، لا بد أن هذه دعابة. أنت ماذا تظن، يا فوركات، أيها البعوضة الميتة؟ أم أنك تفضل الاستعباط؟

إن هذا حقًا لشخص غريب ـ أردف مستعيدًا ثقته بنفسه وموجهًا كلامه الآن إلى السنيورة أنيتا ـ. هذا الشخص الذي ترينه، يعرف اليونانية واللاتينية... كم يعرف هذا الأخ!

نظرت السنيورة أنيتا إلى دنيس بفزع.

ـ عم تتحدث؟ ـ قالت بصوت ليس صوتها ـ. لماذا أتيت حضرتك إلى منزلي؟

ـ اسألي فوركات. إنه يعرف لماذا أتيت.

لم يرد فوركات فشرح دنيس ببرود وبدون أدنى مرارة، بصوت هامد قد امتزج بالقدرية: جاء ليعرف أخبار كيم، ليعرف إن كانوا في هذا المنزل المبارك يعرفون أو ينتظرون أخباره، إن كانت زوجته تعتقد، ليس أنه يمكن أن يعود إلى جوارها ذات يوم، فقد كان هذا قليل الاحتمال دائمًا، وأصبح الآن مستحيلاً بالتأكيد، بل إنه سيتذكر ابنته على الأقل ويأتي ليراها، أو ربما يكتب ليسأل عن أخبارها؛ إن كان فوركات أو غيره يعرف مقره في مكان ما من قطالونيا أو ربما في قرية ضائعة في جنوب فرنسا، كما يفترض هو، في أي مخبأ لعين يتقاسمه مع كارمن وابنها منذ ما يقرب من عامين... كان يتحدث بصوت متمهل وناظرًا إلى فوركات، لكن كلماته واحتقاره الدفين كانا موجهين إلى السنيورة أنيتا وإلى ابنتها: إنه لا يدري كيف ولا أين بدأت الخدعة، لكنه قد جن من تصورها ألف مرة خلال ألف ليلة بلا نهاية. أن ذلك لا بد قد حدث وقت الرحلة الأخيرة لكيم حاملاً نقودًا لها ولوالديه، «نقود لم يتلقاها هؤلاء أبدًا، أفترض أنك لم تكن تعرف ذلك أيضًا»، أضاف متفحصًا فوركات، لكنه يعتقد أن كل شيء بدأ قبل ذلك

بكثير لأن كيم كان ينام دائمًا في منزله في أورتا حين يسافر سرًا إلى برشلونة، وكانت كارمن تعيش هناك وتطعمه وتعد له الفراش... منذ متى تفاهما، أو تحابا، هل منذ المرة الأولى التي أوته فيها؟ ومن الذي خطا الخطوة الأولى، مَن مِنَ الاثنين انتهز الفرصة ونفخ في جمرة هذه الفورة الغرامية التي قلبت كيانهما وحملتهما إلى حيث لا يدري سوى الرب؟ هل سعى هو إليها، هل أغواها بإحباطه الكئيب الذي كان يدفعه في تلك الأيام، أم كانت هي، في احتياجها الشديد إلى الحنان وإلى الدفء ولو لليلة واحدة...؟ أم أنهما قد تحابا حقًا وبدون شفاء، دون رغبتهما وعانيا من تلك الخيانة للرفيق...؟ لكن ما أهمية هذا الخراء. فبعد اعتقال نوالارت، وبيتانكورت وكامبس، ومن يدري إن كان هو نفسه قد وشى بهم، أم أنك لم تكن تعرف هذا أيضًا؟ حسنًا، في نفس تلك الليلة أعدا الحقيبة بعجلة وعبرا الحدود مع الطفل، كما كنت قد طلبت من كيم وتوقعت ورجوت، لكنهم لم يصلوا أبدًا إلى تولوز، ولم أرهم بعدها أبدًا...

كان دنيس يتحرك بسلاسة متسللة وصارمة ويبدا واثقًا من نفسه، ومتوافقًا مع جانبيته ومع طريقته الباردة، لكنه من حين لآخر لم يكن يستطيع كبح الإيماءة الحانقة، النظرة العدائية للمنفى لزمن طويل والذي عليه أن يتعلم العيش مع ماضٍ مرير حَكَم عليه بالوحدة.

- لكنني لا أرضى بفقدانها، والرب يعلم - واصل، دافنًا يديه في جيوب البنطلون، كأنه قد تجمد - لقد فتشت كل إقليم الميدي، من مارسيليا إلى تارب ومن تولوز إلى بربينيان، فكأن الأرض ابتلعتهم. والحقيقة أنني لا أعرف إن كانوا قد عبروا الحدود... يمكن أن يكونوا قد بقوا في قرية من

قرى جبال البرانس، أو ربما في مدينة كبيرة بحيث لا يمكن العثور عليهم أبدًا. وأملي الوحيد هو أن يتصل بك ـ ووجه إلى سوسانا نظرة حزينة ومتصالحة، أن يكتب لك أو يأتي لرؤيتك. نعم، أنا واثق أنه سيفعل يومًا ما، وذلك اليوم سأكون قريبًا لأراه... إنه يحبك كثيرًا. دائمًا ما كان يتحدث عن طفلة روحه. رغم أن الحقيقة ـ وإفتر للمرة الأولى عن ابتسامة كئيبة ـ، أنك لم تعودي طفلة. لكن ابني لويس ما زال طفلاً، ولم أستطع رؤيته إلا في الصور...

منذ بعض الوقت، لم يكف فوركات عن النظر إلى سوسانا. أما هي، فكانت جالسة في الفراش وظهرها شديد التصلب، تضم بين ذراعيها القط الأسود وعيناها منكستان. وفي أوقات مختلفة، بينما كان دنيس يتحدث، تمنيت لو تنظر إلي لكنني لم أفلح. حاولت تخيل المشاعر التي تجتاحها في هذه اللحظة وارتعبت.

كانت أمها تذرع الغرفة بعصبية من جانب إلى آخر وذراعاها متقاطعتان، وحين صمت دنيس، توقفت أمام فوركات وفي عينيها ضراعة: ـ

ـ وكنت أنت تعرف كل هذا؟ تكلم! هل كنت تعرف؟ هل يمكن أن توضح موقفك، لو سمحت؟! ـ مالت نحوه مسندة يديها على المنضدة الصغيرة وكررت السؤال بلهجة غاضبة، شبه هستيرية، لكن الأمر انتهى بها إلى التراجع وجلست مطرقة الرأس في المقعد الهزاز الأبيض. وأردفت، بصوت لا يكاد يبين ـ : لو سمحت...

لمْ يقل فوركات شيئًا، لم يحول عينيه عن سوسانا ولا يديه عن الرسم، حيث بدا أن الدخان الكئيب والساذج الاختلاج للمدخنة يريد أن يتسرب من

بين أصابعه المبقعة، بينما يحاول هو احتجازه في فوهته الورقية. وخلال برهة طويلة لم يرمش له جفن. منكفئًا على ذاته، ومتوترًا، بدا أنه ما زال ينصت إلى تلك الأصوات القادمة من مجال الخيال ويحس بأنه في أحبولة موقف يتملكه من هناك ولم يكن قد توقعه، في أحبولة خيط عنكبوت من ابتكاره، ضمن حدود غير المحسوس الذي يزيّن أكذوبة العالم. تحولت نظرته القوية الحولاء في لحظات إلى نظرة مراوغة لا تكاد تلمس شيئًا مما حوله، باستثناء المريضة، لكن ما كان يشع منها لم يكن الندم ولا الخجل، بل الحزن. أسأل نفسي اليوم فيم كان يفكر، وهو مستقر كما كان عندئذ على اليقين بأن كل شيء عابر ويستوي، القناع والوجه، الحلم والصحو، بينما هناك في القاعة التي بدأت تغزوها أولى ظلمات الليل كنا نحس جميعًا بتنامي الصمت الذي يدينه. بألم وارتباك متزايدين، كانت السنيورة أنيتا تتضرع إليه أن يقدم تفسيرًا.

- دعيه وشأنه - اقترح دنيس، دون أدنى حشرجة في صوته -. ماذا سيقول، الشيطان البائس.

أما يداه المفرودتان فوق المنضدة، والمنهمكتان على ما يبدو في حماية رسم سوسانا، فقد تراءى لي أنهما مجردتان من ذلك الاحتراق الداخلي الذي كان يحركهما ومن سلطتهما الغريبة على عقل وجسد السنيورة أنيتا، واليوم أظن أن المحتال العظيم، كان يعرف طول الوقت، في أعماق قلبه، أن علاقته بهذه المرأة الساذجة والسيئة الحظ والقابلة للأذى لن تدوم إلا بقدر ما تدوم الشعلة الواهنة التي تضيء حلم سوسانا، بقدر الوقت الذي تستغرقه الفتاة في اكتشاف أن النانتوكيت لم توجد مطلقًا وأنها لو

كانت قد وجدت فلا يمكن أن تكون سوى سفينة محطمة وصدئة تتعفن الآن في إحدى الترسانات العطنة للبرشلونيتا، حيث يروق لي أن أتخيل أنه رآها عرضًا ذات ليلة ضبابية من ليالي الشتاء بينما كان يتجول على غير هدى بين المرافئ؛ لا يدري ما يفعل بحياته وبذكرياته، وأنه في هذا المكان بالضبط، جالسًا على أحد مراسي الميناء في مواجهة هذه السفينة الشبح التي برزت من الضباب، بدأ في نسج حبكة هجومه السلمي على البرج وخيط العنكبوت العاطفي الذي سيوقع في أحبولته الأم والابنة... أراه خلال ذلك الربيع، في الأيام السابقة على وصوله، وهو يغسل الصحون ويخدم في حانة الميناء المملوكة لأخته المتزوجة وفي أوقات فراغه ينظر من خلال زجاج البار إلى مقدمات السفن الراسية أمامه ويرسم مسار النانتوكيت في بحار الذاكرة، ويروقني أن أعتقد أن الكيمونو والهدايا التي أحضرها إلى سوسانا قد حصل عليها من بحار آسيوي سكر هناك ذات ليلة أو لفت انتباهه من فوق سطح سفينته بفانلته الملطخة بالشحم وعينيه المشقوقتين ليقدم له مبتسمًا «طقم» أقلام حبر أو تبغًا أشقر، أو مجموعة من بطاقات البريد الغرائبية لشنغهاي وسنغافورة أو تلك المروحة الحريرية الجميلة مقابل زجاجة من الروم أو الكونياك، يهرِّبها هو من الحانة...

لم تكن السنيورة أنيتا قد فرغت من لومه على صمته العنيد، حين لاحظ دنيس قلق سوسانا: ـ

ـ ماذا دهاك؟ ـ قال لها، وربت رأسها مطرقًا بلسانه ـ: أكيد أنك كنت تنتظرينه، أكيد... أما زلت تعتقدين أنه سيأتي ليأخذك؟ أحقًا تعتقدين ذلك، يا «أمورة»؟ يؤسفني أن أقول لك هذا، لكنني أقسم أن كيم لم يفكر جديًا

أبدًا في أخذك معه، رغم أنه اعتاد الحديث عن ذلك؛ لا أنت ولا والدتك. أما أمك فقد كان قد نسيها فعلاً حين عرفته، لم يكن يذكرها أبدًا. بالنسبة له لم يكن ثمة وجود إلا لدكتاتورية فرانكو وقطالونيا والحرية، ولا شيء سوى ذلك... ـ صمتَ وفركَ جفنيه بإيماءةِ إجهادٍ، ثم لمحتُ عينَة المُنْتَقِمَّة تدور من جديد في الفراغ ـ: لكن هذا كان من قبل. ربما يفكر الآن كثيرًا في ابنته العزيزة.

جلستُ مرة أخرى على حافة الفراش، على الجانب الآخر من حيث كانوا جميعًا، ولم أتأخر في ملاحظة يد سوسانا بين طيات اللحاف تبحث عن يدي وتضغط عليها بقوة، بينما اقترب منا دنيس مشعلاً سيجارة، وبدأ، وقد تملكه فجأة فضول هازئ وقاس، يسألها ماذا بحق اللعنة ظنت هي أن أباها يفعل في شنغهاي، ماذا سيذهب للبحث عنه في اعتقادها لاجئ لم تعد له جذور في أي مكان ويملؤه الحنق مثل كيم، ومثله هو شخصيًا، وإذا ما كانت لا تزال بعد ما جرى تود اجتماع شملها معه. لم ترد سوسانا على أي سؤال من أسئلته ولا حتى نظرت إليه؛ وانتبهت أنا إلى أنها لا تريد، ولا تستطيع الحديث عن ذلك. لكنه أصر، هيا نضحك قليلاً، فجميعنا بحاجة إلى ذلك، قال، هيا، يا طفلتي، احك، ولما رأيتها ملاحقة على هذا النحو قررت الحديث نيابة عنها، أو بالأحرى نيابة عن كلينا. بصوت يشوبه اقتناع هش جدًا، لكن بصلابة عزيمة ما زالت اليوم تجعلني أشعر بالفخر، ذكرت التحالف بين ميشيل ليفي وكيم في باريس، ورحلة النانتوكيت والمهمة الخاصة في شنغهاي، وحراسة تشن جينج والمغالطة الخائنة من جانب زوجها، واهتم دنيس، الذي كان ينصت إلي متسليًا وإحدى ساقيه على دعامة الفراش وذراعاه متقاطعتان فوق ركبته،

ببعض التفاصيل وبتقلبات معينة وجعلني أكرر أسماء القبطان سوتزو، وكروجر، عمر، وبو يويشنج، وتشارلي وونج... انتابني شعور، بينما أكرر الأسماء دون رغبة، بأنني أشي بها، بأنني أدنس شيئًا. بدا لي أنني أنبش في جرح فوركات، الذي نظرت إليه عدة مرات طالبًا عونه، منتظرًا أن يدافع عني، لكنه بدا أنه لم يعد موجودًا. وكانت ضحكة دنيس بالغة الغرابة، فقد كان يبتلعها، كانت صامتة، حتى صرخت سوسانا أن كفى، فليذهبوا جميعًا إلى الجحيم، وانطرحت على جنبها على الوسادة مديرة له ظهرها، معانقة قطها ووجهها باتجاهي وعيناها مفتوحتان لكنهما لا ترياني، ونظرتها مصوبة إلى عالم قد فقد الشفافية والكلمة.

مال دنيس فوقها نادمًا وربت شعرها مغمغمًا بكلمات اعتذار، بينما كانت السنيورة أنيتا تقول لفوركات وقد صارت أكثر هدوءًا، تكاد تكون متألمة من أجله: «لكن، الرسالة، وبطاقات البريد...؟»، وذلك أيضًا كان على القادم الجديد أن يوضحه: «يا امرأة، هذا أبسط شيء في الدنيا؛ لقد قلد خطه وإمضاءه، كان دائمًا بارعًا مع الريشة والقلم. فنان حقيقي.».

لم يعد يدخل عبر الزجاج سوى قدر ضئيل من ضوء النهار والآن، بينما لا زال دنيس يربت برقة ظهر سوسانا ويهمس في أذنها شيئًا، انمحت تقاطيع الوجه المربد ولم يكن يضيؤها من حين لآخر سوى لهب السيجارة. ودون أن أنتظر أن يأمرني فوركات، كما فعل مرات عديدة في نفس هذا الوقت، أضأت النور فنهض هو أخيرًا ببطء من المنضدة الصغيرة وأبعد يديه عن الرسم. مر بجوار السنيورة أنيتا وتوقف عند باب القاعة، استدار وظل ينظر إلى ظهر سوسانا؛ بدا أنه سيقول لها شيئًا، كان واقفًا هناك

ورأسه منتصب ويداه مختفيتان في كمي الكيمونو وتحرقت أنا شوقًا لأن يقول لها شيئًا، ولو كان مجرد تصبحين على خير، لكن ما فعله هو أن أدار رأسه قليلاً ليتبادل مع الدخيل نظرة متعبة وودية، وميضًا خفيفًا من الإعزاز القديم أو من الحلم الأخوي الذي اقتسماه ذات يوم، ثم نظر إلى السيجارة التي يتصاعد منها الدخان والتي بين شفتي دنيس.

- التدخين هنا ممنوع - قال بصوت مستحث وصارم، ودون أن يضيف على ذلك شيئًا اختفى داخل المنزل.

وبعد بضع ثوان من التفكير، وذراعاها مشتبكتان ومرتبكة لا تزال، خرجت السنيورة أنيتا وراءه. وبعد قليل سمع صوتها وهي تسبه وتصرخ. جذب دنيس نفسًا من سيجارته ثم ألقاها على الأرض وداسها، ثم عاود الانحناء على المريضة ووضع يده على كتفها.

- هيا ننسى كل هذا، ممكن؟ - قال -. حاولي، فأنت تستطيعين ذلك. هذا الرجل ليس سوى مختلق حكايات بائس...

بعدها توقف عندي وخلسة لكن بنوع من الحدة، أشار لي برأسه أن أذهب. تظاهرت أنني لم أفهم، وعلى الفور قال: -

- وأنت امض، يا صبي. فالوقت متأخر.

كان الرسم غير المكتمل لسوسانا، ذلك الذي أرادت أن ترسله إلى أبيها ليراها وهي مضطجعة في الفراش مرتدية التشيباو الحريري الأسود وتحت تقاطع دافئ لأضواء تتخلل الزجاج، ما زال فوق المنضدة الصغيرة مع علبة الأقلام، والممحاة، والمبراة. وضعت كل شيء في الحافظة، وتمكنت من قول «ليلة سعيدة، يا سوسانا»، ومضيت.

# ٢

غادرناندو فوركات البرج في الصباح التالي. رآه الأخوان تشاكون يخرج بحقيبته الكرتون القديمة والمعطف مثني فوق ذراعه، فألقيا عليه تحية الصباح وسألاه إلى أين يمضي، لكنه اكتفى بالنظر إليهما. عبر الشارع والسوق تحت سماء واطئة ورمادية وإختفى عند ناصية شارع ثرينيا.

علمت أنا في المساء. توقعت أن أجد خوان وفينيتو جالسين أمام البوابة، كالعادة، لكنهما كانا قد نقلا منصتهما إلى الرصيف المقابل.

- إنه ذلك المدعي الذي جاء بالأمس - قال خوان -. إنه في منزل سوسانا.

- لقد طردنا من هناك، يقول أننا نتجسس على سوسانا - أضاف فينيتو -. وأراد أن يعرف إن كان لدينا تصريح من البلدية بإقامة منصة في الشارع.، العرض... لكن، ماذا ظن هذا الرجل؟ من هو؟ يا داني؟

- صديق لوالدها. هل عاد قبل أو بعد ذهاب فوركات؟

- بعد ذهابه.

- أعتقد أن هذا القواد يظننا سنتجسس عليه - قال أخوه.

كان شيش نوافذ القاعة مسدلاً. في هذه الساعة، لا بد أن تكون السنيورة أنيتا جالسة في شباك تذاكر سينما مونديال. طرقت الباب ففتح دنيس مشمراً كمي القميص، والسيجارة بين شفتيه ورباط العنق مفكوك ومعلق من رقبته مثل ثعبان ميت. كان شعره الأسود الضارب إلى الزرقة من النعومة وجودة التصفيف بحيث بدا مستعاراً. قال لي إن سوسانا ليست على ما يرام وأنها لا تريد أن ترى أحداً خلال أسبوعين أو ثلاثة على الأقل،

وربما أكثر، وهكذا فشكرًا على اهتمامك وسلام، يا غلام. ثم أغلق الباب في وجهي.

حاولت مرتين آخريين بنفس النتيجة دائمًا: سوسانا بحاجة إلى الراحة. وفيما بعد عرفت أن دنيس لم يكن يسكن في البرج لكنه يأتي كل يوم وأنه اعتاد التوقف في السوق لشراء فواكه وأحيانًا سمك لإرضاء السنيورة أنيتا وابنتها. وذات مساء في أوائل سبتمبر كان الجو فيه شديد الحرارة خرج من البرج بالفانلة، وعبر الشارع وهو يحرك الهواء بصحيفة وبعث فينيتو ليشتري برطمان بريانتين وبرطمان مساج ماركة فلويد، وأعطاه بقشيشًا جيدًا. وذات يوم آخر خرج بزوج حذاء ذي لونين لكي يحمله له إلى محل إصلاح ليضع له نصف نعل، وكان البقشيش سخيًا كذلك.

في تلك الأيام، عند فجر يوم اثنين كئيب، استهللت خجلاً معطف عمل رمادي طويل اشترته لي أمي ودخلت كصبي متمرن في ورشة شارع سان سلبادور، ومنذ ذلك الحين كنت أقضي أغلب النهار وأنا أجوب برشلونة متشعلقًا من سلم الترام، أسلم مجوهرات لمتاجر أو لزبائن خاصين أو أوصلها إلى صاغة ينقشونها أو يرصعونها، دائمًا بحافتها الخضراء ورائحتها التي تشبه «بوية» سُخِّنت تسخينًا شديدًا. وعلى عكس ما اعتقدته أمي عندما اختارت لي هذه المهنة، فلن أبلغ أبدًا درجة أن أصمم بروشًا أو خاتمًا، لم تكن براعتي المفترضة في الرسم ضرورية ولا مطلوبة على الإطلاق، لكنني في المقابل أستطيع القول إنني في سن الخامسة عشرة كنت قد عرفت المدينة شبرًا شبرًا بكل شوارعها وكل ميادينها، بكل خطوط ترامها وكل محطات المترو فيها، من الحي الصيني حتى حديقة جويل ومن

سانتس حتى بوبلنو. وعندما لا تكون هناك مشاوير فإنني أكون تحت أمر الثلاثين عاملاً في الورشة الجالسين على ثلاث مناضد ضخمة، أو كنت أظل واقفًا ويداي خلف ظهري بجوار المسؤول الأكثر سرعة وخبرة، متأملاً كيف يتحكم في المنشار الدقيق جداً، وفي المبارد وصاروخ اللحام. سيدوم التدريب عامين وكان الأجر الأسبوعي خمسة عشر بيسيته، ورغم أن المهنة ستروقني، فقد ظننت في البداية أنني لن أتحمل حتى أسبوعين.

لكن مضى شهران تقريبًا دون أن أنتبه وعند نهاية أكتوبر، ذات ليلة دعت فيها أمي من جديد صديقها خبير الأقدام للعشاء، حبست نفسي في غرفتي وأنهيت من الذاكرة رسم سوسانا. أظن أن ذلك كان طريقة لأن أكون معها في القاعة من جديد، أن أراها من جديد: مستلقية في الفراش، كانت مثل تمثال صغير من الخزف داخل صندوق من الزجاج، يحاصره الدخان الأسود للمدخنة والغاز الشبحي الذي يشكل هاجسًا للكابتن بلاي. راقني الرسم وقررت أن أحمله إليها. لم أكن متأكدًا أنها ستقبله، كما أنني كنت أخاطر بأن تقول لي اذهب إلى الجحيم مع الرسم، لكنه كان ذريعة لزيارتها. ذهبت يوم أحد في الصباح متوقعًا أن تفتح لي الباب سوسانا نفسها أو أمها. كان الأخوان تشاكون ومنصتهما قد غادرا الرصيف المقابل منذ زمن. رأيت المقعد الهزاز الأبيض في الحديقة، بجوار منضدة صغيرة من الخيزران عليها مجلات ومنفضة سجائر.

فتحت لي السنيورة أنيتا، وفي يدها المرتعشة كأس نبيذ حوافه مصطبغة بأحمر الشفاه، عصبية لأقصى درجة وسعيدة جدًا برؤيتي. احتضنتنى بعتاب ودي لأنني نسيت طفلتها المريضة المسكينة ثم تعلقت

بذراعي، وغمغمت «دانييل والأسود!» بصوتها المصطنع وعدنا نعبر معًا الردهة المظلمة ذات السقف المرتفع المنقوش والقذر، النفق الطويل الذي كان في الأيام المشمسة ينتهي بانفجار للضوء. لكنها فجأة، في منتصف الطريق، توقفت ورأسها فوق صدرها وأسندت يدها على الجدار، ساكبة النبيذ من الكأس؛ وبينما تنزلق أطراف أصابعها على الجدار، كأنها تتحسس نقشًا بارزًا على سطحه، أخذت تبكي في صمت، ظننت أن سوسانا ربما انتكست في مرضها... استدارت نحوي، مبتسمة قليلاً بعينيها الزرقاوين الزجاجيتين، ووضعت يدها على صدري وقالت: «تعال كلما أردت، يا بني»، قاذفة في وجهي نفسًا ينضح برائحة النبيذ. أحسست أن الوحشة المتقلصة للإيماءة، وأصابعها المتشبثة الآن بقميصي، تشل قدرتي على الرد. عندئذ بذلت هي جهدًا لتتمالك نفسها وقالت: -

- أنا بحاجة إلى بعض البقدونس. سأطلبه من جارتي - وبخطوة غير ثابتة، رافعة الكأس إلى فمها، انزلقت عبر الردهة مثل شبح ودخلت غرفتها.

## ٣

كانت قد عانت من انتكاسة، وتجاوزتها. لكن على أي نحو: لم تبد أنها نفس الصبية، لم تكن هي نفسها. كان شعرها اللامع الأسود مضمومًا في ضفيرتين سميكتين ومفروقًا في المنتصف تمامًا بفرق فوق جبهتها، التي تحفها دوائر معقوصة نافرة صغيرة ويلتمع فيها بعض العرق، ورغم الضفيرتين والشعرات المعقوصة الصغيرة، بدت أكبر: العينان غائصتان أكثر، والوجه أشد سمرة وامتلاء بالزوايا، والشفتان كأنهما متورمتان. كانت تجلس في الفراش مرتدية بلوفر رجاليًا واسعًا رماديًا فوق قميص النوم،

ركبتاها مرتفعتان وساقاها مفتوحتان تحت الملاءة الرقيقة، وكانت يداها بين فخذيها وكل انتباهها مركز في تحريك صندوق صغير مسطح، هو لعبة بها كرات بحجم قطرات اللعاب يجب إدخالها في بعض الثقوب، لم تتركه لحظة واحدة طوال وجودي هناك. نظرت إلي بجانب عينها وردت على تحيتي بمحاكاة تهكمية للغة الحكايات المصورة: ـ

ـ آه، أهلاً!، من لدينا هنا؟

ـ قالوا لي أنك لا تريدين رؤية أحد...

ـ أكيد. لم أعد أذكر.

ـ هل أنت أحسن؟ هل زالت عنك الحمى؟

ـ يقولون أنني مثل وردة. ها.

ـ هل ما زالت لديك شرطات...؟

ـ أقل باستمرار ـ قاطعتني نافدة الصبر ـ. والآن أخرجُ إلى الحديقة.

لاحظت أن المنضدة الصغيرة لم تعد عليها صورة كيم بقبعته المائلة ومبتسمًا للمستقبل. كانوا قد أشعلوا المدفأة، لكن لم يكن عليها أي قدر يغلي بالكافور.

ـ أتعرفين أنني أعمل الآن؟ ـ قلت لها ـ. الآن ليس لدي إجازة سوى أيام الأحد.

ـ حسنًا، أيام الأحد ومساء السبت، أليس كذلك؟

ـ مساء السبت يكون علي تنظيف الورشة.

ـ مُرحى. هكذا فإنك الآن جواهرجي ـ قالت وهي تدير الكريات في الصندوق. وهل يروقك العمل؟

- كلهم يقولون أنها مهنة جيدة.

- آه، هكذا؟ وأنت ماذا تقول؟

- لا أقول شيئًا.

لم تعاود النظر إلي منذ دخلت. كان الصندوق الصغير الذي توازنه بين ساقيها أكبر قليلاً من علبة سجائر معدنية ماركة كرافن، لكنه كان من البلكسيجلاس وسطحه شفاف؛ كانت الكريات تدور فوق بحر متموج وزبرجدي به أسماك قرش فاغرة أفواهها، وكل فم هو ثقب يجب إدخال الكريات فيه. سألتها من أهداه إليها، فلم ترد.

- لم أره من قبل أبدًا - قلت - هل هو لعبة جديدة؟

- طبعًا. ألا ترى؟ ما زلت كما أنت بطيئًا وأحمقًا، يا داني.

جلست إلى جوارها على حافة الفراش، وملت لأرى أفضل.

- أنهيت رسمك -- جعلت الحافظة تنزلق من إبطي وهممت بفتحها - ألا تريدين رؤيته؟

- اللعنة ثم اللعنة - قالت كأنها تكلم نفسها -- بقيت كرة واحدة ولا تريد أن تدخل... أنت ورسومك، يا ولد. أنت عبيط.

- ظننت أنه سيعجبك...

- هأ! - قاطعتني -- مرحى للفنان. كان يجب أن ترسمني بطريقة أخرى، يا رجل، ألا تنتبه؟ نعم، بطريقة أخرى... - عصبية لأنها لا تنجح في إدخال الكرية في الثقب -- سيجعلني أضحك، اسمع. لماذا لم ترسمني وأنا أتبرز، نعم، أتبرز خرية طيبة تحت مدخنة ضخمة تفرز هي الأخرى خراء طيبًا، وبزنجي يمروح على مؤخرتي، أو الأفضل أن يكون صينيًا، هه؟ ماذا

تظن؟ ألا تعتقد أنه سيكون أفضل؟ - حوّلت عينيها عن اللعبة لتنظر إليّ وأردفت بابتسامة خفيفة وبنبرة أرق -: مزقه، يا عبيط. لماذا تريده؟

- إنه يعجبني.

- إنه يعجبه! - عاودت تركيز انتباهها في اللعبة ودمدمت -: مرحى إذن!

- نعم، أعرف... لكنك جميلة جدًا في الرسم. انظري إليه. من فضلك.

- أنا أهديه لك. وهيا اذهب. أنت ولد مضحك جدًا.

وانقلبت نحوي ضاحكة تريد أن تضربني بالحافظة، لكنني أمسكت يدها في الهواء فتوقفت، مسندة رأسها فوق كتفي. ومثل مرات أخرى عديدة كانت فيها شديدة القرب مني، خلال أمسيات الصيف المنصرم تلك في صحبة فوركات، بدا لي أن الهواء المالح للبحر الذي استحضرناه مرات عديدة قد عاد للاشتباك في شعرها وأنها للحظة قصيرة بقيت متفكرة وأسبلت مرة أخرى جفنيها لتمسك بضوء من بعيد، بترجيع حلم؛ ظننت أنها قد تنتهي بقبول الرسم وقبول إخلاصي. لكنها فجأة أطبقت على معصمي مقرفصة فوق الفراش، فتركتها تفعل؛ سقطت على ظهري فركبت هي فوق بطني، دون أن تفلتني.

- أترى؟ - قالت -. الآن أنا أقوى منك.

أطبقت فخذيها على جنبي واهتزت قليلاً فوق بطني كأنها تمتطي جوادًا، فظللت أنا ساكنًا. انسدل شعرها على وجهي، وبين هذه الخميلة السوداء، في نظرتها العابثة والناعسة، رأيت للحظة خاطفة التماع شرارة قسوة. وعلى الفور ترجلت من فوقي وانتحت جانبًا، دفعتني خارج الفراش فسقطت الحافظة على الأرض. «اذهب»، قالت من جديد. انحنيت لألتقط الحافظة وعند نهوضي رأيته واقفًا عند عتبة القاعة.

كان دنيس يربط جلدة الساعة حول معصمه الأيسر، وأكمام قميصه الأبيض مشمرة وشعره المشدود جيداً ممشط بالبريانتين. لن أعرف أبداً إن كان في زياراته للبرج يختبئ من خطر حقيقي، إن كان ما زال ثمة أمر بمطاردته والقبض عليه أم أنه كان هناك من باب السماجة، من باب الصعلكة، كما كان فوركات قبله. لكن كل إيماءاته وأوضاعه التي تكون أحياناً شديدة التكلف، وكذلك طريقته في المشي، ناظراً دائماً أين يضع قدمه وبنظراته الخاطفة المختلسة، كانت تشي بعلاقة طويلة ومكتملة مع العمل السري. فحس السرية، كما كان لي أن أجرب بعد ذلك بسنوات، هو شيء مكمل للأحلام وبشكل أسلوبيًا، طريقة للوجود مكتفية بذاتها وحتى شكلاً من أشكال «الغندرة». لكن رغم أن دنيس كان يستحق تقديرًا معيناً بسبب ذلك، بسبب المثل العليا التي كان قد تشاركها مع كيم ولأنه جلب إلى البرج الحقيقة الحقة، كاشفًا القناع عن فوركات، وفاضحًا دجله، فإنني لم أستطع في ذلك الحين الامتناع عن التفكير في أن تلك الحقيقة الحقة قد ألقت بفوركات إلى الشارع، ولهذا فقط لم أطق ذلك القواد منذ اللحظة الأولى.

- ها قد سمعت، يا غلام - تقدم بعزم شديد نحو الفراش وكان علي أن أبتعد لأفسح له طريقًا. وناظرًا إلى سوسانا أردف -: الطقس جميل اليوم وهذه ساعة الشمس بالنسبة لك، إذن، انهضي! - بضربة واحدة أزاح الملاءة، وأمسك اللحاف المتكرمش عند قدم الفراش، ولف به المريضة وحملها إلى الحديقة. تركته يفعل وعيناها مغلقتان ومطوقة عنقه بذراعيها.

بقيت هناك لحظة مذهولاً أنظر إليهما يخرجان، وأرى أظافر سوسانا الحمراء وأصابعها المتشابكة حول رقبته، وشفتاها تلمسان حنجرته البارزة، ثم خرجت أنا أيضًا إلى الحديقة، لكنني لم أسر معهما، ولم أتبعهما حتى الركن المشمس، وراء الصفصافة، حيث وضعها برفق في المقعد الهزاز الأبيض، ولف ساقيها باللحاف ووشوشها. اتجهت نحو البوابة دون وداع وحين كنت أفتحها، وحافظتي تحت إبطي وأنا ألعن الدخيل بصوت خافت، عاودت النظر إليهما. كانت سوسانا تتشمس في المقعد ملفوفة في اللحاف، ودنيس، الجالس على الأرض تحت الشجرة، ينظر إلى أعلى محدقًا في الأغصان المتراخية. وخلفه، بجوار الجدار الذي دهنه فوركات بالجير، كان ركن السوسنات الزرقاء، والبلابة المتربة، ونباتات الياسنت تتمطى بكسل تحت الظل المشؤوم للمدخنة. بعدها، أغلق دنيس عينيه.

دائمًا ما أتذكره في هذا الوضع، برأسه المستند على جذع الصفصافة ويداه خلف رقبته، وأربط بينه وبين الرغبة المعذبة التي لا تلين والتي لا بد أنها كانت تتملكه عندئذ، الجنون البارد الذي لا بد أنه كان يحكم كل أفعاله؛ ولو كان الأذى الذي سيسببه عامدًا، فإنني أقسم أنه تعمده في هذا الركن الهادئ من الحديقة بينما يحرس راحة الصبية المصدورة، في ظهيرة مشمسة مثل هذه.

هبطت شارع كاميلياس ورأيت السنيورة أنيتا عائدة إلى المنزل على نفس الرصيف وممسكة في يدها المرتعشة باقة من البقدونس كأنها طاقة رقيقة من الأزهار. كانت قادمة من البرج المجاور مطرقة البصر، تهز شعرها الأشقر القصير، ومرت بجانبي دون أن تراني.

# ٤

بعد ذلك بزمن طويل، حين اعتقدت أن لا شيء له علاقة بالبرج يمكن أن يهمني، عرفت أن سوسانا قد شفيت تمامًا، وأن أمها أصبحت سكيرة مسكينة لكنها ما زالت تحتفظ بعملها كعاملة تذاكر في سينما مونديال وأن دنيس يملك بارًا في شارع ريوس روساس، وينفق الكثير من النقود ويلبس مثل مانيكان. لم يكن أحد يشك في الأمر عندئذ ولا أنا بالطبع، لكن عُرِف فيما بعد أن موارده تأتي من تحصيل إتاوات من مناضلين جمهوريين قدماء ومن القيام بهجمات على مؤسسات تجارية.

في فبراير ١٩٥١، بعد ثلاث سنوات من آخر زيارة لي إلى البرج، قال لي فينيتو تشاكون، الذي كان يدور في عربة نقل صغيرة تابعة لشركة دام Damm موزعًا صناديق البيرة وكان يتباهى بشارب صغير وبأنه يعرف كل بيوت دعارة الحي الصيني وكل بارات الدعارة الراقية في المدينة، أنه رأى سوسانا تغسل الصحون خلف منصة بار العاهرات الذي يملكه دنيس في ريوس روساس؛ وأنها كانت في غاية الود معه ويا لها من فتاة، إنها أشهى من العسل، فجلدها ناعم مثل أمها ولها أكثر المؤخرات التي يمكن أن تتخيلها إثارة، حقًا، رغم أنه لا يدري إن كانت تعمل هناك كساقية فقط أم أنها «تبلع»[1] أيضًا مثل الأخريات، لكنه ينوي المرور بالبار يوم سبت بالليل ببذلته الجديدة ليتحقق من الأمر - لأن الطفلة فيما يبدو لم تعد تنام في منزلها...

---

(١) tragar : كناية عن العمل بالدعارة - م.

- لماذا تحكي لي كل هذا؟ - قاطعته مستاء -. من قال لك إن هذا سيهمني؟ ماذا يهمني أنا ماذا تفعل هي.

في ذلك الوقت، حين غادرت المنزل نهائيًا لتعيش مع عشيقها، كانت سوسانا بالكاد في الثامنة عشرة، أكبر مني بسنة. كانت أمها تشاهد ذاهبة إلى المنزل أو قادمة منه إلى السينما أو إلى الحانة، تزداد تدريجيًا هشاشة وتدهورًا، وغالبًا ما تكون قد أفرطت في الشراب وتحدث نفسها، وبدا معجزة أن تظل محتفظة بعملها، وبجلدها البالغ الرقة وبذهب شعرها الأشقر. كانت تقول، لمن يريد سماعها، إن سوسانا قد ذهبت بحثًا عن والدها وأنهما سرعان ما سيعودان إلى المنزل سويًا. وفي الصيف مرضت فكانت أرملة الكابتن بلاي، الدونيا كونشا، تذهب كل يوم إلى البرج لترعاها. حينئذ، ذات يوم لم يستطع أحد تحديده، ولا حتى الدونيا كونشا، وبنفس الطريقة الصامتة التي كان قد خرج بها من المسرح، ظهر فوركات من جديد واستقر مرة أخرى في البرج وفي حياة السنيورة أنيتا ليخلصها من انحرافاتها ومن الكحول. كان قد مر على سوسانا أكثر من ستة أشهر خارج المنزل.

ابتداءً من هذه النقطة ليس لدي سوى تعليقات وأقاويل الجيران، لكنني أستطيع تأكيد أنها لا تقل قيمة عن شهادتي. بعد أسبوعين من عودة فوركات، شوهد يترجل من تاكسي أمام بوابة البرج ويعاون سوسانا على الهبوط، بدت واهنة وكانت تحمل حقيبة صغيرة ومعطفًا من الجلد الرخيص مطويًا على ذراعها؛ رأوه بعناية بالغة يحمل الحقيبة ويمسك الفتاة من ذراعها ليدخلا سويًا إلى البرج. كان ذلك صباح يوم سبت من شهر يوليو

وكان السوق يغص بالحركة. لم يُعرف، في البداية، إن كانت سوسانا قد عادت إلى المنزل لتبقى أم أنها تنوي رعاية أمها خلال بضعة أيام فقط، لكن ما بدا مؤكدًا هو أن فوركات تولى شخصيًا مهمة الذهاب والبحث عنها وإقناعها بأن تأتي؛ كذلك قيل أن مبادرة العودة يمكن أن تكون قد اتخذتها الفتاة عندما لم تحتمل الحياة السيئة التي تحياها والمعاملة التي لا بد أن ذلك القواد يعاملها بها: كانت تكفي رؤيتها حين وصلت، شديدة الإنهاك والخجل، رغم أنه يجب الاعتراف لوجه الحقيقة بأنها، حتى لو نظرنا إليها نظرة سيئة ودون أن ننسى ابنة من هي، لم تكن تبدو كعاهرة، فلم تكن مفرط الزينة ولا تلبس مثلهن ولا تظهر شيئًا من جسدها، لم يكن يبدو عليها ذلك؛ بل بدا بالأحرى أنها قد عانت من انتكاسة للسل وأنها خارجة من مستشفى، مفزوعة بهالات تحت عينيها وبعض الكدمات في وجهها... على أية حال، في ثاني أيام عودتها إلى الدار، في ساعة متأخرة من مساء الاثنين ٧ يوليو، ظهر دنيس في البرج.

بعد زمن طويل من تلك الليلة، حين كان الشراب، ووخز الضمير قد دمرا ذاكرة السنيورة أنيتا، ظلت تصر إصرارًا قاطعًا على توضيح تفاصيل معينة: أنها لم تكن هي التي فتحت له الباب، أنها لم تستقبله أبدًا عن طيب خاطر في منزلها لأنها كانت تعرف أنه مقامر وقاطع طريق، رغم أنها كان يؤلمها أن تراه دائمًا ممرورًا تتملكه الهواجس، عاجزًا عن أن يغفر لزوجته وينساها، وأنها بالطبع لم تكن لتتخيل أبدًا انحراف طفلتها مع ذلك المنحط ولا طويته السيئة، ولا رغبته في دفعها إلى الانحراف. قالت إن العرص اللعين كان باستطاعته أن يشفي غليله معي، فما أكثر وأفظع الأشياء التي

إرتكبوها معي في هذه الحياة بحيث أن شرمطة أخرى ما كانت لتهم، فقد أصبح جلدي سميكًا، لكن لا، فقد كان يعرف جيدًا أن هذه الطفلة المريضة هي أغلى ما لدى كيم في هذا العالم... أنها كانت في الفراش مصابة بحمى شديدة وتعرق مثل كتكوت، وهكذا كان فوركات هو الذي فتح الباب، ظانًا بالتأكيد أنها الدونيا كونشا وقد عادت من الحانة بالثلج المجروش؛ كانت سوسانا قد فرغت لتوها من الاستحمام وكانت بالبرنس، وبينما تجفف شعرها بالمنشفة صعدت إلى غرفة فوركات بحثًا عن أسبرين، عندها حدث ما حدث. أنها لم تدرك ذلك بعينها، بل بقلبها: دنيس مندفعًا في هياج يصرخ مناديًا الطفلة طوال الردهة وحتى القاعة، مثل مجنون، وفوركات يحاول تهدئته، محاولاً التعقل أولاً، ثم متجادلاً وإياه بعنف، متهمًا إياه بالغيظ والكراهية دون أساس وبالجبن، حتى تمالك دنيس ووصفه بأنه مهرج وطفيلي وهدده بإلقائه مرة أخرى في الشارع ويقتله إذا تدخل بينه وبين سوسانا. قال، سآخذها معي ولن يمنعني حتى الرب. أنها في تلك اللحظة سمعت بقلق ابنتها تهبط السلم مسرعة، فقررت النهوض وارتدت ثوبها وخرجت إلى الردهة، لكنها لم تستطع اللحاق بها، وحينئذ سمعت الطلقتين اللتين دوى صداهما في المنزل بأسره؛ بلغت القاعة فرأت سوسانا والمنشفة ملفوفة حول رأسها وظهرها مستند إلى الحائط، مشلولة وعيناها ثابتتين على المسدس الذي كان فوركات يمسكه ربما لأول مرة في حياته، ورأت دنيس يترنح وهو يتجه ليفتح الباب ويخرج إلى الحديقة، حيث خطا ثلاث خطوات ثم سقط على وجهه؛ وأن فوركات خرج عندئذ في أعقابه وفي نفس ذلك الموضع، وإحدى قدميه على آخر درجات السلم، ببطء ومميلاً

رأسه، بدقة تأملية في اليد التي تقبض على المسدس وفي النظرة الحولاء، أفرغ خزانة المسدس في الجسد الهامد الممدد على الحصباء. بعدها طلب بنفسه الشرطة، وسلم المسدس وتركهم يقيدونه، وحين أخذوه نظر إلى الطفلة لكنه لم ينطق بكلمة واحدة، ليس صحيحًا أنه قال لها الآن لم يعد لديك ما تخافينه، ولا اعتني بأمك من أجلي واسلكي سلوكًا حسنًا، فذلك ما اخترعه الناس أو ربما اخترعته أنا نفسي، ومن يدري إن كنت قد حلمت به، قالت السنيورة أنيتا، فقد كنت مرتبكة ومشوشة، وحتى اليوم ما زالت تلك الطلقات المرعبة توقظني بالليل، وسأظل أسمعها حتى أموت؛ كذلك لم يودعني بقبلة ولا قال سنتلقي من جديد ولا شيء من ذلك، فقد كان يعرف جيدًا ما ينتظره كما أنه لم يكن ليستطيع معاودة الضحك علي بالكلمات الطيبة، كما فعل مرات عديدة... أن فوركات لم يحول للحظة واحدة عينه الزائغة عن ظهر الميت المثقوب بالرصاص، قالت، وأنه لم يعاود فتح فمه، حتى ولا للرد على أسئلة رجال الشرطة أو الشكوى من المعاملة الخشنة التي عاملوه بها...

حكت الأمر على هذا النحو، انطلاقًا من الرواسب الزلقة لذاكرة راكدة وهي تكافح للتخلص من تخمينات الغرباء ومن تخميناتها الخاصة، كأنها هي الأخرى تتملكها مشاعر وتحيزات تحجب الحقيقة، ولا تنتمي إلى تلك الليلة المشئومة، ولا يربطها شيء مع واقع الأحداث. لكن في مناسبة معينة، بينما كانت تعلق عند منصة بار بياديه على الشفاء النهائي لابنتها وخروجها مؤخرًا من دار الراهبات حيث ظلت محتجزة نحو عام، أغمى عليها وحين أفاقت بمساعدة صاحب البار وزوج من الزبائن، قالت بلهجة تأملية ومتحيرة

بعض الشيء، كأنها تواصل حوارًا ربما بدأته في الأحلام، أن لا يا سيدي، أن ما يقولونه عن ابنتها ليس أكيدًا، إنها كانت قد شفيت تمامًا من السل حين استسلمت للحب المنتقم لدنيس الهائج، ودون رابطة، أردفت أنه ليس مؤكدًا كذلك أن تكون سوسانا قد دافعت عن نفسها ضد ذلك المنحط بسكين مطبخ، بل فعلت ذلك بمسدس رغم أنها لم تكن قد أمسكت واحدًا في حياتها وأنها هي على وجه الدقة كانت قريبة جدًا بحيث جعلتها الرصاصات صماء... وفتح ذلك الباب لتنويعات جديدة وجامحة للحدث، زعمت إحداها أن الطلقتين الأوليين، التي ظلت السنيورة أنيتا تقول دائمًا أنها سمعتهما من الردهة، قد أطلقتهما ابنتها، وأن هاتين الرصاصتين كانتا كافيتين للإجهاز على دنيس؛ وأن فوركات على الفور، انتزع من الفتاة المسدس الذي ما زال يتصاعد منه الدخان ليطلق الطلقات الأربع الباقية على ظهر الميت.

يعجبني هذا الحيود، وقد أعجبني منذ اليوم الأول الذي سمعته فيه وظللت أنميه في قلبي سرًا مع مرور الأعوام. إذ أننا لو فكرنا جيدًا، فمن سوى سوسانا كان يمكنه الإستيلاء على مسدس فوركات، بافتراض أنها كانت في غرفته حين وصل عشيقها يصرخ ويهدد؟ ولم يكن من الطبيعي أن يحمل فوركات المسدس معه حين فتح الباب...

لكن ذلك كان أكثر من مجرد افتراض، كان شعورًا. فعلى هذا النحو، بإعادة قتل الجثة المسجاة في الحديقة لإبراء الطفلة من الذنب، توّج الدجالُ الأحولُ دجلَه.

# ٥

تزوجت أمي أخصائي الأقدام براوليو وأخذنا لنعيش معه في منزله، وهو شقة واسعة ومشمسة في ميدان ليسيبس كان يشارك فيها أخته العانس. كان بها أربع غرف، وحمام، ومطبخ وشرفة خلفية في الطابق الأخير من مبنى سكني حديث الإنشاء. كانت بعيدة بعض الشيء عن ثردينيا ـ كاميلياس، لكن قريبة من الورشة، التي أذهب إليها الآن بالدراجة، هدية براوليو. كان أخصائي الأقدام رجلاً طويل الأنف ممتلئًا ومتفائلاً، حنونًا مع أمي وحتى مرحًا، وكان لديه ببغاء يسميه كلارك جيبل[1] ويحب الطهو ويغني في الحمام، وأبهج كل هذا حياة أمي؛ لكنه اعتبر أن من واجبه ممارسة دور الأب فلم أدعه يفعل. لم أستطع أن آخذ على محمل الجد ذلك الرجل الضخم بذراعي بوبيي[2] والابتسامة الأريحية، فقد كان سمجًا وهو يحكي عن أشيائه ولم أتمكن أبدًا من الدخول معه في مناقشة لا تكون تافهة؛ كان يتمتع بموهبة جعل كل شيء يبدو غير جوهري وأحمق، وأول هذه الأشياء أنا: كنا نبدأ في الحديث وبعد خمس دقائق أفاجئ نفسي وأنا أقول حماقات. مع الزمن، كان لا بد لمعاملته البسيطة والصريحة ولتأثيره الشافي أن يذيبا غرور صباي فأتعلم أن أحبه، لكن في ذلك الحين عادت ذكرى أبي لتستحوذ علي، رغم أنني لم أعد أفكر في موته وحيدًا بعذاب مثلما حين كنت طفلاً؛ كنت أعرف أنه لن يعود أبدًا كما لا يمكن توقع أي خبر عن مكانه، لكن جسده الصريع في الخندق والعاصفة الجليدية الغزيرة التي تأخذ في

---

(١) Clark Gable.

(٢) Popeye.

تغطيته ظلاً موجودين، في الركن الذي ظننته أكثر الأركان يقينًا وأمانًا في الذاكرة، حتى حدث شيء ذات يوم جعل الصورة مجردة من العاطفة على غير توقع، كاشفًا عن أصلها المصطنع: ففي ذاك اليوم سألتني أمي، وهي تنظر إلي بشك عطوف، من أي داهية جئت بذلك الخندق وتلك العاصفة الثلجية الهائلة، تلك الفكرة التي كانت لدي منذ الصغر والتي لم تشأ هي تكذيبها أبدًا، لأن ذلك أفضل من لا شيء بالنسبة لطفل دون أي تذكارات عن أبيه، لكنها لم تحدثني أبدًا عن شيء من هذا القبيل لأنها في حينه لم تستطع حتى التحقق مما إذا كان أبوك قد مات في الجبهة، قالت، ولا على أي نحو وما إذا كانت تمطر أو يتساقط الجليد أو تشرق الشمس حين حدث ذلك، بحيث أن كل هذا، كما ترى، ليس سوى تهيؤات صنعتها أنت... الحمد لله أن الزمن يمحو كل شيء، يا بني، أضافت بابتسامة ملتبسة، لا أدري إن كانت ابتسامة ارتياح أم حزن.

بعد تغيير السكن، ظلت أمي تزور الدونيا كونشا بانتظام وتعاونها بقدر ما تستطيع، ومنها عرفت أن سوسانا ظلت لبعض الوقت تعمل كعاملة في محل أزهار بميدان تريبيا ثم في محل لعب في شارع فيردي، وأنها الآن تتبادل مع أمها العمل في شباك تذاكر سينما مونديال. انتويت عدة مرات الذهاب لرؤيتها في السينما، لكن شهورًا مرت قبل أن أحزم أمري. اعتقدت دومًا أنني سأعفى من الخدمة العسكرية لأنني ابن أرملة، لكن بعد عام من زواج أمي تم تجنيدي وتوجيهي إلى شاون، في شمال المغرب، مما أسعدني: فكلما كان أبعد، كلما كان أفضل، سأعبر مضيق جبل طارق وربما قفار الصحراء الكبرى، وسأعرف سيدي إفني وجبال الريف، إفريقيا،

قارة أخرى... أحسست كأنني سأقوم برحلة طويلة إلى نهاية العالم بالضبط في اللحظة التي كنت فيها بحاجة إلى وضع نهاية لأشياء عديدة.

قبل يومين من رحيلي إلى الجزيرة الخضراء ذهبت لوداع فينيتو تشاكون، الذي لم يعد يعمل موزعًا لبيرة دام لأنهم ضبطوه وهو يسرق صناديق البيرة؛ ويعمل الآن صبيًا لكل الأعمال في ورشة إصلاح سيارات بشارع روس دي أولانو، غير بعيد عن سينما مونديال. لكنني حين وصلت قالوا لي إنه لم يعد يعمل هناك أيضًا، فقد فصلوه بسبب سرقة بعض الإطارات وفانوس دراجة بخارية.

قلت لنفسي عند خروجي من الجراج إنني كنت أعرف، أن فينيتو هذا مفضوح تمامًا، وعلى الفور فكرت ما الفائدة، أنسه، وجاهدت لإقناع نفسي بأن شيئًا مما يمكن أن يحدث للأخوين تشاكون لم يعد له صلة بي ولا يمكن أن يؤثر في، قلت لنفسي ما أجمل أن أحس أخيرًا بأنني منفصل عن الحي وعن مشاغله البائسة، وكررت ذلك لنفسي المرة بعد المرة وأنا أسير باتجاه سينما مونديال بتصميم غريب ومتبرئًا خطوة وراء خطوة من الزمن الماضي ومن سراباته، ما أجمل أن أحس أنني قد أصبحت بعيدًا وبلا جذور وما أشد راحة ألا تهمني على الإطلاق آمال ذلك الحين، مواهبي الواعدة كرسام والمحبطة في النهاية، هذيانات الكابتن بلاي تلك وهو يطالب بالتضامن من أجل طفلة مصدورة ستنتهي بأن تصبح عاهرة وحنقه وألمه لأنه لا يحصل حتى على عشرين توقيعًا، كم أنا محظوظ بإحساسي بالابتعاد المتزايد لذكرى أولئك الرجال المغروسين في الطريق العام كأنهم أعمدة نور، بإحساسي بأنني غريب عن ذكرى أبي وعن الحبكة الثلجية والقبرية لموته

وعن أخصائي الأقدام المضجر المتزوج بأمي وأيضًا عن المصير الهامشي والإجرامي المتوقع الذي ينتظر الأخوين تشاكون. أي أحبولة هذه، فكرت...

لكن كان هذا عبثًا، فلم أستطع أن أصدق كلمة واحدة من تلك الثرثرة لأنني لم أتمكن من الإحساس بأي شيء، إذ أن تلك المشاعر التي كنت أحاول دفنها هي بالضبط ما كان يدفعني نحو سينما الحي الصغيرة، لأنني لم أكن أعرف بعد حينها أننا برغم نمونا ومهما نظر المرء صوب المستقبل، فإن المرء ينمو دائمًا صوب الماضي، ربما بحثًا عن الدهشة الأولى. وانتابني فضول مرضي معين عند التفكير في سوسانا، عند تخيلها تجهد لتمحو من عقلها ومن دمها مهنة وبقايا العاهرة التي تعلمتها بين ذراعي ذلك القواد، متسائلاً إن كانت بعد عام من الاحتجاز مع الراهبات قد شفيت من ذلك تمامًا مثلما شفيت من السل أم أن وصمة معينة ستظل تلازمها إلى الأبد في نظرتها أو في تعاملها مع الرجال - وقبل كل شيء، هل سأكون قادرًا على سؤالها إن كانت حقًا قد أمسكت بذلك المسدس وكانت هي التي أطلقت الرصاص أولاً...؟ -، هذا الفضول إلى جانب حزن غير محدد أخذ يفلت من سيطرتي، ويتنامى كلما اقتربت من الموندِيال، أزاحا في أقل من زفرة تلك الاشتياقات الانتقائية للذاكرة، المفتقرة إلى الأساس بقدر ما هي تعسفية.

وعند دخولي إلى بهو السينما ورؤيتها وهي تشتغل الكروشيه في ذلك الثقب المظلم الذي كان قد ضم أمها أيضًا، تلك النافذة الصغيرة في وسط الجدار المنقوش المليء بالخدوش ومزق الإعلانات، قبل ثوان بالضبط من دفع نفسي إلى التعرف عليها والبدء في تمني ألا أكون موجودًا هناك،

عاودت رؤيتها على الرغم مني تقريبًا جالسة في الفراش ومحتضنة ركبتيها البارزتين وقطها القماشي الأثير، مصغية وعيناها مغلقتان بتفان إلى طنين المدينة الموعودة، طفلة مستغرقة في عادة المسافات البعيدة والأكاذيب، حالمة وواثقة في ملاذها الزجاجي الدافئ، في فقاعتها الصغيرة المحظوظة. تبخرت الصورة على الفور؛ فما كان أمامي الآن كان شابة متوردة وممتلئة بعض الشيء، بنظارات وهيئة متعافية، شعرها مضموم في ذيل حصان وشفتاها دون تلوين. في عمر يربو قليلاً على الثالثة والعشرين، كانت جبهتها لا تزال جميلة وجلدها مشدودًا، لكن لم يتبق أدنى أثر للدفق الوردي والحسي للفم، ذلك الامتلاء المتجهم للشفة العليا وتلهفها المريك. منهمكة في شغل الكروشيه وعيناها مطرقتان، بدا أنها لا هي ولا الثقب الذي تحتله في البهو الخالي تربطهما أي رابطة بما حولهما، لا بالمرور في الشارع ولا بالمارة المتعجلين، ولم تبد حتى واعية بأنها موجودة هناك، غائبة عن كل شيء وربما لا تزال منكفئة على نفسها في تبرئها الصعب مما لا بد أنه حدث منذ زمن ولم يحدث أبدًا. وكم من مرة فكرت في الطبيعة البائسة لذكرياتها وكأنها انعكاس لذكرياتي البائسة مثلها تمامًا.

ومثل كيم في تلك الليلة المشؤومة التي نظر فيها إلى المياه الداكنة والمتعبة لنهر الهوانج - بو من المرفأ، أحسست بالمدينة من حولي كأنها ركام من القمامة والخردة، لم أدر ماذا أفعل فأخذت أنظر إلى الصور المعلقة في اللوحات. وبعد برهة من التظاهر بالاهتمام ببعض الوجوه والأشكال التي بدا أنها هناك منذ الأزل والتي لم أكن أنظر إليها في الحقيقة، توجهت نحو شباك التذاكر. دون حاجة إلى أن تراني نبهها شيء

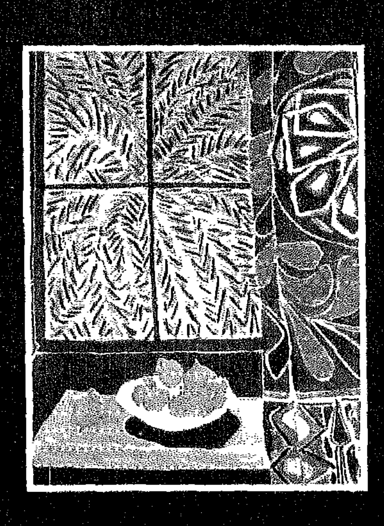
ليس هو حتى ظلي، ربما الحفيف المكتوم لخطواتي، أو الهواء الذي أزاحه جسدي أو مجرد عادة الإحساس بحضور أمام الشباك، فتركت جانبًا شغل الكروشيه، وأمسكت بدفتر التذاكر سألت: «كم؟»، دون أن ترفع عينيها، فقلت: «واحدة»، دفعت وعلى الفور فوجئت بأنني داخل السينما تقريبًا وأنا أعد نفسي بتحيتها عند خروجي، متحسسًا بارتباك الستارة المتربة التي لا تنتهي من طرف إلى الآخر حتى أفلحت في شق طريقي والالتجاء إلى ظلمة القاعة، منكمشًا في أحد مقاعد الصف الأخير وشاعرًا بالأسى من نفسي أكثر منها.

خلال برهة طويلة لم أدر بما يدور على الشاشة. فما رأيته يتتابع أمام عيني المرة بعد المرة كان صورة واحدة ترمش متجمدة وساكنة كأنها احتبست في آلة العرض، انعكاسًا لضوء أشد وهمية من ضوء فيلم لكنه منقوش في القلب بقوة أكثر مما هو في شبكة العين، وسوف يلازمني إلى الأبد: سفينة بريد بيضاء مثل الثلج تبحر مزدانة في بحار الصين تحت الليل المرصع بالنجوم وفتاة تتمشى على سطحها على ضوء القمر في تشيباو من الحرير مفتوح من الجانبين، النسيم في شعرها وكل جسدها يرتجف من البعد، مبهورة بالبحر الفسيح المتلألئ بالفضة التي تتردد في حواف الأمواج حتى الأفق، سوسانا تاركة نفسها ليحملها حلمها وذاكرتي برغم القنوط، وانحرافات المثل الأعلى والزمن المنصرم، اليوم مثل الأمس، باتجاه شنغهاي.

# شفاه عارية

مادام الإبداع الحقّ إعادة اكتشاف حرة ودائمة للنفس وللعالم. ومادام كلُّ عملٍ أصيل ينطوي على كسرٍ لتقاليدٍ وإرساءٍ لغيرها، فيجب - في وجه الصعوبات والتحريمات المتزايدة - أن يُقالَ بفمٍ مكشوف. فقدَرُه أن يكشف ما يودُّ الكثيرون ستره. لتتراجع إذن تلك الشفاه المحجبّة التي تتملّص من كلماتها حتى قبل أن تقولها. ولتتصدّى الشفاه العارية لتَهَجِّي حروف حريتها كاسرةً كل قيد لا يمليه المبدعُ على نفسه. «فالزمّار لا يُغطي ذقنه» كما يقول المثل. وهذه السلسلة المقترحة «شفاه عارية» تهب نفسها لكل إبداعٍ أراد الانتماء إلى حريته، وامتلك شجاعة هذا الانتماء، ساحةً مشاعاً للتجريب والاكتشاف، وخيطاً يربط بين فرسانها، ويرسم، بامتداده، المدى الذي يوسّعون إليه هذه الحرية المبدعة. فليستخدمها من أراد شعاراً لإبداعه، دون استئذان، فليست ملكاً لأحد. الحرية تختار من يختارونها. ومن هنا، فعليكم، أيها المبدعون، قرّاءً وكتّاباً، يقع عبء أن تكون هذه الرواية بدايةً لسلسلةٍ أو لا تكون.





**خوان مارسيه** (١٩٣٣) ، أحد ألمع كُتَّاب جيله في إسبانيا ، وأحد ثلاثة يتصدّرون قائمة أفضل الكُتَّاب على المستوى القومي في نظر النقاد . عمل منذ سن الثالثة عشرة في ورشة ساعات ، ونشر أولى رواياته عام ١٩٦١ .

أما **"سحر شنغهاي"** فحصلت على جائزة النقاد في إسبانيا فور ظهورها عام ١٩٩٣ ، وفي العام التالي حصلت على جائزة أوروبا للأدب التي يقدمها الاتحاد الأوروبي .

في الرواية ، التي تُعدُّ عيِّنةً للعالم الروائي عند «مارسيه» ، وفي نفس الوقت إعادةَ نظرٍ في هذا العالم ، يُعيد الكاتب خلق الأجواء الشعبية لبرشلونة بعد الحرب الأهلية- وهو الشغل الشاغل لأغلب رواياته- ويُقَدِّم استقصاءً وتمحيصاً مؤلمين لذاكرة المهزومين ببراعةٍ وشاعريةٍ وتعاطف عميقين . . إنها بكلمات المؤلف «تأملٌ لتلك المُثل العليا ، لذلك الأمل في المستقبل ، الذي دَفَعَنا إلى ما دَفَعَنا إليه» .

شفاهية